كامل الشريف

الإخوان المسلمون في حرب فلسطين

مكتبة المنار

الطبعة الثالثة

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

مكتبة المنار - الزرقاء

شارع الفاروق - بجانب جمعية المركز الإسلامي

ت ٨٣٦٥٩ - ص.ب ٨٤٢

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

«إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ »

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام المتقين، وقائد المجاهدين وعلى آله واصحابه والداعين بدعوته الى يوم الدين وبعد.

فان هزيمة العرب والمسلمين امام اليهود في فلسطين ليست من الحوادث الهينة التي يستوعبها كتاب واحد، وان اسبابها ـوان كانت واضحة لمن يسّر الله له سبل الحق وانار بصيرته وبصره ـ لا زالت مشكلة يستعصي فهمها على الكثيرين.

ولست ازعم انني اوفيت هذا الموضوع حقه لكنني احمد الله عز وجل ان اتاح لي الفرصة، وجعل لي فضل السبق فكان هذا الكتاب هو أول كتاب يتصدى للحرب الفلسطينية، و يكشف الكثير من اسرارها، ويمزق الحجب عن اخطاء فاحشة اريد لها ان تظل مخبوءة الى ابد الآبدين.

ولقد تنبأت في الطبعة الأولى وتوقعت اعتداءات يقوم بها اليهود، ولم تمهلني الأيام كثيراً على قرب ما بين الطبعتين، حتى سمعنا كثيراً عن الاعتداءات التي راح ضحيتها ألوف من العباد الآمنين.

وها نحن اولاء نوالي ارسال هذه النذر ونشير الى العدوان الاكبر ـوقد أهلّ علينا غباره ولفحت وجوهنا ناره ـ و يوشك ان يحل بأوطاننا فيدمر علينا حضارتنا و ينغص علينا حاضرنا ومستقبلنا.

ان خطر الدولة اليهودية الدخيلة يزداد وضوحاً كل يوم، ومما يعزينا ان الشعوب العربية والاسلامية أصبحت أكثر اقتناعاً بخطر هذا العدو الماكر، واكثر استعداداً لمكافحته واستئصال شأفته، ولم يعد ينقصها الا توضيح الطريق القويم، وازالة الشبهات التي تخيم على مداخل السبيل المستقيم.

ماذا اعدت الحكومات العربية؟

ماذا فعلت الحكومات العربية لمواجهة هذا الخطر المتزايد؟ ان كل عدوان يقع من جانب اليهود، وكل خطوة جريئة نحو تثبيت دعائم الدولة وتوسيع رقعتها، نقابلها نحن باحتجاج الى هيئة الأمم، وتكون احتجاجاتنا مرة شديدة اللهجة، ومرة خفيفتها حسب عدوان اليهود ومدى خطورة اعمالهم.

جفف اليهود بحيرة الحولة وسيستفيدون من خصوبة ارضها بدون حق، وسيتحكمون في مصير الجيش السوري لو اراد التقدم خطوة واحدة للأمام.

ونقل اليهود عاصمة دولتهم الى القدس غير مبالين باحتجاجات الدول العربية ولا قرارات مجلس الأمن، ولن يسمح اليهود ببقاء جيش اردني يقاسمهم المدينة المقدسة، و يدور حول عاصمتهم بمواقعه في «بيت لحم» و «الخليل».

واعتدى اليهود عشرات المرات على مواقع الجيش المصري ومعسكرات اللاجئين في غزة، لتدمير قوة المصريين المعنوية واقناعهم ان السلامة في الصلح مع اسرائيل.

فاذا فعلنا ازاء هذا الاستهتار الواضح؟ ملأنا ملفات هيئة الأمم باحتجاجات شديدة اللهجة حتى لم يبق فيها متسع لمزيد!

هذا عبث لا طائل وراءه، وهزل جعل منا امثولة المتندرين واضحوكة الضاحكين.

واجبنا نحو الارض المقدسة:

ان واجبنا كعرب وكمسلمين يدفعنا للعمل على استرداد الأرض المقدسة اولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين وارض الاسراء والمعراج والتربة التي تحوي بين طياتها جموعاً متلاحقة من شهداء الاسلام وابطاله.

وحتى اذا تركنا ناحية الاسلام جانباً كما يريد دعاة الوطنية المحدودة اولئك الذين لا يفكرون في امر إلا من خلال نظرتهم لمصلحة اوطانهم المجردة، فاننا نجد هذه الحقيقة ماثلة

امام أعيننا وهي ان بقاء اسرائيل خطر يهدد الأقطار المجاورة لها، وان دفاعنا عن فلسطين يعتبر في الوقت نفسه دفاعاً عن مصر وسوريا والأردن والحجاز.

ان مصلحة الاسلام ومصلحة العروبة ومصلحة الوطنية المحدودة تلتقي كلها في مكافحة اليهود والقضاء عليهم، وتخليص الانسانية من شرورهم ومكائدهم.

هل ينكر الا مكابر جاحد ان اليهود يسيل لعابهم كلما ذكروا (سيناء) المصرية؟ انهم يعتبرونها بقعة مقدسة و يعملون جاهدين لضمها الى دولتهم بكل وسيلة، فهي الأرض التي تاه فيها اسلافهم اربعين عاماً، وهي الأرض التي ناجى فيها موسى ربه، وشهدت نزول الألواح والوصايا، وهي الأرض التي حمتهم من طغيان الفراعنة. أيتركونها وهي لا تقل في نظرهم قدسية عن فلسطين ان لم تزد؟..

هذا الى جانب اهميتها الاستراتيجية وقيامها كدرع صخري منيع يقف في وجه مصر، ويتحكم كقلعة راسخة في البحرين الأبيض والأحمر ويقع بين قارات ثلاث افريقيا وآسيا ولا يبعد كثيراً عن اوروبا.

يضاف الى ذلك كله خصوبة ارضها وامتلاؤها بالمعادن والخامات اللازمة للنهضة الصناعية الاسرائيلية. وهل ينكر احد ان اليهود يعملون منذ الآن لاستخلاص بقية المدينة المقدسة من يد الجيش الاردني وطرد هذا الجيش نهائياً من فلسطين ليتم لهم احتلال البقاع المقدسة وتدمير المسجد الأقصى ليقوم على انقاضه هيكل سليمان الموعود!.

وما يقال عن مصر والاردن يقال عن سوريا ولبنان واطماع اليهود فيها معروفة غير منكورة. فهل هذا خطر يمكن السكوت عليه؟ وهل هذا عدو يمكن مجابهته بهذه الوسائل المخزية المزيلة؟

الهزيمة الماضية:

يجب ان نتخلص من ظلال الهزيمة الماضية، وان لا نذكر منها الا الدروس والعبر، وان ندرك تماماً ان هذه الهزيمة لم تقع نتيجة لتفوق اليهود من الناحية العسكرية، لقد وقعت لاننا كنا نحمل عواملها معنا من أول يوم بدأنا فيه حربنا مع اليهود، فان فساد نظم الحكم القائمة

في العالم العربي، وما طبعت عليه من طغيان وغفلة امات النخوة في الشعوب، وقتل فيها معالم الرجولة، وخلفها قطعاناً هائمة لا يجمعها هدف ولا توجد بينها غاية. وتركها تتخبط في دياجير من الظلمات يستحيل معها معرفة الحقائق ووضوح الاهداف والوسائل الموصلة اليها. وكان من نتائج ذلك ضعف الجيوش العربية، وانعدام الروح المعنوية فيها، وضعف دربتها واستعدادها.

واختلاف الدول العربية بعضها مع بعض اختلافاً نتج عنه اصطدام الخطط ووجود ثغرات نفذ منها العدو المتربص.

كل هذه المصائب كانت كافية لايقاع الهزيمة، فاذا جاءت بعد ذلك السياسة اليهودية ومدى تأثيرها على الدول الكبرى والمحافل الدولية، ثم تفوق اليهود في القيادات العسكرية التي استغلت ما في يدها من قوة محدودة استغلالاً يشهد لها بالبراعة والمقدرة حين ظهر فشل قياداتنا العسكرية في استغلال قواتنا الكبيرة استغلالاً سليماً كافياً، فكان مثلنا ومثلهم كمثل متوسط الحال الذي يحسن استغلال ثروته ولا يضيع المليم الا في المكان المناسب، ومثل الغني السفيه الذي يبعثر ماله يميناً وشمالاً فلا تظهر عليه آثار النعمة ثم ينتهي به الحال الى الافلاس والخراب.

اذا علمنا ذلك كله وربطنا المقدمات بالنتائج امكننا ان نعرف اسباب الهزيمة وان نحدد مواطن الداء العضال.

الى العلاج:

ان المحور الذي تدور حوله انواع الفساد كما تدور اسراب البعوض حول المستنقعات العفنة هو فساد نظم الحكم في العالم العربي، وأن كل محاولة للكفاح والاصلاح قبل تقويم هذا الأساس هي في الحقيقة ضرب من العبث وإضاعة الجهد.

ونحن لا نريد ان ننافق مع المنافقين، او ان نأخذ مكاننا في صفوف المتملقين، ونقول معهم ان «الحال عال وليس في الامكان ابدع مما كان» او نحاول معالجة الاطراف البعيدة

دون ان نضع اصابعنا على منابت الداء ومنابع الفساد.

ان اصلاح نظم الحكم في العالم العربي يجب ان يكون الهدف الاول الذي تتطلع اليه صفوف العاملين فاذا فرغوا من ذلك فما اهون الاصلاح وما ايسر البناء، انه يصبح حينئذ سهلاً ميسوراً.

ان النتيجة الطبيعية لاصلاح نظم الحكم هي قوة الشعوب وشعورها بالعزة والكرامة، واقبالها على التضحية والواجب وتوجيه جهدها وجهة صحيحة سليمة، ومن وراء ذلك كله تكون قوة الجيوش و بناء المصانع والاخذ باسباب القوة والجهاد.

خطوات لا بد منها:

ان هذا الطريق الذي اوضحناه واشرنا الى مداخله قد يكون طويلاً وشاقاً، و يلزم للشعوب كي تسير فيه وتنتظم على جوانبه كثيراً من الجهد والوقت، وان كل تأخير في مكافحة اليهود يكون في مصلحتهم دون ريب، و يتيح لهم الفرص لمواصلة الاعداد، و يدفعهم للتوسع على حساب العرب قبل ان تتغلب حركات الاصلاح في دولهم و يصبح من العسير احراز كسب جديد.

واذن فلا بد من وسيلة يكون من شأنها عرقلة الاستعداد اليهودي وتعطيل حركات الانشاء القائمة في اسرائيل، و يكون ذلك كله تمهيداً للغزو الاكبر، ولن يتأتى ذلك الا بوسيلتين تسيران جنباً الى جنب وهاتان الوسيلتان هما: ١ـ الحصار الاقتصادي. ٢ـ حرب العصابات.

الحصار الاقتصادي:

ان اول ما يهتم به اليهود هو السيطرة على اقتصاديات الشرق العربي، واكثر ما يعنيهم من قيام اسرائيل هو تحويلها الى مصرف كبير تسيل فيه واليه اموال اليهود من جميع بقاع العالم، ولذلك فان مقاطعة البضائع اليهودية ومنع التهريب الى اسرائيل يعتبر وسيلة حاسمة

لتدمير خطط اليهود والقضاء على دولتهم.

ان الجامعة العربية تحاول هذه المحاولة، لكن وسائلها الضعيفة لم تأت بالثمرة المرجوة، وان كانت الشعوب العربية بدافع من وطنيتها لم تتبادل التجارة مع اسرائيل حتى الآن بالطرق المباشرة، فمما لا شك فيه ان بضائع اليهود تدخل اسواقنا عن طريق الشركات الاجنبية الاستغلالية على انها صناعة انجليزية او ايطالية وعن طريق هذه الشركات المنكودة يتم هذا التبادل وذلك شريان الحياة الذي يتدفق من دمائنا ليسيل في جسم هذا العدو المشلول، والفضل اولاً وأخيراً لهذه الطائفة من الخواجات والمتمصرين الذين يأتون الى ديارنا معدمين ثم يستغلون غفلتنا ليصبحوا سراة قادرين، ثم يصل بهم الحال الى معاونة خصومنا ونصرة اعدائنا، ثم نجد بيننا من الحمقى من يصيحون في بلاهة (احرار في بلادنا، كرماء لضيوفنا)!

حرب العصابات:

حينما ساقتنا القوة الباطشة الى المعتقلات عقب الحرب الفلسطينية كتبت عدة مذكرات للمسؤولين في الجيش المصري ناديت فيها بوجوب تسخير القوة الشعبية الفلسطينية لارهاق العدو وارغامه على قتال طويل المدى بواسطة عصابات عربية صغيرة تنتشر في صحارى فلسطين، فتدمر الجسور والطرق وتحرق المصانع والمعامل وتغير على المستعمرات الزراعية وتعمل يد التحريق والتدمير في مزروعاتها وآلاتها، وتنشر الرعب والفزع في كل مدينة وقرية ومستعمرة. وقلت ان هذه الحالة لن تكلف كثيراً، ولكنها كفيلة بتعطيل الجهاز الانشائي في دولة اسرائيل، وارغام جيشها الكبير الذي تفرغ للتدريب والاعداد على حماية حدودها المترامية وعلى حراسة طرق المواصلات والمستعمرات والمصانع وغيرها من المراكز، وفي ذلك ما فيه من ارهاق لميزانية الدولة واشغال لهذه القوات الى جانب الخسائر الهائلة التي يمكن ان تقع في الجنود والعتاد.

وقد كان مما يساعد على نجاح هذه الخطة ان الحرب كانت لا تزال قائمة والشعب الفلسطيني لا يزال يعيش في مناطق من فلسطين المحتلة وليست هناك حدود معترف بها بين

اسرائيل والمناطق العربية من فلسطين، كما ان الدول العربية كانت تستطيع في ذلك الحين ان تعلن ان الشعب الفلسطيني قد استرد حقه في تحر ير وطنه بالوسائل التي يراها بعد فشل التدخل العربي الجماعي في تحقيق هذه النتيجة. ولقد كنا نعتقد ان اشتعال الحرب التحر يرية من جانب الفلسطينيين قد يغري العدو بتكرار مهاجمة شبه جز يرة سيناء، فقد نصحنا بضرورة تحصين هذه المناطق تحصيناً قو ياً، ولقد اقترحنا من اجل تحقيق هذه الغاية بناء مستعمرات زراعية على طول الحدود في المناطق التي يوجد فيها الماء والاراضي الزراعية الصالحة، كما دعونا الى انشاء قوات للبادية من القبائل العر بية واعدادها لتؤدي دوراً فعالاً في عرقلة واحباط اي هجوم متوقع من جانب العدو، وناشدنا المسؤولين في الحكومة السعدية القائمة ان يشجعوا المصر يين على الهجرة الى سيناء وتعميرها حتى لا تبقى هذه المناطق الحيوية فارغة مما يغري المستعمر الصهيوني باحتلالها.

نعم ، صرخنا من وراء اسوار المعتقلات في مذكرات مكتوبة إلى المسؤولين ان استمروا في الحرب ، وإذا كانت الظروف قد اضطرتكم لانهاء الحرب النظامية هذه النهاية المؤسفة وخرجت جيوشكم مثخنة بجراح الهزيمة ، وبها شوق الى الثأر والانتقام ، فاشعلوا حرب العصابات وهي كفيلة بتحقيق ما عجزت الجيوش النظامية عن تحقيقه ، وان امامكم كثيراً من الشواهد على نجاح هذه الوسيلة .

ان العصابات هي التي حررت يوغسلافيا ، وهي التي حررت فرنسا من الالمان ، وهي التي دمرت حكومة الصين الوطنية ، وهي التي حررت اندونيسيا المسلمة ، وهي التي لا تزال ترج الارض تحت اقدام الملايو وتوشك ان تفرغ من فرنسا في الهند الصينية.

ان الوسيلة الوحيدة لارهاق اسرائيل وتدمير قواها واستنزاف ماء حياتها لن تكون الا بحرب عصابات يقوم بها الشباب الفلسطيني الناقم المغيظ، الذي يتحرق شوقاً لملاقاة اعدائه، وتنغيص عيشهم كما نغصوا عليه حياته .

قلنا هذا الكلام في ذلك الحين، ولكن حكومة الارهاب كانت مشغولة بقتل «حسن البنا» والقضاء على فكرة الاسلام، وحين مادت الارض تحت ذلك العهد الاغبر واصلنا الكتابة والنصح، ولكن هذا الجهد كله ذهب ادراج الر ياح!

اني اصبحت مقتنعاً انه لا خير يرجى في هذه الحكومات وليس هناك مفر من اعلان

هذا الرأي، ودعوة الجماعات الوطنية الشعبية في مصر وسائر البلاد العربية لتتعاون جميعاً في هذا السبيل.

هذه هي الاسلحة الخطرة التي يمكن توجيهها الى اسرائيل، الحصار الاقتصادي المنظم وحرب العصابات المنظمة القوية.

واني اذ اصدر هذه الطبعة الثانية من هذا الكتاب، اشكر لحضرات القراء الكرام ذلك التشجيع الكبير الذي حبوني به عند صدور الطبعة الاولى والثانية، والذي حملته رسائلهم من مصر وسائر بلاد العروبة، مما جعلني ازداد يقيناً أن الكثرة الغالبة من شباب هذه الأمة لا يزال يولي قضية العروبة والاسلام في فلسطين ما تستحقه من اهتمام ورعاية.

وما دام هذا الصنف من المؤمنين يؤدي رسالته في بناء الأمة العربية الاسلامية الجديدة فان عودة الارض المقدسة الى احضان الاسلام باتت وشيكة الوقوع وان طال المدى، وكثرت تكاليف الجهاد واعباؤه، وكل آت قريب «ويسألونك متى هو، قل عسى ان يكون قريبا».

المؤلف

القاهرة ٢٧ فبراير ١٩٥١

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وصلاة وسلاماً على نبينا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه و بعد :

فإني قد ترددت كثيراً قبل أن أكتب هذه الصفحات عن جهاد الاخوان المسلمين في فلسطين ، مخافة أن يظن الناس أني أقصد من وراء ذلك دعاية للإخوان أو تفاخراً بأعمالهم وجهادهم ، والاخوان بحمد الله أزهد الناس في الدعاية وأشدهم عزوفاً عن الضجيج والاعلان ، ثم إن النتيجة العامة للحرب ليست مما يشجع أحداً على الفخر ببطولته مهما كان شجاعاً ، أو بجهاده مهما كان مخلصاً في هذا الجهاد.

والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهي ولأم المخطىء الهبل

وهذه الهزيمة التي منينا بها في فلسطين ليست هزيمة لطائفة دون أخرى ، ولكنها هزيمة تقع على الأمة العربية والإسلامية كلها ، و يشترك فيها الصغير والكبير ، وهذا الجيل والأجيال التي تليه ، والإخوان يحسون بهذه الهزيمة ويجترون مرارتها ولن يخفف من وقعها على أنفسهم أنهم أخلصوا النية في جهادهم ، و بذلوا أقصى ما يستطيعون من جهد ليحولوا دون وقوع الكارثة الرهيبة .

ولقد سردت الوقائع كما شهدتها من غير تز ييف ولا موار بة ، ذلك لأنني أعتقد أن الهزائم هي الوسيلة للنصر ، وأن الذي لا يهزم لا يعرف كيف ينتصر ، وليس عيباً أن تهزم الشعوب ، ولكن العيب كل العيب أن تستنيم هذه الشعوب للهزيمة ، وتستسيغ الراحة والدعة تحت ذكر ياتها ونتائجها ، وكما أن معرفة الداء هي أول مراحل العلاج فإن معرفة الاخطاء هي أول مراحل النجاح ، ومن هنا حاولت أن أعالج ظروف الحرب الفلسطينية وأسباب الفشل فيها بشيء غير قليل من الصراحة ، وهو ماسيراه القارىء بارزاً في كل جملة من هذه الصفحات ، فإن ضياع فلسطين وتشر يد أهلها وهزيمة العرب والمسلمين فيها ، كل هذا عندي أهم بكثير من إرضاء حاكم أوقائد أو زعيم ، ولأني أر يد أن أضع الحقائق المجردة ـ على ما فيها من مرارة وقسوة ـ بين يدي الجيل الجديد ، عساه يتخذ من هزائمنا جسراً يصل به إلى النصر الحاسم ، ومن أخطائنا وهفواتنا در وساً يستنير بها يوم يبدأ زحفه الميمون لتطهير الأرض المقدسة من أرجاس الإنسانية ونفايات الشعوب .

ولعل من حسن الحظ أن تصدر الطبعة الثانية من هذا الكتاب وقد بدأ الشعب يعرف حقيقة جهاد الإخوان وتضحياتهم في حرب فلسطين و يعرف أن الاضطهاد الذي وقع عليهم إنما قصد به إبعادهم عن ميادين الجهاد خدمة للصهيونية والاستعمار، كما بدأ الشعب يحس أنه كان مخدوعاً حين خضع لتأثير الدعاية التي دبرتها حكومة الطغيان، وساهمت فيها الصحافة المغرضة بنصيب وافر، والتي حاولت فيها أن تنال من هذا الجهاد البريء، لتظهره للناس في صورة مظلمة على أنه بداية لحركة ثور ية كبرى أر يد بها إضرام حرب أهلية في مصر، وإغراق شعبها الآمن في لجة من الدماء.

فإلى الجيل الجديد من الإخوان المسلمين حيث يتركز الأمل الباسم للإسلام وشعو به . . . وإلى المهاجر ين من أهل فلسطين حيث يهيمون على وجوههم في انتظارساعة الخلاص . . . أهدي هذه الصفحات، راجياً أن تنال القبول، والله من وراء القصد وهونعم النصير.

المؤلف

القاهرة ١٨ مايو ١٩٥٠

١ ـ فذلكة تاريخية

«ان بر يطانيا اذا حكمت أمة مائة عام
فإن سياستها تحكم بعدها مائة عام أخرى»

فلسطين بلاد عربية منذ أكثر من أربعة عشر قرناً، تلك حقيقة واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، ولكن أبت السياسة الانجليزية الاستعمارية إلا أن تجعل منها قضية شائكة متشعبة، وأن تجعل من شعبها البائس كبش الفداء أمام سلطان اليهود ونفوذهم. ولن تجد مشكلة لعب فيها الإستعمار دوراً رئيسياً كهذه المشكلة، ولعلنا لا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا إن بريطانيا هي التي خلقتها لتحقيق خطة مرسومة فالمعروف أن اليهود اضطروا في أواخر القرن الماضي من جراء المذابح الهمجية التي وقعت عليهم في عهود الطغيان إلى التفكير في إيجاد وطن قومي يحتمون بجنسيته و يكون ملاذاً لهم إن هبت عليهم العواصف وأصبحوا هدفاً لطغيان جديد. ولم تكن فلسطين هي هدفهم الأوحد لكنهم اختلفوا في تحديد الأرض التي يلجأون اليها. وكانت فلسطين أحد المواطن التي فكروا فيها لما لهم بها من صلات تاريخية ترجع إلى آلاف السنين، وكانوا يعلمون حقيقة الصعاب التي تعترضهم في الوصول لهذه الغاية، ففلسطين في ذلك الحين كانت جزءا من أملاك الدولة العثمانية، فوق ما تحتله من مكانة خاصة في نفوس العرب والمسلمين، فحاولوا جس النبض في عاصمة آل عثمان، وتوجه زعماؤهم إلى الباب العالي يلتمسون شراء بعض الأراضي واستثمارها، غير أن السلطان قابلهم بجفاء وغلظة، مما جعلهم ينصرفون عن التفكير في هذا الشأن حتى قامت الحرب العظمى في عام ١٩١٤ وتغيرت تبعا لنتائجها أوضاع كثيرة في العالم، وورثت بريطانيا وحليفاتها تركة «الرجل المريض» بمقتضى معاهدة «سايكس بيكو» في سنة ١٩١٦ ، وآلت فلسطين إلى بريطانيا، فوجدها اليهود فرصة سانحة وقاموا يعاودون السعي فلم يجدوا هذه المرة إعراضاً ولا جفاء، ولكن وجدوا تأييداً وعطفاً شاملاً، مما أغراهم بمضاعفة الجهود والسير بالفكرة نحو التنفيذ.

كان هناك شبه اتفاق بين دول الحلفاء والجماعات اليهودية على إقامة وطن قومي لليهود في

فلسطين ، واستطاعت الفكرة الصهيونية أن تكسب نصراً جديداً حين مثل بعض زعمائها أمام عصبة الأمم ، وترك للجنة منهم رسم الخطة التي تنتهجها دول الحلفاء لإبراز الفكرة إلى عالم الوجود ، ومن هنا جاء في صك انتداب فلسطين ضربة قاصمة لآمال العرب ومشجعاً لليهود في مواصلة الكفاح ، و يكفي لإبراز الشذوذ الذي كان يرافقه أن نثبت بعض ما جاء في نصوصه الرسمية ، فقد جاء في البند الثاني من ذلك الصك ما نصه :

«تكون الدولة المنتدبة (أي بريطانيا) مسؤولة عن جعل البلاد في أحوال سياسية وإدارية واقتصادية تكفل إنشاء الوطن القومي اليهودي» . وجاء في المادة الخامسة ما نصه:

« يعترف بهيئة يهودية صالحة كهيئة عمومية لتُشير وتُعاون في إدارة فلسطين في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك مما يؤثر في إنشاء الوطن القومي اليهودي ومصالح السكان اليهود في فلسطين »

ونلاحظ أن صك الانتداب قد حوى كل هذه الضمانات لليهود حين كان عددهم في فلسطين لا يكاد يتجاوز ٦٪ من مجموع عدد السكان. ومما يؤكد تدخل الانجليز ليخرج الصك على هذه الصورة الشاذة أن نصوصه لم تخرج في معناها عن الوعد المشهور الذي وجهه اللورد « بلفور » وزير خارجية بريطانيا في ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ إلى البارون « روتشيلد » الزعيم الصهيوني الانجليزي والذي جاء فيه:

« إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين وسنبذل جهدنا لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يفهم جلياً أنه لن يؤتى بعمل من شأنه ان يضير الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين، ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلاد الأخرى »

وواضح ما في هذا التصريح من تناقض عجيب. فإن مجرد التفكير في إقامة وطن قومي لليهود يضر أبلغ الضرر «بالطوائف غير اليهودية» وهم اهل البلاد والغالبية العظمى من السكان.

٢ ـ بريطانيا تغرر بالعرب

«اليوم انتهت الحرب الصليبية»

مارشال اللنبي

حاولت بريطانيا تخدير العرب، والتقليل من هذا الخطر، فأصدرت عدة تصريحات تشير إلى أن الوطن القومي لايعني قيام حكومة يهودية، وإنما لا يزيد عن كونه وطناً روحياً لليهود تماماً كالفاتيكان للمسيحيين أومكة للمسلمين و«لإظهار مواهب اليهود الثقافية وتمكينهم من ممارسة حريتهم الدينية، وأكدت في الكتاب الأبيض الذي أصدره المستر (باسفيلد) وزير المستعمرات البريطانية في عام ١٩٣٠ «أنها لا ترمي إلى إنشاء حكومة يهودية لأن كل محاولة لتوسيع الوطن القومي إلى نقطة أبعد من تلك التي وصل إليها يعتبر خرقاً للعهود المقطوعة للعرب».

بيد أن هذه العهود الزائفة لم تمنع بريطانيا من السير في خطتها المرسومة، وأخذت تضع الوسائل لإنجاز المهمة التي انتدبت من أجلها في فلسطين، فبدأت بتعيين إدارة إنجليزية أغلب موظفيها من اليهود أو من الإنجليز الذين اشتهروا بعدائهم للعرب، فعينت السير (هربرت صموئل) اليهودي مندوباً سامياً في فلسطين، وعينت (نورمن بنتويتش) اليهودي نائباً عاماً للحكومة وتركت له سن التشريعات والقوانين التي تسير عليها الإدارة، وملأت المناصب الكبرى بالموظفين اليهود، ثم فتحت باب الهجرة (المشروعة) على مصراعيه حتى زاد عدد اليهود أضعاف ما كان عليه قبل عهد الانتداب، فبينما كان عددهم لايزيد عن خمسين ألف نسمة في عام ١٩١٦ وصل الرقم لأكثر من نصف مليون في عام ١٩٤٠ ورغم هذا العدد الهائل الذي وصل بطريق الهجرة المشروعة، فقد أخذوا ينظمون خطة واسعة لتهريب مئات الألوف من اليهود المقيمين في مختلف بلدان أوربا، وكان المفروض أن ينتقل إلى فلسطين اليهود البؤساء الذين ضاقت بهم سبل العيش وذاقوا مرارة الحرمان في معتقلات النازية، ولكن قلة تافهة من المهاجرين هي التي كان ينطبق عليها وصف المشردين، أما الباقون فكانوا من الرجال الأشداء الذين حشدوا لغرض، خاص وقد أوضح الجنرال «مورجان» رئيس منظمة «الأونرا» حقيقة الخبر حين قال «إن هؤلاء المهاجرين

ليسوا مشردين ولا بؤساء وإنما يحشدون لمهمة سياسية لا تمت للانسانية والانقاذ بسبب من الأسباب».

وكانت بريطانيا تتعلل أمام العرب بعجزها عن وقف تيار التهريب، بينما كانت ناجحة أبلغ النجاح في منع أي عربي من دخول فلسطين متى دعت الضرورة إلى ذلك كما وقفت أمام الإخوان المسلمين مما سيأتي بيانه بعد حين، وكانت حركة التهريب وإيواء اللاجئين تحتاج الى أموال طائلة يعجز عن توفيرها يهود فلسطين بمفردهم، فلم تدخر الحكومة البريطانية جهداً في تسهيل السبل أمام وفودهم ليطوفوا أنحاء العالم و يستحثوا إخوانهم من اليهود على بذل التبرعات الضخمة، وكان هذا يحدث في بريطانيا نفسها وتتولى الحكومة مهمة نقل هذه الأموال وتسهيل وصولها وصرفها.

ولقد حاول العرب تقليد اليهود في هذه الحركة وطلبوا السماح لوفودهم بالطواف في بلدان العالم الإسلامي لجمع التبرعات والإعانات وصرفها في استنفاذ الأراضي وتنفيذ مشاريع الإصلاح، ولكن السياسة المتقلبة كانت تضع في وجوههم كافة العراقيل، وكمثال لذلك يكفي أن نذكر أن وفداً من المؤتمر الإسلامي العالمي الذي انعقد في القدس عام ١٩٣٣ سافر إلى الهند ليتولى جمع التبرعات من مسلميها، ولقى هناك إقبالاً عظيماً وترحيباً فائقاً حتى أن نظام حيدر أباد تبرع بمليون روبيه، وتبرع مولانا طاهر سيف الدين سلطان «البهرة» بحوالي نصف المليون، كما تبرع كثير من زعماء المسلمين وقادتهم بمبالغ كبيرة، غير أن الحكومة فطنت لخطورة هذه الحركة فأرسلت الى حاكم الهند العام بلاغاً سرياً تأمره بوقف هذا النشاط واتخاذ كل وسيلة لمنع تصدير هذه الأموال بحجة «أن ذلك مخالف لسياسة حكومة جلالة الملك في فلسطين كما جاء في نصوص هذا البلاغ.

ولم تقف معونة بريطانيا عند حد تسهيل السبل أمام اللاجئين وتمويلهم، بل عمدت إلى سن تشريعات وقوانين تكفل انتقال الأرض العربية إلى اليهود عن طريق الضرائب الباهظة التي أثقلت بها كاهل الفلاح العربي، وعن طريق تنازلها لليهود عن الأملاك الأميرية ومعظم الأراضي البور، حتى بلغ ما وقع في يد اليهود من جراء هذه الخطة حتى عام ١٩٣٨ أكثر من ٢٢ بالمئة من مجموع الأراضي بينما كانت أملاكهم قبل الانتداب لا تزيد عن ٣ بالمئة من مجموعها، ورأى العرب أن أرضهم توشك أن تنقرض من جراء هذه السياسة الغاشمة فالتمسوا من الحكومة تخفيف ضرائب الأملاك، ومراعاة الفارق بين مستوى الفلاح

اليهودي والفلاح العربي سواء في ناحية المال أو الانتاج، ووضع قيود تكبل انتقال الأرض بهذه الصورة، خاصة وأن اليهود كانوا يدفعون مبالغ خيالية إذ كان المتر الواحد يصل في بعض المناطق إلى مئات الجنيهات، ولكن الحكومة استمرت في طريقها المرسوم مما اضطر الشباب العربي إلى إعلان حركة إرهابية على السماسرة والبائعين وأدى ذلك إلى اغتيال عدد من الخونة.

وتعددت محاولات كثيرة لاغتيال عدد آخر لكنها فشلت وغادر أكثر السماسرة البلاد إلى البلاد العربية المجاورة حيث لا يزالون يعيشون فيها عيشة بذخ وإسراف.

ولم يكن في وسع الشباب العربي أن يفعل غير هذا، إذ لم تكن لديهم ـ كما أسلفت ـ وسائل التنظيم والتمويل، ولم يكن إخوانهم في أقطار العروبة جادين في معونتهم رغم المشروعات التي اقترحت، والمؤتمرات التي انعقدت وتمخضت كلها عن قرارات كثيرة «خطيرة» لم يكن لها أثر مطلقاً إلا في عوالم الحبر والورق. غير أن هذه الحركات الإرهابية ـ رغم أنها لم توقف حركة البيع والسمسرة ـ جاءت بالنتائج الوخيمة، إذ خلفت وراءها جراحاً عميقة، وخصومات شديدة بين القبائل التي ينتمي إليها القاتلون والمقتولون، وبذلك حقق الاستعمار هدفين من أهدافه فاستمر في نقل الأراضي العربية لليهود، وطبق نظريته التقليدية العتيدة (فرق... تسد) وهكذا انتقل كثير من الأرض العربية إلى اليهود وانتقل معها التفوق الكامل سواء في التجارة أو في الصناعة، ففي الصناعة منحت حكومة الإنتداب لليهود كثيراً من المشروعات الهامة كشركة الكهرباء الفلسطينية، وشركات استغلال معادن البحر الميت وغيرها، أما في التجارة فقد ابتدعت أسلوباً عجيباً في معاملة التجار العرب والتضييق عليهم، ففرضت ضرائب باهظة على الواردات حتى تفتح الأسواق أمام الصناعات اليهودية المحلية.

على أن هذه السياسة المستترة لم تلبث أن وضحت وضوحاً سافراً حين أخذت بريطانيا تدرب الشباب اليهودي على القتال وتفتح السبل أمامه لتشكيل الفرق واستيراد الأسلحة، ثم تمكنه من الاستيلاء على مخازن السلاح ومواقع الدفاع المنيعة، ولم تغادر أرض فلسطين إلا بعد أن اطمأنت إلى تسليح المستعمرات والقرى وتحصينها، ثم كشفت القناع نهائياً عن وجهها البغيض حين أسلمت اليهود أمهات المدن والموانىء العربية.

٣ـ العرب يدافعون عن حقوقهم

«إن أهداف الصهيونيين هي إبادة العرب جميعاً
وإقامة هيكل سليمان محل المسجد الأقصى»
دكتور ليدر
رئيس اللجنة الصهيونية

ما كادت الحرب العامة الأولى تضع أوزارها حتى شملت البلاد العربية موجة من اليقظة والنشاط، فقامت تطالب بحقوقها وتستنجز دول الحلفاء الوعود التي قطعتها على نفسها للشريف «حسين» عاهل الحجاز بمنح البلاد العربية استقلالها، وإحياء مجد الوحدة العربية البائدة، وكان العرب يظنون أن الطريق ممهدة أمامهم لنيل هذه الحقوق بعد ما أعلن الرئيس «ولسن» مبادئه الأربعة عشر التي أكد فيها حرية الشعوب وحقها المقرر في تقرير مصيرها، غير أن هذه الوعود والعهود لم تلبث أن تلاشت وعلم العرب أنهم كانوا مخدوعين حين وقفوا في صفوف الحلفاء متأثرين بالدعايات الباطلة والوعود الكاذبة، فسرت في البلاد العربية موجة من الحنق لم تلبث أن تحولت إلى عراك مسلح فنشبت الثورات الدامية في العراق والشام وغيرها.

هذا في البلاد العربية أما في فلسطين فقد كان الوضع أخطر من هذا بكثير، إذ كان على عرب فلسطين أن ينازلوا عدوين كبيرين في ميدان واحد، كان عليهم أن ينازلوا العدو البريطاني ممثلاً في حكومة الانتداب، وأن يحاربوا أهداف الصهيونية ربيبته وصنيعته، وبصدور صك الانتداب ومن ورائه وعد بلفور، شعر العرب بخطورة المؤامرة التي تدور حولهم، فقاموا يدافعون عن حقوقهم بالقوة بعد أن يئسوا من نزاهة الضمير البريطاني ومن تذكيره بالعهود التي قطعها على نفسه، وأصبحت فلسطين منذ ذلك الحين مسرحاً لثورات دامية ومعارك عنيفة بين الثوار وقوات الاحتلال، ولا تكاد الثورة تبلغ شدتها حتى يصدر الانجليز وعداً جديداً ويأمروا بتأليف لجنة من رجالهم لدرس الحالة واتخاذ الوسائل التي تكفل حقوق العرب، فتوقف الثورات وتباشر اللجان أعمالها وتقدم تقاريرها وتكون النهاية وعداً جديداً

يضم إلى الوعود التي سبقته . بينما تستمر الحكومة في خطتها المرسومة من تقوية اليهود وتثبيت جذورهم ، حتى كان عام ١٩٣٦ حين أعلن العرب فيه الإضراب الكبير الذي استمر ستة شهور طوال ، وتعطلت فيها مرافق البلاد ومدارسها وجابت المظاهرات السلمية أنحاء البلاد مطالبة بوقف الهجرة وإقامة حكومة وطنية ، وحاول الإنجليز قمع هذه الحركة بالقوة فبدأ احتكاك بين الحكومة والشعب لم يلبث أن تحول إلى ثورة لاهبة واستعصم المجاهدون بالجبال الوعرة ومضوا يغيرون على قوافل الإنجليز ومعسكراتهم ، وقلقت بريطانيا لهذه الحالة قلقاً شديداً فأخذت تبعث بفرق كبيرة من الجيش لتطارد المجاهدين في قمم الجبال وكانت هذه القوات مجهزة بأسلحة حديثة معززة بالطائرات والدبابات ، و بلغ من قلق بريطانيا لهذه الحالة وتلهفها على إنهائها أن وكلت لقائدين من أكبر قوادها إدارة العمليات الحربية ضد الثوار ، وهما على التوالي الجنرال « سير جون ديل » والجنرال « سير ارشيبالد و يفل » والأخير هو الذي سطع نجمه في مواجهة الهجمات النازية والفاشية على مصر خلال الحرب العالمية الثانية . وارتكب الانجليز في هذه الفترة من الجرائم الوحشية ما يندى له الجبين فدمروا المنازل وأحرقوا القرى وتركوا المدن نهباً مباحاً لجنودهم ، وأخذوا يسوقون الناس جماعات لأعواد المشانق ، و يفرضون أقصى العقوبات على من يشتركون في الثورة بطريق مباشر أو غير مباشر ، حتى انهم كانوا يحكمون بالإعدام على من توجد في حوزته طلقة ذخيرة فارغة ! .

كل هذه الأساليب البربرية استعملتها بريطانيا في قهر الشعب الأعزل وصرفه عن حقوقه المشروعة ، غير أنها رأت أن هذه الأعمال لم تزد النار إلا اشتعالاً ، ولم تزد الشعب إلا تمسكاً بحقوقه والدفاع عنها ، فعمدت إلى أسلوب جديد وطالبت ملوك العرب وأمراءهم بالتدخل لإنهاء الحالة المضطربة في البلاد ، فأصدر الملوك والأمراء نداءات للمجاهدين يطلبون فيها إنهاء الثورة و يعدون بالتدخل الحاسم لحفظ حقوق العرب المشروعة في فلسطين ، وانخدع العرب هذه المرة أيضاً ، فأعلنوا نهاية الثورة وتألفت لجنة مشتركة لبثت في فلسطين فترة طويلة ثم قدمت تقريرها في عام ١٩٣٧ ، ولم تكن هذه اللجنة بأحسن حظاً من زميلاتها من اللجان ، لأن حكومة الانتداب كانت تتصرف حسب خطة مرسومة وتعمل لتحقيق الغرض الذي وجدت من أجله والذي حدده صك الانتداب وهو قيام دولة يهودية في فلسطين ، غير أن هذه اللجنة أشارت بتقسيم فلسطين إلى دولتين مستقلتين وكانت هذه المرة هي المرة الأولى التي أشير فيها بتقسيم فلسطين ، ولقد صمم عرب فلسطين على استنكار هذا المشروع وإحباط تنفيذه وشاركهم في ذلك حكومات العالم العربي وشعوبه ، غير أن الحكومة البريطانية أبدت ارتياحها لهذا المشروع وأظهر اليهود موافقتهم عليه كخطوة أولى

لتحقيق الهدف الكبير، ولم تلبث الاضطرابات أن عادت للظهور احتجاجاً على مشروع التقسيم، فاضطرت الحكومة البريطانية إلى التضييق على العرب والقيام بحركة اعتقالات واسعة لقادة الشعب وزعمائه، وحاصرت الحرم الشريف الذي يقيم فيه المفتي وعزلته من منصبه كرئيس للمجلس الإسلامي الأعلى، وأمام هذا الإرهاب العنيف لم يجد العرب بدأ من مقاومة العدوان بمثله فأشعلت الثورة واشتبك الفريقان مرة أخرى في عراك دام، استمر إلى منتصف عام ١٩٣٩ ثم توقف حين اشتعلت الحرب العالمية الثانية ورأوا تأجيل النظر في القضية حتى نهاية الحرب.

وبعد نهاية الحرب تجددت المشكلة من جديد وقام العرب يطالبون بريطانيابإنهاء الانتداب البريطاني وإقامة حكم وطني يحقق للبلاد سيادتها واستقلالها، وقام اليهود أيضاً يستنجزون بريطانيا وعودها و يضغطون عليها بمختلف الوسائل ليرغموها على تسليم البضاعة، وظهر هذا الضغط بصورة إرهاب عنيف شنته العصابات اليهودية على قوات الاحتلال، فاضطرت الحكومة الانجليزية لإيفاد لجنة انجليزية أمريكية بالاتفاق مع حكومة الولايات المتحدة لبحث المشكلة ووضع تقرير يتضمن وسيلة علاجها ، ولقد انتهت هذه اللجنة من سياحتها في عام ١٩٤٧ وقدمت تقريرها الذي أرتأت فيه تقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية ، وظل هذا المشروع موضوع أخذ ورد حتى عرض على الأمم المتحدة التي أقرته بأغلبية ٢٥ صوتاً ضد ١٣ مع امتناع ١٧ عضواً عن الاقتراع ولقد حاول مندوبو العرب منع تنفيذ هذا المشروع بكل الوسائل وحملوا هيئة الأمم المتحدة مسؤولية المتاعب التي ستنشأ عن تنفيذ هذا القرار ، وأعلنوا متضامنين أن حكوماتهم ستمنع تنفيذه بكل وسيلة . وما كاد قرار التقسيم يذاع على العالم في ٢٩ نوفمبر من عام ١٩٤٧ حتى انفجرت القنبلة التي أحكمت بريطانيا شحنها طيلة ثلاثين عاماً ، وتحولت الأرض المقدسة إلى ساحة حرب عنيفة ، ولم يلبث هذا الإنفجار أن أحدث تأثيره في العالم العربي فقامت شعوبه وهيئاته تطالب حكوماتها بالتدخل في الصراع القائم حتى تحفظ حقوق العرب في فلسطين .

٤ـ فلسطين بين قوتين

﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾

«قرآن كريم»

نحن الآن في شهر نوفمبر من عام ١٩٤٧ والعالم كله يرقب باهتمام النتائج التي توشك أن تتمخض عنها لجان فلسطين في مجلس الأمن والعالم العربي يمسك أنفاسه جزعاً على مستقبل شقيقته الصغرى وكان الجميع يعلمون أن قرار التقسيم الذي يوشك أن يصدر سوف يحيل الأرض المقدسة مهد الرسالات والسلام إلى بركة من الدماء تتناثر حولها الجثث والأشلاء. فاضت الصحف العربية بأنباء الاستعدادات العسكرية التي تجري في فلسطين لخوض حرب عنيفة يتقرر فيها مصير الجنسين، وكان اليهود يستعدون من زمن بعيد تحت ستار من الكتمان ساعدهم عليه امتلاكهم لمناطق برمتها لم يكن عربي يستطيع دخولها وكان زعماؤهم يقتصدون كثيراً من التصريحات الرنانة، تاركين هذه المهمة لزعماء العرب الأماثل الذين كانوا يرسلون التصريحات العنيفة والتهديدات المرة كلٌ من عاصمة حكمه، بصورة كان من شأنها تحزب الرأي العام العالمي ووقوفه في صف اليهود الضعفاء! وكانت خدمة عظمى قدمها زعماؤنا الأمجاد من حيث لا يشعرون ولكن رغم هذا التكتم كان من المعروف أن اليهود يملكون عدة منظمات عسكرية في فلسطين وبعض بلدان أوربا الشرقية، وكانت هذه المنظمات تزيد في مجموعها على الثمانين ألف جندي، وقد شكلت على أساس حرب العصابات لتقاوم الهجمات العربية، وكان أشهر هذه المنظمات جيش الهاجانا «حرس المستعمرات» الذي بدأ تشكيله إبان الحكم العثماني على هيئة نظام الخفراء وظل يكبر وينمو تحت رعاية الإنجليز حتى استطاع أن يكون جيشاً منظماً كامل التدريب والإعداد ولقد ساعده على استكمال تدريبه اشتراك بعض وحداته في حروب الصحراء خلال الحرب العالمية الثانية تحت إسم «الفيلق اليهودي» فاستطاع أن يتدرب تدريباً

عسكرياً مشروعاً و يشاهد عن كثب تشكيلات الجيوش الكبيرة وتحركاتها وساعدته هذه الظروف كذلك على تهريب كمية كبيرة من العتاد وتخزينها في مقاطعات مجهولة من أرض فلسطين ولقد حاولت بريطانيا أن تداري موقفها فقبلت تطوع عدد من الشباب العربي في جيوشها، ولكنها بدلاً من أن تشركهم عملياً في الحرب كما صنعت مع اليهود إذا بها تشكل منهم مجموعات من «الحمالين» الذين يعملون في الخدمات العامة وراء الخطوط! وكانت كل القوات العسكرية اليهودية مندمجة في هذا الجيش حتى قامت الاضطرابات العسكرية في فلسطين عام ١٩٣٦ وحدث خلاف بين زعماء هذه الوحدات فنشأت عن ذلك جماعات متطرفة كانت تميل إلى العنف والارهاب وهي التي عرفت فيما بعد باسم «أرجون زفائي ليومي» وجمعية «اشتيرن» الارهابية وهذه الأخيرة قامت بالدور الرئيسى في أعمال الارهاب التي شنها اليهود على البريطانيين في أواخر حكمهم، وهي الاعمال التي اعترف الدكتور «حاييم وايزمان» «رئيس الجمهورية الاسرائيلية» في كتاب أصدره أخيراً بعنوان «الأخطاء والتجارب» والذي قال فيه بصراحة إن تلكؤ بريطانيا في تنفيذ وعودها لليهود هي التي أثارت الجماعات اليهودية ودفعتها للقيام بأعمال الارهاب.

ومن الفرق التي شكلت في مطلع هذه الحرب فرقة «البالماخ» الفدائية وقد أنشئت على النمط الروسي وسلحت تسليحاً حديثاً يتناسب والدور الرئيسي الذي اعدت له وجلبت لها من الخارج سيارات مصفحة من النوع الذي يصلح للسير عبر الأرض الفلسطينية، وكانت جميع القرى والمستعمرات اليهودية مقامة على أساس عسكري يناسب الدفاع والهجوم، فكانت كلها محاطة بالأسلاك الشائكة وحقول الألغام، مليئة بالأسلحة والمعدات.

كانت هذه الاستعدادات تجري تحت سمع الحكومة البريطانية وبصرها، وهي التي تولت تحصين المستعمرات وتسليحها، وساعدت اليهود على إقامة مصانع الذخائر والأسلحة الصغيرة كتلك التي أقيمت في «ناثانيا» و «الياجور» وإلى مثل هذه المصانع كانت تهرب أجزاء السيارات والدبابات من شتى بقاع العالم فتركب وتخبأ في الأماكن المعدة لهذا الغرض حتى إذا جاء الوقت المعلوم خرجت من مخابئها لتهاجم الجموع الشعبية شبه العزلاء.

هكذا كان الاستعداد اليهودي يجري لحرب الإبادة التي عولوا على خوضها. أما الجانب الآخر من طرفي الصراع فكان على النقيض تماماً رغم الثورات المتلاحقة التي خاضها والتي أظهر فيها من ضروب البطولة ما قل نظيره في التاريخ، فالشعب الفلسطيني ظل في

حالة حرب مع الصهيونية وحليفتها بريطانيا منذ صدور وعد بلفور، وفي الوقت الذي كان يهود العالم كله يؤيدون اليهود في فلسطين تأييداً إيجابياً ويمدونهم بالأسلحة والذخائر والكفاءات العسكرية، كان الشعب العربي الفلسطيني يقف في الميدان وحده ينازل دسائس اليهود والاستعمار، ولا يجد من أبناء العمومة في الأقطار العربية المجاورة أدنى عون أو مساعدة، اللهم إلا تلك المواقف المسرحية لمندوبي العرب في المحافل الدولية!

ولقد ظل هذا النوع من الجهاد هو المسيطر على عقول زعماء العرب ورجالهم حتى بدأ الصراع فعلاً، ولا يزال هو المسيطر على عقولهم حتى اليوم وبعد أن ظهرت النتيجة الحتمية لذلك الصراع.

لذلك كله كان من الطبيعي أن يبدأ القتال وليس هناك تكافؤ بين القوى المتحاربة، ولقد أدرك الشعب الفلسطيني ذلك فقام ينظم نفسه بعد أن سبق السيف العذل، فتشكلت في مطلع هذه الحرب عدة منظمات عسكرية أخذت تمارس التدريب على قدر ما تسمح به حكومة الانتداب، فتشكلت منظمة «النجادة» وتشكلت بعدها «الفتوة» التي كان يشرف عليها الحزب العربي الفلسطيني، وكانت جوالة «الاخوان المسلمين» مشكلة قبل ذلك بوقت قصير، ولقد انخرط في صفوف هذه المنظمات ألوف من الشباب، غير أن القيود التي فرضها الانجليز على التسلح والتدريب وقفت حائلاً دون اعدادها وتجهيزها، فظلت مفككة لا يجمعها نظام ولا تربطها قيادة حتى بدأت المعركة وهذه الفرق لا تزال تدرب أعضاءها على السير في طابور منتظم! ولم يكن في استطاعة الشعب الفلسطيني أن يقوم بأي عمل جدي نحو إعداد نفسه فإن القيود التي فرضتها حكومة الانتداب كانت ولا تزال تمنع العرب من إحراز الأسلحة فضلاً عن الظهور بها والتدريب على استعمالها، وإذن فإنه لمن الظلم البين أن يلام الشعب الفلسطيني على هذا التقصير المعيب، ولكن اللوم كله يتركز في زعماء الجامعة العربية الذين شغلوا أنفسهم بمعالجة القضية عن طريق المحادثات والمفاوضات والاعتماد على الوعود البريطانية الكاذبة، دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة العمل الجدي فيقيموا لهم معسكرات في الدول العربية التي تتمتع بشيء من الاستقلال ويتولوا تدريبهم على أيدي الضباط الأكفاء ليكونوا على استعداد للدفاع عن كيانهم إذا جد الجد وطويت أوراق المحادثات وأصبح الحكم للقوة المسلحة.

ومن الانصاف للواقع أن نقرر أن زعماء الدول العربية قد فكروا أخيراً في سلوك هذا الطريق فقرروا في اجتماع «عالية» في عام ١٩٤٧ افتتاح معسكر على حدود سوريا وتكليف

الهيئة العربية باختيار عدد من خيرة الشباب من مختلف الجهات ليتدربوا على أعمال العصابات والاضطلاع بالقيادات الصغيرة، حتى إذا أتموا التدريب رجعوا إلى بلادهم ليدربوا غيرهم، و يشرفوا على تنظيم حركة المقاومة في مناطقهم، هذه الخطة كانت هي الوسيلة الوحيدة لإنقاذ فلسطين، وقد فهمها زعماء العرب بعد فوات الوقت، ورغم ذلك فإن الحكومة البريطانية لم تسمح بتنفيذها، ووجهت مذكرة إلى الحكومات العربية تستنكر فيها هذا التصرف وتعتبره عملاً عدائياً موجهاً إلى مصالحها في فلسطين، فانكمشت دول الجامعة أمام هذه المذكرة وماتت الخطة في مهدها وبدأ المعسكر يسرح الشباب الفلسطيني ، وظلت حركة المقاومة الوطنية تعتمد على جماعات من المحاربين لا تجمعهم خطة ولا قيادة.

وارادت الجامعة ان تنظم الحركة في داخل البلاد فعينت الفريق «طه الهاشمي باشا» واللواء «اسماعيل صفوت باشا» يعمل معهم عدد كبير من الضباط العراقيين والسوريين، ومنحتهم سلطات واسعة وأموالاً كبيرة، ووكلت لهم مهمة التنظيم والتدريب، ولكنهم لم يقوموا بعمل جدي لإنقاذ الموقف وبدل ان يعكفوا على تنظيم الجيش الداخلي في البلاد والتحكم في منابع القوة الدافقة والحماسة العنيفة في الشعب الفلسطيني أخذوا يجمعون عددا من المتطوعين من البلاد العربية، وينفقون عليهم الاموال الباهظة، ويجرون عليهم الرواتب الضخمة، ونسي هؤلاء القادة «العباقرة» ان فلسطين لم تكن في ذلك الوقت في حاجة الى رجل واحد من الخارج، بقدر ما كانت محتاجة الى عقول تنظم القوى الموزعة وتوجهها وجهة سليمة، وحتى هذه السرايا التي اتعب القواد انفسهم في اعدادها والانفاق عليها لم تأت بالنتائج المطلوبة إذ كانت ضعيفة الى ابعد الحدود في التدريب فوق ان افرادها كانت تنقصهم الروح المعنوية العالية، إذ كانت غالبيتهم من العمال المتعطلين الذين ضاقت بهم سبل العيش في بلادهم ووجدوا الجهاد فرصة سانحة للكسب، فما كادوا يدخلون البلاد حتى تعددت حوادث السلب والنهب والتهجم على الأعراض والمتاجر.

اشتد إحساس العرب الفلسطينيين بخطورة الحالة وضعف أملهم كثيراً في الجامعة العربية ولجنتها العسكرية، ومضوا يواصلون اعداد أنفسهم بأنفسهم فانهالت وفودهم على البلاد العربية تستجلب الأسلحة والذخائر وتعتمد على الهيئات الشعبية في جمعها وشرائها، وتشكلت قيادات محلية في فلسطين أخذت تباشر نشاطها في مناطق مختلفة، وكان أشهر هؤلاء القادة على الإطلاق الشهيد «عبد القادر الحسيني» قائد منطقة القدس، والشهيد «حسن سلامة» قائد المنطقة الوسطى.

ولقد كان «عبد القادر» قائدا عصابيا ماهرا، وحوادث النسف والتدمير التي قام بها في أحياء القدس اليهودية تشهد له ـ رحمه الله ـ بالبراعة والمقدرة في تنظيم الخطط وتنفيذها، ولقد بلغ من قوة هذه الحركات ودقتها ان اعتقد الانجليز واليهود انها لا يمكن أن تكون عربية اطلاقا، وأشاعوا ان القائمين بها ليسوا الا متطوعين من الالمان واليوغسلاف ممن يشتركون في الحركات وسبق لهم الاشتراك في حروب كبرى، وكنا جميعا نعلم انها حركات عربية صرفة يقوم بها العرب المجاهدون ممن يشرف على تدريبهم وتنظيمهم «عبد القادر الحسيني» وصحبه الأبرار.

ولا زلت اذكر له تلك المعركة التي قادها عند «كفار عصيون» على طريق الخليل ـ بيت لحم، وكنت يومها في مدينة الخليل وشاهدت كيف استطاع عبد القادر الحسيني ان يحصر قوة يهودية مصفحة و يظل يصليها نيرانا حامية بعد ان ضرب حولها حصارا لا فكاك منه حتى اضطرها الى الاستسلام، وكان عبد القادر يتفجر حيوية وحماسة و يعتقد ان هذه الانتصارات المدوية التي احرزها وهو يكاد يكون اعزل من السلاح سوف تشفع له عند اعضاء اللجنة العسكرية فتعطيه شيئا من المال الكثير الذي اخذته من الجامعة وشيئا من السلاح الذي جمع لها من كل بلاد العرب. ولكن اللجنة العسكرية لم تشأ ان تسير على قول القائل:

يجود علينا الخيرون بمالهم   ونحن بمال الخيرين نجود

فرفضت الدفع، ثم قبلت الدفع وماطلت في التنفيذ، ثم تمطت ونفذت وكان المبلغ ٣٧٠ جنيها، وتركوا لمقدرته وكفاءته مهمة توزيعها على ثلاثة الاف جندي كانوا معه، اما السلاح فقد نفضوا ايديهم منه وقد يكونون تركوا له شراء السلاح من هذا المبلغ ايضا، وتردد «عبد القادر» على اللجنة في تنقلاتها بين مختلف العواصم حتى يئس منها وقدم تقريرا الى الجامعة في ٦ ابريل سنة ١٩٤٨ يحملها فيه ضياع فلسطين وكأنه قد شعر انه ادى واجبه وأنذر، إذا استشهد بطلا في معركة القسطل في ٨ ابريل أي بعد يومين من ارسال تقريره، ومضى «عبد القادر» البطل الى ربه يشكو له عدوان اليهود وعدوان اللجنة العسكرية للجامعة العربية!

أما حسن سلامة فلم يكن احسن حظا من صاحبه، إذ عمل اقصى ما يستطيع للدفاع عن «يافا» والمنطقة الوسطى، وادار عدة معارك رائعة في منطقة «تل ابيب» قبل ان يلاقي

حتفه في معركة «راس العين»، وبموت هذين القائدين تدهورت المقاومة العربية وفقدت اهم عناصرها وهي «القيادة» وظلت اللجنة العسكرية وجامعتها العربية تغط في نوم عميق، لا تقطعه الا احلام النصر الحاسم والفوز المبين كانت هذه الفوضى ملحوظة في فلسطين خلال تلك الفترة، وقد شاهدت اثارها بعيني وقت ان فرغ اليهود من إعداد أنفسهم واخذوا يسيرون بفكرتهم نحو التنفيذ، وكانت قواتهم المنظمة تتحكم فعلا في جبهات القتال وتقضي على حركات المقاومة في المدن والقرى واحدة تلو الاخرى، ثم جاءت الجيوش العربية فقضت قضاء تاما على الشعب الفلسطيني، ووصفته بالتجسس والخيانة والعمل لصالح الأعداء، وكان ذلك بفعل دعايات الانجليز واليهود ... وهكذا أخرج الشعب المكافح من مسرح الحرب وقضي عليه أن يظل بعيدا عن الميدان ويحرم حتى من حق الدفاع عن وجوده وكيانه !!

٥ - الاخوان وقضية فلسطين

«ان كل ارض يقال فيها لا اله الا الله محمد رسول الله هي جزء من وطننا، له حرمته وقداسته، والاخلاص له والجهاد في سبيل خيره»

«حسن البنا»

لم يكن اهتمام الاخوان بقضية فلسطين وليد الحوادث الاخيرة التي اعقبت قرار التقسيم. ولكنه سبق ذلك التاريخ بزمن طويل، فالاخوان «كهيئة اسلامية عالمية» كانت تضع في برنامجها مهمة الدفاع عن القضايا الاسلامية في مختلف انحاء المعمورة، وكانت دُورهم دائماً موئلاً للمجاهدين الأحرار من مختلف بلاد العروبة ومواطن الاسلام، وكان لفلسطين دائما المقام الأوفى من عنايتهم واهتمامهم، فهي أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين وهي تحتل مكانا وسطا في البلاد العربية، وضياعها يعزل العالم الاسلامي بعضه عن بعض، ولو نجح اليهود في احتلالها لاصبحت دائما مباءة خطرة لعناصر الشر، وبركانا زاخرا بالنار يزعزع امن البلاد العربية وسلامها.

وحين وضحت نيات السياسة البريطانية في فلسطين اخذ الاخوان يعقدون المؤتمرات تباعا و يبينون للشعوب والحكومات حقيقة هذا الخطر الذي يهدد كيانهم ومستقبلهم، حتى نجحوا في اشراك العالم الاسلامي كله في هذه القضية، وباتت قضية المسلمين والعرب لا قضية اهل فلسطين وحدهم، وحين قامت القلاقل في فلسطين اخذوا يمدون المجاهدين بما يقع في ايديهم من مال وسلاح، حتى كانت ثورة ١٩٣٦ حين نجح عدد من شبابهم في التسلل اليها والاشتراك مع الثوار في جهادهم، وخاصة في مناطق الشمال حيث عملوا مع المجاهد العربي الكبير «الشيخ عز الدين القسام». وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية اخذ الاخوان يعملون للقضية عملا ايجابيا، فارسلوا وفودا من دعاتهم وشبابهم يؤلبون العرب

و يستحثونهم للكفاح، و يتولى نفر منهم تدر يب الشباب الفلسطيني تدر يبا سر يا، ولقد نجحوا في ذلك الى حد بعيد حتى اصبحت شعبهم ودورهم هي مراكز القيادة وساحات التدر يب . ولا يزال اهل فلسطين يحمدون للداعية الاسلامي «سعيد رمضان» مواقفه الكريمة وأثره البالغ في توجيه الشباب العربي وجهة صالحة، و يذكرون بالفخار والاكبار جهود الاساتذه «عبد الرحمن الساعاتي، عبد المعز عبد الستار، وعبد العز يز احمد» وغيرهم من كرام الدعاة والمدربين وما كان لهم من حسن التوجيه وطيب الأثر.

ولقد ادرك اليهود ما ينطوي عليه هذا التدخل من خطر شديد على اهدافهم وخططهم، فقاموا ينشرون المقالات الطوال في صحف اورو با وامر يكا، و يفعمونها بالتهم الخطيرة عن الاخوان المسلمين وحقيقة خطرهم على الولايات المتحدة و بر يطانيا، وكانوا يحاولون بذلك استعداء الحكومة الامر يكية لتقوم بعمل حاسم وسر يع وتستأصل هذا الخطر الاسلامي الذي يهدد مصالحها بالزوال، وليس ادل على ذلك من مقال كتبته فتاة صهيونية تدعى «روث كار يف» ونشرته لها جر يدة «الصنداي ميرور» في مطلع عام ١٩٤٨، ونقلته جر يدة «المصري» لقرائها في حينه، ونحن ننقل بدورنا اهم ما جاء به من التهم، ليرى القارئ مدى النجاح الذي احرزته الدعاية اليهودية حين اقنعت حكومات اورو با بخطورة حركة الاخوان، ودفعتها لمحاربتها بشدة.

قالت الكاتبة في مقالها :

«ان الاخوان المسلمين يحاولون اقناع العرب بانهم اسمى الشعوب على وجه البسيطة، وان الاسلام هو خير الأديان جميعا، وافضل قانون تحيا عليه الأرض كلها».

ثم استطردت تصف خطورة حركة الاخوان الى ان قالت :

«والآن وقد اصبح الاخوان المسلمون ينادون بالاستعداد للمعركة الفاصلة التي توجه ضد التدخل المادي للولايات المتحدة في شئون الشرق الاوسط، واصبحوا يطلبون من كل مسلم الا يتعاون مع هيئة الامم المتحدة، فقد حان الوقت للشعب الامر يكي ان يعرف اي حركة هذه، واي رجال يتسترون وراء هذا الاسم الرومانتيكي الجذاب، اسم «الاخوان المسلمين»».

وقالت ـ وهذا هو بيت القصيد :

«ان اليهود في فلسطين الآن هم اعنف خصوم الاخوان المسلمين، ولذلك كان اليهود الهدف الاساسي لعدوان الاخوان، وقد قام اتباعهم بهدم املاك اليهود ونهب اموالهم في كثير

من مدن الشرق الأوسط، و يعدون الآن العدة للاعتداء الدموي على اليهود في عدن والبحرين، وقد هاجموا دور المفوضيات والقنصليات الأمريكية، وطالبوا علنا بانسحاب الدول العربية من هيئة الأمم المتحدة».

و بعد هجوم عنيف على سماحة المفتي الأكبر، وعلى فضيلة الامام الشهيد ختمت مقالها قائلة :

«وإذا كان المدافعون عن فلسطين ـاي اليهودـ يطالبون الآن مجلس الأمن بارسال قوة دولية لتنفيذ مشروع التقسيم الذي اقرته هيئة الأمم المتحدة، فإنهم لا يطالبون بذلك لأن الدولة اليهوديةفي حاجة الى الدفاع عن نفسها، ولكنهم يريدون ارسال هذه القوة الدولية الى فلسطين، لتواجه رجال الاخوان المسلين وجها لوجه، و بذلك يدرك العالم كله الخطر الحقيقي الذي تمثله هذه الحركة».

«وإذا لم يدرك العالم هذه الحقيقة في وقت قريب، فإن اوروبا ستشهد ما شهدته في العقد الماضي من القرن الحالي، إذ واجهتها حركة فاشية نازية، فقد تواجهها في العقد الحالي امبراطورية اسلامية فاشية، تمتد من شمالي أفريقيا إلى الباكستان، ومن تركيا إلى المحيط الهندي».

ولم يكن هذا المقال هو الأول من نوعه، إذ دأبت الصحف على نشر مقالات مطولة من هذا النوع، ولم يضيع الاخوان جهدهم في مناقشة هذه الأقوال، إذ كانوا يعدون العدة لمناقشتها عمليا حين تلتحم الاسلحة و يبدأ دورها الرهيب، فمضوا في خطتهم واستمرت وفودهم ودعاتهم تؤدي دورها الجليل حتى تشكلت المنظمات العسكرية.

وحين تشكلت المنظمات العسكرية العربية وأخذت تمارس تدريبها، قام خلاف بين قواد «النجادة» و «الفتوة» وفطن الاخوان للخطر الكبير الذي ينطوي عليه هذا الخلاف، فقاموا بمحاولات كثيرة للتوفيق بين وجهات النظر المتعارضة، انتهت باختيار المجاهد الكبير «الصاغ محمود لبيب» وكيل الاخوان المسلمين حينئذ للشئون العسكرية منظما لهذه التشكيلات فقبل هذا العمل الجليل وسافر الى فلسطين، وأخذ يباشر تنفيذ برنامجه الحافل الذي اعده لتدريبها وتنظيمها، ولكن لم تمض إلا فترة وجيزة حتى فطنت حكومة الانتداب الى هذه المحاولة، وفهمت ان الدعوة الاسلامية تريد ان تزاحم لتحتل مكان القيادة في النضال المنتظر، ومعنى ذلك بوضوح ان تنقلب خطط الانجليز رأسا على عقب وتفشل سياستهم في فلسطين، فقاموا بمطاردة دعاة الاخوان وشبابهم وأمر «الصاغ محمود لبيب»

بمغادرة البلاد. ولقد قدر لكاتب هذه الصفحات ان يشهد بنفسه ناحية من نواحي الارهاق التي عاناها الاخوان في فلسطين خلال تلك الفترة القاسية.

هذا في فلسطين، أما في مصر فقد كان دور الاخوان رئيسياً في تسيير الأمور على النحو الذي سارت عليه. ويجدر بنا قبل أن نتكلم عن دورهم العسكري خلال الحرب أن نبين أثرهم البالغ في تهيئة الأمة لقبول فكرة الحرب، إذ المعروف أن الجيش المصري لم يشترك في الحرب الفلسطينية إلا استجابة لرغبة الشعب وتمشياً مع إرادته، تلك الارادة التي ظهرت بوضوح في المظاهرات الكبرى التي قادها الاخوان وعمت أنحاء البلاد، مطالبة الحكومة بالتدخل الحاسم للقضاء على الدولة الصهيونية الوليدة، قبل أن تستقر أقدامها و يصلب عودها، وكان إجماع الشعب على هذا الرأي إعلاناً لروح جديدة أخذت تسري في أوصاله بعد أن مزقه الاستعمار ونجح في قتل روح الجهاد في نفوس أبنائه، وعلمه زعماؤه نوعاً سقيماً من الجهاد لا يتجاوز إلقاء خطب (عصماء)، أو السير في مظاهرة عاتية تحطم واجهات المتاجر وتقلب عربات الترام، وتصل أقصاها من العنف والقوة حين تقذف وجوه رجال البوليس بالحجارة!.

وكانت هذه الروح وليدة كفاح مرير دام عشرين عاماً، وثمرة جهاد متواصل لعوامل الضعف والانحلال لتحويل الشعب عن هذا الطريق الخاطئ وتهيئته تهيئة صحيحة لتحمل أعباء الجهاد المنتج، والاقبال على تضحياته وتكاليفه، ولقد وضحت هذه النتيجة بأجلى مظاهرها، حين أصر الشعب كله على ضرورة العمل الايجابي السريع لانقاذ فلسطين، والوقوف أمام أطماع الصهيونية ولو أدى ذلك إلى إدخال الجيش والمساهمة في القضاء على الدولة الآثمة، ولقد ساعد الاخوان في تحقيق هدفهم هذا كثرة شعبهم التي امتدت في مدن القطر وقراه، واجتمع فيها خلاصة شباب مصر المؤمن وكثرة خطبائهم ودعاتهم الذين كانوا يجوبون المدن والقرى داعين الناس إلى الجهاد الديني لانقاذ الارض المباركة من خصوم الاسلام الألداء، فقامت في البلاد ثورة إسلامية عنيفة، كان من ثمارها تلك الحشود الهائلة من شباب مصر، التي كانت تتوجه لمراكز الدعوة، وكلها شوق إلى القتال. وتحرق للجهاد والاستشهاد. ولن يستطيع مكابر أن ينكر على الاخوان جهادهم في هذا السبيل، أو يقلل من أهمية هذا الدور التمهيدي للحرب الذي قاموا به فنجحوا في تعبئة القوى الشعبية وتوجيهها وجهة صالحة، ونجحوا في حمل الأمة على قبول فكرة الحرب بل والمطالبة بها في اصرار وعناد، ووقوف الشعب كله بعد ذلك يؤيد جيشه المحارب و يتحمل في سبيل ذلك

الكثير من الضغط والتضييق في حريته وأرزاقه.

وأود أن أبين أن هذه النتيجة ليست بالامر الهين الميسور، إذ تقدم الدول المحاربة وساستها كثيراً من الجهد والمال في سبيل إقناع شعوبهم بالحرب، وتهيئتهم لخوض صعابها والوقوف أمام مصائبها وويلاتها، ويحدثنا التاريخ القريب كيف قام (هتلر) ليقنع الأمة الالمانية أن الحرب هي الوسيلة الوحيدة لألمانيا لتخليصها مما نزل بها من ظلم صارخ، وبما فرض عليها من قيود قاسية أملتها معاهدة (فرسايل)، وظل يؤجج نيران هذه الاحقاد فترة طويلة من الزمن، وينفق في سبيل ذلك ملايين الجنيهات، حتى أصبح كل فرد في المانيا يؤمن بالحرب وينادي بالاستعداد لها، ولم تكن هذه الأموال والجهود لتنفق عبثاً، إذ ثبت أن هذه العقيدة هي التي جعلت المانيا تقدم على محاربة دول العالم جميعها، وتتقبل الهزائم المتوالية بعزيمة وجلد، وتظل تحارب بشجاعة ـــ رغم تفوق خصومها وانهيار حلفائها ـــ حتى آخر شبر من «الأرض العزيزة» كما كانوا يسمونها.

ولأهمية هذه الناحية في الحروب يجعل العدو أقصى غايته تحطيم روح المقاومة في الشعب، حتى ينقلب على حكومته ويرغمها على الخروج من مسرح القتال وعدم المضي فيه، كما حدث في روسيا في ختام الحرب العالمية الأولى، وكما حدث في إيطاليا في ختام الحرب العالمية الثانية، حين ثار الشعب على حكومته ـــ بفعل الهزائم المتوالية واستغلال دعايات الحلفاء لها ـــ كانت النتيجة تسليم إيطاليا واغتيال زعيمها والمحرك الأول لتلك الحرب. ولعل هذا ما كان يرمي إليه اليهود من غاراتهم على القاهرة خلال الحرب الفلسطينية. ولعلهم كانوا يأملون إضعاف روح المقاومة في الامة نتيجة الغارات وما تحدثه من هدم وتدمير، فتؤثر السلامة والابتعاد عن مسرح القتال.

غير أن تربية الاخوان وتعاليمهم لم تضع هباء، إذ ظل الشعب حتى آخر مراحل القتال وما صاحبها من هزائم وانسحابات يتمتع بروح معنوية عالية، بل رأيناه يعمد إلى القوة ليرغم الحكومة الضعيفة على عدم قبول الهدنة والتقيد بقرارات مجلس الأمن، ومواصلة القتال في عنف وشدة، ولا تزال هذه الروح تتألق في صفوفه حتى اليوم، هذه الروح التي نأمل أن تواتيها الظروف مرة أخرى لتواصل الجهاد من جديد حتى تقوض أركان الدولة الباغية وتعيد لفلسطين المباركة عروبتها وإسلامها. وبعد أن علمنا أثر هيئة الاخوان في تهيئة الشعب للحرب، وبعد أن علمنا أهمية هذه النتيجة في الجولة الماضية وما يتبعها من

جولات، نستطيع أن نحكم على عظم الدور الذي لعبه الاخوان في هذه المرحلة الفاصلة من تار يخ الأمة الاسلامية.

والاخوان بعد ذلك لم يكونوا مبتكر ين ولا مجددين حين أولوا هذه الناحية كل عنايتهم، لأن الاسلام قد أولاها عظيم إهتمامه، حين جاء ليثبت هذه المعاني في نفوس المسلمين، و يوضح لهم الطر يق الذي تسلكه الأمم الحية إن أرادت أن ترد حقاً مغتصباً، أو تذود عن حياضها بحد السيف، وصدق الله العظيم «يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال»، «إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الايام نداولها بين الناس»، «ولا تهنوا في ابتغاء القوم، إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون، وكان الله عليما حكيما».

٦ ـ العقبات في طريق الاخوان

﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

لم تكن بريطانيا تجهل خطورة حركة الاخوان ـ كدعوة اسلامية ـ واثرها على مصالح الاستعمار في مختلف بلاد الاسلام، ولقد راع الانجليز وزاد في مخاوفهم ما رأوه من إقبال الشباب على الجماعة، وانتظامهم في سلكها، حتى تجاوز عددهم مئات الألوف، وتجاوزت فكرتهم حدود مصر إلى غيرها من مختلف بلاد العروبة ومواطن الاسلام، حيث مناطق النفوذ البريطاني وحيث «الأرض الطيبة» التي حسبت بريطانيا أنها وقعت تحت يدها الى قيام الساعة.

رأى الانجليز ذلك ورأوا معه أن هذه الجماعة تنحو منحى جديداً في التنظيم والتكوين، فهي تعتمد على تربية الشباب وتركيزهم، لا على استغلالهم في تهريج حزبي رخيص، وهي تجمع الشباب حول فكرة الاسلام ومبادئه القوية العنيفة، لا حول اشخاص كل بضاعتهم أنهم يحسنون التغرير بالجماهير البائسة وتسخيرها لخدمة أغراضهم ومصالحهم، رأى الانجليز هذا، فأيقنوا أنهم أمام الخطر الذي يهدد مصالحهم بالزوال.

ورأت الاحزاب أن سامرها قد انفضت سوقه وخلت إلا من بعض الوصوليين الذين ينتظرون دورة الحكم ليشبعوا بطونهم وشهواتهم، وبعض الجهلة من الشباب المأجور الذي يقتات من صناعة المظاهرات والهتافات بحياة الزعامات الخاوية، ولا يعلم له غاية يجاهد من أجلها ولا هدفاً يعمل في سبيل تحقيقه. رأت الاحزاب الرجعية ذلك فلم تتفق على أمر طول حياتها بقدر ما اتفقت على محاربة الاخوان ومكافحة دعوتهم، واشتدت المعركة بين عوامل الهدم وعوامل البناء، المعركة الأزلية بين قوى الخير وقوى الشر. وهنا أيضاً التقى

الاستعمار والحزبية، التقوا على محاربة فكرة الاسلام وإطفاء نور دعوته، حتى يعم الظلام من جديد، وفي الظلام يستطيع الاستعمار أن ينهب قوة الشعب و يسلبه عصارة حياته، وفي الظلام يستطيع الزعماء الحزبيون أن يضللوا الشعب و يبقوا فوق عروش القيادة، وحشود الشعب البائس تحملهم على أكتافها كما يحمل الغزاة الفاتحون!

وحين أزهرت سياسة الانجليز في فلسطين وأشرفت على الإثمار والنضوج، انتفضت البلاد الاسلامية في ثورة عنيفة منابعها دور الاخوان ومراكزهم، ولما وضحت الحرب وأصبحت حقيقة لا مفر منها قام الاخوان يفتتحون المعسكرات و يدعون شبابهم لحمل السلاح ويمدون المجاهدين العرب بكميات وفيرة من العتاد، ورأى الانجليز ما في هذه الحركات من خطر يصيب سياستهم في الصميم فعولوا على إبعادهم عن الحرب ومنعهم من دخولها بكل وسيلة، ولقد رأينا ما كان من أمر «الصاغ محمود لبيب» وغيره من دعاة الاخوان وشبابهم، وكيف طاردتهم سلطات الاحتلال وأرغمتهم على مغادرة البلاد، ثم أحاطت الحدود بحراسة شديدة دقيقة لتمنع أحداً منهم من دخول البلاد مرة أخرى.

ولقد حاولت بنفسي دخول البلاد في نوفمبر ١٩٤٧ فوجدت صعوبة كبيرة، وأرغمت على العودة أكثر من مرة، حتى اضطررت إلى قطع مسافة طويلة سيراً على الأقدام، وظللت أتنقل بحذر حتى استقر بي المقام في مدينة (يافا) وكانت الحركات العسكرية قد بدأت تتسع وتزيد حدتها، وأذكر أنني بعد وصولي بأيام كنت أقود دورية من دوريات الاستكشاف والمعارك على أشدها في الشمال.

وكان الوقت ليلا، ووجهتها ضاحية من الضواحي المحيطة «بتل أبيب»، وفجأة راينا السيارات الانجليزية المدرعة تلاحقنا وتحيط بنا ثم ترغمنا على التسليم، ولم نكن نملك وسائل المقاومة أمام هذة القوة المسلحة فسلمنا، ونزل الجنود الانجليز يفتشون ملابسنا و يصادرون ما معنا من سلاح وذخيرة، ثم يقتادوننا في آخر الأمر لاقرب مركز من مراكز الجيش. وهناك بدأ استجواب الاسرى البائسين.

قال الضابط الانجليزي: «أنتم يامعشر الاخوان تحاولون إثارة القلاقل في فلسطين، لا تدعون فرصة من الفرص تمر حتى تنتهزوها للوصول إلى هذة الغاية، ولقد قمنا وراءكم الليلة بناء على معلومات حصل عليها أحد عيوننا المكلفين بمراقبتكم وتقصي أخباركم».

ثم أخذ يوجه إلي الأسئلة وقد علم أنني مصري الجنسية من «البطاقة» التي وجدوها معي، وكنت أجيبه بشدة أغاظته، فأمر جنوده فدفعوا بي إلى إحدى الحجرات المظلمه وهو يهدد و يتوعد، وظللت ساعات فى تلك الحجرة الكريهة، ثم فتح الباب أحد الحراس واقتادني إلى الخارج فوجدت إخواننا وقد شحنوا في السيارات المدرعة تمهيداً لنقلنا جميعاً إلى مركز رئاسة الجيش في المنطقة.

وخشيت سوء العاقبة، وكان أقلها إلقائي في السجن دون سؤال أو تسليمي لليهود كما حدث قبل أيام حين اعتقلت السلطات الانجليز ية أعرابياً يحوم حول إحدى المستعمرات وسلمته لليهود لمحاكمته في «تل أبيب»، وحوكم فعلا أمام محكمة يهودية و برأته المحكمة وأطلقت سراحه في شوارع المدينة! ولكنه لم يعد إلى أهله إذ اغرى اليهود من قتله في إحدى حدائق البرتقال.

كنت أفكر في هذا المصير والسيارات تنقلنا الى هدف مجهول ولاحظت أن السيارة تمر باحدى الحدائق الكثيفة، فقذفت بنفسي منها وانتقلت إلى داخل الحديقة والطلقات النار ية تلاحقني، ولكني نجوت، وظل الانجليز فترة طو يلة يبحثون عني دون جدوى إذ كنت قد اختفيت في الر يف حتى تهدأ العاصفة.

أما إخواننا الآخرون فقد حوكموا وسجنوا، وأما الأسلحة فقد صودرت وذهبت هذه الواقعة مثلا لطغيان الانجليز ومدى تآمرهم مع الغزاة المعتدين.

ولم تكن هذه الخطط لتصرف الاخوان عن مواصلة الجهد، إذا أخذت مراكزهم وشعبهم في فلسطين تنظم حركة المقاومة على قدر ما تسمح به مواردها المحدودة، وأخذ شباب الاخوان في مصر يتسللون فرادى للاشتراك مع العرب في حرب العصابات التي قامت على أشدها في ذلك الحين ومما يجدر ذكره في هذا المجال أن اليهود كانوا يعتبرون الاخوان «مجرمي حرب» وعلى ذلك فلا يجوز معاملتهم كأسرى، بل كانوا يقتلونهم و يشوهون أجسامهم ولقد رأيت بعيني اليهود يمسكون بالمجاهد الكريم «مختار منصور» من إخوان القاهرة في إحدى المعارك التي دارت حول مدينة (يافا) و يقذفون به الى إحدى مصفحاتهم ولم أعرف مصيره حتى التقى بي بعض العرب ممن اشتركوا في المعركة وكان نصيبهم الأسر، فقالوا لي إن اليهود استلوه من بينهم وأطلقوا عليه النار، وقد عرفوه من «البطاقة»

التي يحملها ومن لحيته الخفيفة التي كانت تستدير حول وجهه، وأعود إلى موقف بر يطانيا من الاخوان فأقول أن هذه الحالة كانت تجري على الاخوان وغيرهم من المجاهدين بحجة المحافظة على فلسطين وأمنها، وقت أن كان البحر يقذف الألوف من المهاجر ين ممن تم تدر يبهم وإعدادهم في بلدان أورو با وأمر يكا ويحرس سفنهم الأسطول البر يطاني المغوار!

ظلت هذه الحالة قائمة على أشدها، فالانجليز يطاردون المجاهدين العرب ويحرمون عليهم القيام بالغارات على المستعمرات، وتشترك مدرعاتهم في حماية القوافل اليهودية وتتعاون معهم فعلاً في كثير من المعارك، ولقد شاهدت بعيني خلال شهر ديسمبر عام ١٩٤٧ عدداً كبيراً من الضباط الانجليز يدر بون فتيان وفتيات (الهاجاناه) على أعمال العصابات في «وادي اللطرون» على مقربة من القدس، وأخيراً يختم الانجليز إحتلالهم البغيض بتسليم اليهود أمهات المدن والموانىء العر بية، كما حدث ليافا وحيفا وعكا وغيرها من المدن والموانىء.

جاء شهر مايو من عام ١٩٤٨ وكان بداية تحول كبير في مجرى الحوادث إذ أنهى فيه الانجليز إنتدابهم وختموا آخر صفحة لسياستهم في فلسطين وغادروها غير مأسوف عليهم، ودخلت الجيوش العر بية من الشرق والغرب والجنوب لتعيد الأمن إلى نصابه.

وظن الإخوان أن عهد التضييق والارهاب قد إنتهى بإنسحاب الانجليز، وأنهم يستطيعون الآن إدخال قواتهم دون خوف أو وجل، وأن الوقت قد آن ليفي مرشدهم العظيم بوعده فيدخل إلى فلسطين عشرة آلاف مجاهد كدفعة أولى، كما سبق له أن قرر في برقيته المشهورة التى بعث بها إلى زعماء الدول العربية في إجتماعهم «بعاليه».

ظن الاخوان ذلك، ولكن جاءت الحوادث لتخلف ظنهم، وتقنعهم أن سياسة الانجليز باقية وإن انسحبت جنودهم من الميدان، وأنهم لا يزالون يحركون سياسة الحرب من وراء ستار.

طلب الاخوان من حكومة النقراشي السماح بإدخال فوج من مجاهديهم ليرابط في الجزء الشمالي من صحراء النقب، فرفضت الحكومة هذا الطلب وأصرت على عدم السماح لهم بذلك، مما اضطر بعضهم إلى طلب السماح لهم بالقيام في رحلة علمية إلى «سيناء» فوافقت حكومة النقراشي بعد إلحاح شديد وحضرت تلك المجموعة إلى «سيناء» وتسللت منها إلى فلسطين سراً حيث لحقت بها دفعات أخرى تسللت بطرق مختلفة.

وكانت حيلة دخلوا بها إلى فلسطين، وبدخول هذا الفوج في فبراير عام ١٩٤٨ بدأ القتال الفعلي في صحراء النقب. فأخذ يهاجم المستعمرات اليهودية بعناد وصلابة رغم قلة عدده وضعف أسلحته، وتجمع حوله المجاهدون من أهل فلسطين وبدأت حرب عصابات منظمة كانت تبشر بنجاح رائع، ومر شهران وعلمت الحكومة فطلبت إلى المركز العام سحب قواته من النقب، وكان طبيعياً أن يرفض الاخوان فلم تجد الحكومة بداً من قطع الامدادات والتموين ومراقبة الحدود بشدة لتضمن عدم وصول شيء منها للمجاهدين حتى تضطرهم للعودة إلى مصر، ورأى المجاهدون أنفسهم خلال قتالهم الرائع يعيشون أياماً طوالا على التمر والماء، وعلى الخبز اليسير الذي يشترونه من نقود قليلة يرسلها أهلوهم بين حين وآخر، ولكن أين تذهب هذه الشدائد في نفوس هيأها الله لحمل رسالته والجهاد في سبيله؟ــ ألم يكن أصحاب رسول الله يربطون على بطونهم الأحجار إذا أعوزتهم المؤونة واشتد بهم الجوع؟ تلك هي المثل العليا التي وضعها الاخوان أمام أعينهم وعاهدوا أنفسهم على الوصول إليها، وإذن فلتضرب حكومة النقراشي رأسها في الصخر ولتقطع التموين والامداد ولتمنع الهواء إن استطاعت، فإن ذلك لن يغير من الموقف شيئا وسيظل المجاهدون في ميدانهم حتى ينتصر الحق وتعلو كلمة الله.

بقي المجاهدون في ميدانهم يعملون، ووجدوا من إخوانهم العرب كل معونة ورعاية، حتى دخل الجيش المصري البلاد وأخذ يهاجم المستعمرات اليهودية في النقب، واشترك الاخوان في معظم العمليات الحربية التى قام بها، وكان طبيعياً أن ينقص عددهم بفعل المعارك الطاحنة وما سقط منهم فيها من الجرحى والشهداء.

وحتى في تلك الأوقات الحرجة لم تحاول الحكومة أن تراجع موقفها وأن تسمح للاخوان بدخول الميدان ولا لتعويض هذه الخسائر الكبيرة في الأفراد، بل شددت رقابتها أكثر من ذي قبل، وكان الاخوان في مصر يعلمون حقيقة الموقف في فلسطين ويتشوقون للحاق بإخوانهم، ولكن قيود الحكومة كانت تقف حائلا دون التنفيذ، مما اضطر كثيراً منهم إلى المجيء سيراً على الأقدام، ولا زلت أذكر ذلك اليوم الذي حضرت فيه جماعة من الاخوان قوامها خمسة عشر شاباً لم تكن تزيد أعمارهم عن السادسة عشرة، وكانوا كلهم طلاباً في المدارس الثانوية، وسألتهم عن سبب مجيئهم، فقالوا إنهم يرغبون في تأدية فريضة الجهاد

بعد أن نجحوا في امتحاناتهم لهذا العام، ثم أخذوا يقصون علي أنباء رحلتهم الشاقة وكيف غافلوا رجال البوليس وقفزوا إلى عربات البضائع في قطارات السكك الحديدية، وكيف ساروا مسافات شاسعة في صحراء سيناء الموحشة بمعونة دليل من البدو. وكنت أستمع اليهم وقد بلغت الدهشة مني كل مبلغ. والأسئلة تتوارد على ذهني يلاحق بعضها بعضاً. أهكذا تفعل تربية الاسلام في نفوس الشبيبة؟ وما الذي دفع هؤلاء الفتية الأحداث وجلهم من الطبقة المترفة إلى تجشم هذه الصعاب وركوب هذا المركب الصعب؟ أليس في مصر ألوف مؤلفة من أمثال هذا الشباب يقضون أوقاتهم بين المسارح ودور اللهو؟ وكان الجواب حاضراً: إنها العقيدة التي تسيطر على النفوس فتملؤها قوة وعزماً، وإنه الاسلام الخالد قد عمل عمله في هذه القلوب الفتية الغضة وسيرها حسب مشيئته ووفق إرادته.

وتذكرت ذلك الطفل اليافع الذي صحب رسول الله في إحدى غزواته وقاتل بشدة حتى استشهد بطلا، فأكرمه رسول الله ودفنه بيديه الشريفتين حتى تمنى أحد كبار الصحابة وهو عبد الله بن مسعود أن لو كان مكانه ونال ما ناله من إكرام رسول الله وإعزازه، وتذكرت تلك الحملة الصليبية من الأطفال الذين جرفتهم العقيدة فغادروا أحضان أمهاتهم بليل، وركبوا المخاطر والصعاب، حتى لقوا حتفهم في آخر الشوط في الديار المقدسة وكانوا طعاماً لحيتان البحر وأسماكه. تذكرت ذلك وتمنيت يومها أن أعيش حتى أرى هذا الجيل المسلم وقد أمسك بعجلة القيادة في أمته ومضى يوجهها نحو الخير والعظمة، على أساس من هدي الاسلام ونوره.

وأفقت من تأملاتي على صوت أحدهم وهو يسأل عن موعد التدريب ولما يجف عرقه بعد الرحلة الشاقة التي قاساها فأجبته بما طمأنه وبعثت بهم إلى «عنبر الراحة» لينالوا قسطاً من الراحة والغذاء قبل البت في مصيرهم وأسلمت نفسي الى تأملات عميقة وأنا أردد قول الله تعالى :

«إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى».

٧ ــ يتخطون العقبات

« لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت
به هو الحق والله لو استعرضت بنا هذا البحر
فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد »
« سعد بن معاذ »

عز على الحكومة السعدية أن يستمر الاخوان في جهادهم، فأرادت أن تكيد لهم عن طريق آخر، فأمرت بوليسها أن يمنع المجاهدين الذين يغادرون الميدان لزيارة أهلهم في إجازات قصيرة، حتى ينقص عددهم وينتهي أمرهم، وفطنا الى الحيلة بعد مدة فألغينا الأجازات وقررنا نسيان الأهل والولد حتى نضيع على الحكومة فرصتها ونستمر في جهادنا. في هذا الجو المعتم كان الاخوان يقاتلون اليهود في فلسطين، ومن حق القارىء أن يتساءل بعد ذلك عن سبب هذه السياسة المتعنتة التي وقفتها الحكومة النقراشية تجاه الاخوان في فلسطين، فنقول إنها سياسة رسمها الاستعمار وترك لهذه الحكومة مهمة تنفيذها حتى لا يظهر على المسرح ظهوراً سافراً. ولقد قال لي أحد كبار المسؤولين في الميدان وقد حمل إلي أمراً بتسريح الاخوان من عرب فلسطين الذين ضممناهم إلينا في الميدان.

إن الحكومة تنظر بعين الريبة إلى حركات الاخوان وتخشى أن يؤلفوا جيشاً في فلسطين يكون بعد ذلك خطراً كبيراً على سلامة الدولة، ولست أدري أي دولة تلك التي تهمهم سلامتها؟ حقاً ... لقد كان الاخوان خطراً كبيراً على دولة إسرائيل، ولقد فهم المستعمر الظالم أين يكمن الخطر الحقيقي على دولته الوليدة، فأوحى إلى رجاله وأشار إليهم فكانوا عند حسن ظنه. كالعهد بهم وقاموا بسرعة مجنونة يلبون نداءه ويجيبون رجاءه، وانتهى الصراع بالمذبحة التي لا تزال عالقة بالاذهان حتى الآن، والتي عرفت باسم قضايا الإرهاب،

وقضايا الأوكار وغير ذلك من المسميات، ولو أنصفوا التاريخ والواقع لأسموها: «مذبحة الاسلام في وادي النيل».

نجح الاخوان المسلمون في التسلل عبر الحدود، رغم الخطط التي فرضها الاستعمار وأذنابه، ولم تمض اسابيع قليلة على بداية الصدام حتى حمل الاخوان لواء الجهاد الشعبي ونجحوا في إدخال عدد كبير من خيرة شبابهم من مصر وسوريا وشرق الأردن.

ففي الوقت الذي كانت فيه القوة الأولى ترابط في النقب وتفتتح أولى معارك الجنوب في «كفار ديروم» في ١٤ أبريل سنة ١٩٤٨، كانت القوة الثانية بقيادة اليوزباشي «محمود عبده» تنتقل الى معسكر «قطنة» بسوريا لتستكمل تدريبها، ثم ترابط فترة في النقب وتشترك مع زميلتها الأولى، وأخيراً تصحب الشهيد «أحمد عبد العزيز» في جولته الموفقة قبل أن يستقر في جنوب القدس، ويكون من نصيب هذه القوة أن يوكل لها مهمة الدفاع عن مرتفعات «صور باهر» الحصينة، وهناك تلحق بها قوة كبيرة من الاخوان المسلمين في شرق الأردن بقيادة المجاهد « عبد اللطيف أبو قورة» رئيس الاخوان في عمان، وتندمج القوتان في فرقة واحدة متحدة القيادة، ليكون لها الفضل بعد ذلك في المحافظة على تلك المرتفعات وعرقلة الخطط اليهودية التي كانت ترمي الى إحتلالها، لتتحكم في القوات المصرية المتطوعة المرابطة في مناطق «الخليل وبيت لحم».

ولم يكن الاخوان في سوريا بأقل نصيباً من غيرهم إذ أدخلوا قوة من رجالهم يقودها الاستاذ «مصطفى السباعي» رئيس الاخوان في دمشق، عملت بهمة ونشاط في مناطق «المثلث» و «القدس» وساهمت مساهمة فعالة في الدفاع عن هذه المناطق الحيوية. وكانت القوات غير النظامية التي شكلتها شعب الاخوان في فلسطين تعمل منذ بداية الحركة في المناطق الشمالية والوسطى تحت القيادات العربية المحلية وتقوم بغارات ناجحة على مستعمرات اليهود وطرق مواصلاتهم رغم الضعف الشديد الذي كانت تعانيه سواء في التسليح أو التدريب.

ولقد اضطر الاخوان إزاء القيود التي فرضتها الحكومة، إلى تقديم شبابهم للعمل تحت قيادة الجامعة العربية، فتكشلت منهم ثلاث كتائب أتمت تدريبها في معسكر «الهاكستب» ثم تسللت إلى فلسطين قبيل زوال الانتداب البريطاني، وكان يقود الكتيبة

الأولى الشهيد «أحمد عبد العزيز» الذي قام بنشاط ملحوظ في مهاجمة مراكز اليهود في النقب قبل أن يتخذ موقفاً دفاعياً عن مناطق جنوبي القدس. وكانت الكتيبة الثانية لمتطوعي الجامعة العربية بقيادة البكباشي «عبد الجواد طبالة» ترافق الجيش المصري، وتشترك معه في الدفاع عن منطقة «غزة» وتتولى حصار بعض المستعمرات وتقوم بحراسة بعض النقط الهامة في خطوط المواصلات، ثم تستقر بعد ذلك مع زميلتها في «بيت لحم» عقب استشهاد المرحوم «أحمد عبد العزيز».

وتتجمع هذه القوات في تلك المنطقة وتنجح في المحافظة عليها وتسليمها للجيش العربي الأردني بعد حصار شاق طويل، وهجمات عنيفة من العدو، أظهرت في صدها الكثير من ضروب البطولة.

وهذه القوات المتطوعة، وإن كانت خليطاً من الإخوان وغيرهم من الشباب المصري الحر، ممن لا يكفر سعيهم ولا ينكر جهادهم، إلا أن الكثرة الساحقة من الاخوان فيها قد طبعتها بطابع الدعوة الخاص، وبهذا الطابع عرفها أهل تلك المناطق، حتى أن الحكومة السعدية حينما أرادت اعتقال مجاهدي الإخوان في «بيت لحم» و «صور باهر» عقب اعلان الهدنة وفك الحصار، لم تستطع التمييز بين الإخوان وغيرهم فاعتقلت مجموعة ضخمة منهم وأودعتهم المعتقل العسكري في «رفح» على حدود مصر الشرقية.

وهكذا ورغم تلك القيود القاسية التي فرضها الاستعمار وحافظ عليها أذنابه من بعده، فقد اشترك الاخوان في الحرب بأعداد كبيرة كانوا يتحملون الانفاق على معظمها و يتكبد مركزهم العام ألوف الجنيهات في شراء الأسلحة والمعدات.

ولا أظنني في حاجة لأؤكد للقارىء أنني لا أسجل للإخوان فخراً ولا منة، ومعاذ الله أن نمن على أمتنا مهما قدمنا لها من جهد وتضحيات، وكل شيء نقدمه نعتبره صغيراً تافهاً بالنسبة لما نريده لها من عز وإسعاد، ولست أتهم أحداً دون وجه حق ولكنني أعتقد أن من حق الأمة علينا أن نوضح لها الحقيقة المجردة لتستطيع أن تفرق بين الخصوم والأصدقاء، والمخلصين والأدعياء، وإن لي من وراء هذا السرد وهذه المقارنة غرضين: أولهما تبيان حقيقة المزاعم التي شغلت بها الأقلام المغرضة والصحافة الموبوءة فترة من الزمن، لطمس هذه الحقائق، والتقليل من أهمية هذه التضحيات، خدمة للمستعمر وإرضاء لشهوات حزبية

جامحة، فكان أن سمع الرأي العام بتلك النغمة المرذولة عن التدريب السري في فلسطين، والاستعداد لحركة ثورية عند الرجوع لأرض الوطن.

ولسنا في حاجة ــ بعد الذي ذكرنا ــ للتدليل على كذب هذا الادعاء، إذ لو كان الاخوان يرجون من وراء جهادهم تلك الأغراض التي ذكرها دعاة السوء، لما أقدموا على الحرب واندفعوا فيها هذا الاندفاع، ولوقفوا موقف المتفرج فما لامهم أحد من الناس، ولكانت الحجة لهم لا عليهم، والانجليز وحلفاؤهم يمنعونهم من دخول الحرب بكل وسيلة، ولكنهم إندفعوا لقتال اليهود بشدة وعنف، ولسوف يظل ذلك مفخرة لهم كلما ذكرت الجولة الاولى من حرب فلسطين، ولو ترك الاخوان على سجيتهم دون أن توضع أمامهم كل هذه العراقيل، لرأى دعاة السوء كيف أغرقوا أرض فلسطين بسيول من قواتهم وكتائبهم، ولتغيرت نتيجة الحرب لا محالة. هذا غرض، والغرض الثاني الذي نرمي إليه من سرد هذه الوقائع هو أننا نؤمن إيماناً راسخاً بأن حربنا مع اليهود لم تنته بعد، ولم تكن الجولة الأولى منها إلا مقدمة لحرب طويلة المدى. فإسرائيل خطر كبير على كيان الوطن العربي، لا يقلل من خطورته ما ينشره دعاة التردد والهزيمة عن وجوب الاسراع بعقد الصلح معها حتى تنتهي حالة التوتر ونحني رؤوسنا أمام الأمر الواقع.

واليهود إن لم نكرس جهودنا لقتل دولتهم الباغية فهم يعملون جاهدين لتقويض أركان دولنا وإقامة امبراطورية يهودية تمتد من النيل الى الفرات.

وإذاً فمن واجبنا أن نضع نصب أعيننا دروس الماضي وأخطاءه وأن نجعل من الجولة الأولى مزرعة «للتجارب العسكرية». تماماً كما كانت الحرب الاهلية التي قامت في أسبانيا سنة ١٩٣٧ والتي كانت «مزرعة» استنبتت فيها بذور الحرب العالمية الثانية. وكانت فرصة طيبة اغتنمتها الدول الكبرى فجربت فيها خططها وأسلحتها، أو كهذه الحرب التي نشبت في أواخر العام ١٩٥٠ في كوريا والتي نعتبرها تجربة صغيرة لحرب عالمية ثالثة، فكل دولة من الدول تجرب فيها آخر ما وصلت إليه من خطط القتال، وأساليب الفتك والتدمير. ومزرعتنا هذه زرعت فيها بذور مختلفة، فمنها الذي مات لساعته ولم يبد له أثر. ومنها الذي أينع ثم هاج فرأيناه مصفراً، ومنها الذي أينع وترعرع حتى آتى أكله بإذن ربه، والويل كل الويل لنا إن لم نستفد من هذه التجارب التي كلفتنا الكثير من

الدم والمال. ولن يختلف اثنان في قيمة التربية الاسلامية وأثرها في تكوين المحارب الناجح.

ولعل هذه هي خلاصة النتائج التي وصلنا إليها حين راجعنا كشف الحساب عند نهاية الحملة، وحين أنعمنا النظر في مزرعة تجاربنا فوجدنا أن بذرة الاسلام هي وحدها التي نمت وترعرت وخرجت من الحرب أقوى ما تكون حبا للقتال، حين مات غيرها ولم يستطع الثبات أمام ضغط الحوادث، وصدق الله العظيم : «أفمن أسس بنيانة على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين.

٨ ـ جاسوسية وجواسيس

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾

لم يعرف التاريخ شعباً كافح في سبيل حريته مثل ما كافح الشعب العربي الفلسطيني، ولم يشهد التاريخ نوعاً من أنواع التنكيل والارهاب أشد وأقسى مما صبته بريطانيا على هذا الشعب الباسل لتصرفه عن حقوقه وأهدافه، وإن الثورات المتتابعة التي شهدتها فلسطين منذ ابتليت بالاستعمار البريطاني لتعطي صورة صادقة لنفسية هذا الشعب ومدى إيمانه بحقوقه، وتمسكه بها، إيمانا تغلغل في نفوس جميع أفراده ومختلف طبقاته، وتساوى فيه البدوي والحضري، ولقد بينت طرفاً من جهاد هذا الشعب في صفحات سابقة، غير أن أحدنا لن يمل حين يستطرد في نشر هذه الصفحات المجيدة، التي سطرها المجاهدون بدمائم وهم يكافحون أكبر قوتين في الأرض، قوة المال وقوةالسلاح قوة بريطانيا العظمى بجيوشها الجرارة. وقوة الصهيونية بذهبها ونفوذها.

ولا ينتظر القارئ مني أن أحدثه عن الأسماء اللامعة، التي سمع بها القريب والبعيد، وتناقلتها الصحف والمجلات، ولكنني أغوص به إلى أعماق هذا الشعب ليرى مدى تغلغل روح الجهاد والتضحية في طوائفه وطبقاته.

فهذا سائق سيارة بسيط يطلب إليه الانجليز أن يقود سيارة تحمل عدداً من جنودهم إلى القدس حيث يساهمون في القضاء على اضرابات وقعت حولها، ولم يكن في وسعه أن يرفض فاستجاب لهم وقد بيت في نفسه نية القضاء عليهم، فودع أهله ومضى بهم في طريق

القدس، وعلى تلك القمم الشاهقة المطلة على «باب الواد» انحرف بسيارته إلى منحدر سحيق فاستقرت في القاع بحمولتها أشلاءاً ممزقة وصعدت روحه إلى بارئها بعد أن أدى واجبه...

وهذا طفل ريفي في التاسع من عمره، تمر به إحدى الدوريات الانجليزية، فيعز عليه أن يتركها تمر في أمان، فيتناول بندقية أبيه و يترصد إليهم في إحدى الحدائق و يصوب إليهم بندقيته، و يلحظه أحد الجنود فيصيبه برصاصة، ثم يفتشونه فإذا البندقية خالية من الذخيرة، وإذا الطفل مصاب في ساقه، فاستولى العجب على قائد القوة و بلغ منه التأثر مبلغه ولم يتمالك أعصابه فمال على الطفل يقبله ثم يحمله في سيارته لأحد المستشفيات...

ولقد حدثني أحد الاخوان ممن اشتركوا في اضطرابات عام ١٩٣٦ أن الصحف اليهودية أخذت تجأر بالشكوى المرة من عصابات «خطرة» تغير على اليهود في شركة البوتاس على البحرالميت، وقال لي إن تلك العصابات «الخطرة» لم تكن في الواقع إلا أعرابياً واحداً يدعى «سليمان بن خميس» من عربان «السعيديين» في وادي «عربه»، لم تكن لديه إلا بندقية من نوع فرنسي قديم وما لا يزيد عن عشرين طلقة من الخراطيش الفارغة، كان يملؤها بيديه من البارود والرصاص، ثم يكمن بجانب منبع للمياه يدعى «العين البيضاء» كان اليهود يأخذون منه ما يحتاجون من مياه الشرب، و يظل في مكمنه حتى إذا اقترب منه «الصيد» أطلق ما معه من رصاصات حتى إذا أصاب من أصاب منهم، رجع مطمئناً إلى خيمته حيث يعاود تعبئة «الخراطيش» من جديد، استعداداً لمعاودة الصيد، وهكذا إلى أن ظفر اليهود به فأصابوا منه مقتلا ولكنه أبى أن يستسلم وظل يركض بعيداً عن المكان مخافة أن يظفر اليهود بجثته، حتى سقط قريباً من قومه واستشهد تاركاً وراءه زوجتين وأطفالا، وسكتت حينذاك الصحف اليهودية عن الشكوى من تلك العصابات «الخطرة».

أمثلة كثيرة جداً لا يمكن حصرها في هذه الصفحات، ولكنك ترى من هذه الأمثلة مدى تعمق روح الجهاد وتغلغله في نفوس طبقات الشعب، فهذا سائق سيارة في مدينة، وذلك طفل في قرية، وذاك اعرابي في البادية لم تربط بينهم قيادة مشتركة ولا نظام موحد إلا رابطة الدين والوطن. تلك هي منابع القوة التي فشل زعماء العرب في تسخيرها والتحكم فيها، وتلك هي الروح التي كان يخشاها الاستعمار و يشفق على دولته أن يحاربها أمثال

هؤلاء، بعد أن يداخلهم شيء من التنظيم والتدريب، ولقد أوضحت كيف وقفت بريطانيا أمام تدريب الشعب الفلسطيني، واعتبرت ذلك عملاً عدائياً موجها لمصالحها في فلسطين.

والعجيب أن الخطة التي رسمها المستعمر لإبعاد الشعب الفلسطيني عن مسرح القتال، ومعالجة قضيته بنفسه، هي الخطة التي سارت عليها الجيوش العربية المنقذة، فلم تكد تدخل فلسطين حتى بادرت بحل المنظمات العسكرية، ونزعت السلاح تدريجياً من المجاهدين.

وكانت هذه هي احد الأخطاء الكبرى التي عجلت بنهاية الحرب وختمتها على صورتها المفجعة. ولست أجد في التاريخ جيشاً قام ليحارب عدوا في بلد من البلدان، إلا وبذل جهده للتقرب من أهل البلاد، وكسب تأييدهم وضمان معونتهم.

ففي الحرب العالمية الثانية أخذ عملاء الحلفاء في أوروبا، ينظمون رجال المقاومة السرية في مناطق الاحتلال النازية، ويمدونهم بالمال والعتاد ليتعاونوا مع الحلفاء، وكان ذلك تمهيداً لغزو أوروبا، حتى أن قيادة الحلفاء، لم تأمر بالنزول إلى الساحل الفرنسي إلا بعد أن وثقت من تأييد العناصر الوطنية وأعطتها الإشارة لتبدأ أعمال التخريب في مؤخرة الجيوش النازية.

وإذا كانت هذه الجيوش لم تغب عن الجيوش النازية، فلست أدري كيف غابت عن الجيوش الحليفة التي جاءت بدافع قومي لتشترك مع أهل فلسطين في إنقاذ وطنهم، وليس من شك في أن الطريق كانت ممهدة أمام الجيوش العربية للإفادة من قوى الشعب الكامنة وتسخيرها للهدف المشترك، لو أخلصت النية وتنصلت مؤقتاً من خيوط السياسة البريطانية. فالشعب العربي كان في حرب مريرة مع اليهود حتى دخول الجيوش العربية، وكان ينتظر دخولها بفارغ الصبر ويعلق عليها أكبر الآمال.

وإذن فلقد كان من واجب الحكومات العربية أن تشرع فوراً في تكوين جيش عربي قوي، يقوم بدوره في تحرير بلاده، ولكن ما أن دخلت الجيوش العربية وبدأت عملها حتى تعددت تهم التجسس والخيانة، وترتب على ذلك شعور بعدم الثقة أخذ يتزايد يوماً بعد يوم حتى انقلب إلى هوة سحيقة، استحال معها التعاون بين أهل البلاد والجيوش المنقذة التي جاءت لنجدتهم والذود عن كيانهم.

وأشهد أن الدعاية اليهودية قد أدت دورها ونجحت أبلغ النجاح حين اخذت أبواقها تذيع في كل مكان أن شعب فلسطين راض عن بقاء اليهود، وليس ثمة خلاف بيننا و بينهم وأنه يعارض فكرة الحرب، واستغلت هذه الدعاية بعض حوادث الخيانة الفردية ــ التي لن تخلو منها أمة من الأمم ـ لتبرزها للناس في صورة مكبرة على أنها حركة إجماعية عامة. وساعد على تثبيت هذا المعنى وإلباسه ثوب الحقيقة تلك الحملات الصحفية التي تطوعت بها الصحف المصرية، ولم تحاول أن تتحرى المصلحة والحقائق في نشرها، بل قدمتها للناس غذاء فكرياً مسموماً على أنه سبق صحفي منقطع النظير!

ولعل القراء الكرام لا يزالون يذكرون تلك الصور والمقالات التي كانت تنشرها مجلات «دار الهلال» و «أخبار اليوم» عن الجواسيس العرب، وكيف أن الحراس المصريين اليقظين «كذا» قد قبضوا على اعراب داخل الخطوط المصرية، فوجدوهم «مختومين» بختم الهجاناه، وكيف أن الجيش المصري وجد أعراباً مقتولين ضمن قتلى اليهود في احدى المعارك. هذه الانباء المختلقة واشباهها كان لها أكبر الأثر في إيهام الجنود المصريين أنهم يحاربون في أرض معادية، و يساعدون أقواماً خونة باعوا أرضهم ثم امتشقوا الحسام دفاعاً عن الصهيونية!

وإلى جانب ما في هذه الأنباء من تجن على الحقائق، فإنها كانت سلاحاً خطراً أثر تأثيراً بعيداً في قتل الروح المعنوية في الجنود المصريين، فالجندي المصري كان يشعر أنه يقاتل دفاعاً عن إخوانه المسلمين من العرب فعلى أي اساس يقاتل إذا أدخل في روعه أنه يدافع عن خونة يشتركون مع العدو في مقاتلته؟

ليت شعري هل فهمت هذه الصحف عظم الضرر الذي سببته حين أقدمت على نشر ما نشرته؟ أم أنها تعلم الحقيقة وتنشر لغرض نجهله. والواقع أن الجنود المصريين كانوا معذورين حين آمنوا بهذا الوهم واعتبروه حقيقة واقعة ومضوا يعاملون العرب على أنهم جواسيس و يتوجسون منهم خيفة؛ وهم يقرءون كل يوم في الصحف المحترمة مثل هذه الأنباء المثيرة!

هذا الوهم الخاطيء دفع الجنود إلى اتهام كل بدوي بالتجسس، و يكفي لإلصاق

التهمة أن يوجد «وشم قديم» أو «كي» بالنار وقلما تجد في أجسام البدو من يخلو من الوشم، وهو وسيلة الزينة؛ أو الكي وهو الوسيلة الوحيدة للعلاج! فإن وجدت هاتان العلامتان فهو جاسوس خطر (مختوم)، وقبل أن تدخل التهمة في دور التحقيق يكون صاحبنا هذا نال نصيبه من الضرب بالأيدي والركل بالأقدام.

و يكفي للتدليل على هذه الأخطاء وأثرها أن نذكر قصة واحدة شاهدناها بأعيننا وسمعناها بآذاننا وهي أيضاً على سبيل المثال.

حينما كان الجيش المصري الباسل يخوض غمار المعارك العنيفة في منطقة «بئر السبع» كان هناك أعرابي يدعى «ابن عقيل» وكان هذا العربي واسع الحيلة عظيم الشجاعة خبيراً بمسالك الصحراء ودروبها، مما حدا بقائد منطقة «عسلوج» في ذلك الوقت اليوزباشي «عبد المنعم عبد الرؤوف» أن يستغله في وضع الألغام على طرق اليهود، فأدى الرجل دوره ببراعة وإخلاص يستحقان التقدير والاعجاب، ثم نقل هذا اليوزباشي بفرقته وحل محله آخرون، واستمر هذا البدوي يؤدي دوره الجليل حتى بدأت المأساة التي كادت تودي به.

ذلك أنه عثر على عدد من الألغام الضخمة التي وضعها اليهود على طريق الجيش المصري، ولما كان الرجل قد اكتسب خبرة في الألغام لاشتغاله بها وقتاً طويلا، فقد نجح في نزعها من الطريق وحملها في كيس على كتفه ومضى فخوراً بعمله ليوصلها إلى قيادة الجيش في المنطقة، ورآه الجنود من الحراس يحمل ألغاماً على ظهره فقبضوا عليه وأخذوا يتصايحون: جاسوس ... جاسوس، وانهالوا عليه ضرباً دون سؤال أو جواب والرجل يحاول اقناعهم دون جدوى، ثم تحسسوا بدنه فإذا هو «مختوم» بعدة أختام ترمز إلى عدد الأمراض التي أصيب بها في حياته!

والعجيب ـ وهذا موضع العجب كله ـ أن تؤمن القياده المحلية بأنه جاسوس وتشكل له محاكمة عسكرية لتحاكمه بتهمة الخيانة العظمى، ولم يكن المجلس العسكري في حاجة لمزيد من الأدلة فأصدر حكمه باعدامه، وكان المفروض أن تستمر هذه المهزلة إلى نهايتها لولا أن تدخل قدر الله في آخر لحظة، إذ تقدم أحد أعيان البدو ـ وكان يعلم القصة كلها ـ باسترحام إلى الجهات المسئولة يرجو إعادة النظر في قضية هذا المجاهد البائس.

وأعيدت المحاكمة وتشكل له مجلس عسكري جديد، وطلب الأعرابي في هذه المرة

شهادة اليوزباشي «عبد المنعم عبد الرؤوف» الذي جاء ليؤدي شهادة الحق وليبين تعدد الخدمات التي أداها هذا الرجل، ومن بينها إنقاذ أحمد سالم باشا ورتل من السيارات العسكرية معه، وكانوا على وشك أن يطأوا لغما هائلا وضعه اليهود في طريقهم، وكان صاحبنا يراقب ذلك من مكمن قريب، وحاول نزعها فلم يستطع فظل يحرسها وقتاً طويلا يمنع أحداً من الاقتراب إليها.

وأمام هذه الحجج الدامغة لم يجد المجلس العسكري بدأمن تبرئته، مع منحة مالية وهبها له رئيس المجلس من جيبه الخاص. ولولا الظروف وحدها لنفذ حكم الإعدام في هذا المسكين، ولأزهقت روح بريئة ظلماً وعدواناً، وأزهقت معه سمعة وكرامة شعب مجاهد كريم، ولذهبت هذه القصة أيضاًمثلا جديداً يضاف إلى غيره للتدليل على جاسوسية العرب وخيانتهم العظمى!

وهكذا وقعت الجيوش العربية في الخطأ بسهولة، وبدل أن تقوم بخطة مضادة تعيد بها للشعب ثقته بنفسه وبأصدقائه، وتضمه إلى صفها، إذا بها تضخم الخطر وتحذر جنود وحداتها من التعامل مع العرب والاطمئنان إليهم.

ومن هنا خرجت تلك النغمة المرذولة على التجسس والخيانة، بدأت خافتة محدودة، ثم انقلبت إلى ضجيج هائل، طغى على صوت الحرب نفسها، وضاعت في غمارها معالم جهاد رائع، وتضحيات فذة، قام بها الشعب الفلسطيني طيلة ثلاثين عاماً، واختفت من الوجود تلك الصفحة المشرقة من جهاد عرب فلسطين، الصفحة التي مر بك طرف منها، وخطتها دماء الشهداء الأبطال من أمثال « عز الدين القسام، وعبدالقادر الحسيني، وحسن سلامة» وزملائهم من زهرات الشباب الكريم، لتحل محلها صفحة سوداء قاتمة، يتخللها الخزي والعار ويمليها الجهل وسوء التصرف، وتكون النتيجة الحتمية لهذا أن يحكم على الشعب الفلسطيني بالابتعاد عن مسرح القتال، والجلوس في مقاعد المتفرجين، حتى تنتهي مسرحية الحرب لتفيق الأمة المجاهدة فتجد نفسها مجموعات ممزقة من اللاجئين المشردين.

ولقد أصبحت جاسوسية العرب وخيانتهم سبباً كافياً يقدمه الضباط الصغار، لتعليل الهزائم التي يمنون بها، أو لتعليل العمليات الجريئة التي يقوم بها اليهود، لا تمر معركة من المعارك حتى تستمع لهذه الجملة من الجنود العائدين يقولونها بلهجة الواثقين «يا عم إذا كان

العرب بيحاربونا مع اليهود»، ثم يمضون في حبك القصص الخيالية، مؤكدين أن العرب كانوا يهاجمون مؤخرتهم و يطلقون عليهم الرصاص من حدائق البرتقال.

وأعجب ما في الأمر أن هذه الأنباء المختلقة كانت تلاقي آذاناً صاغية في القيادات العليا، وتقبلها عقول المسؤولين على أنها حقيقة واقعة لا تقبل الشك والتأويل.

ولقد استغلت هذه الحركة استغلالاً سيئاً في كثير من النواحي، وأصبحت تهمة الجاسوسية سيفاً مصلتاً على أعناق الناس تكفي لاستعماله شهادة جندي مغرض، أو مدني موتور، لينزل على الرقاب في غير تردد ولا شفقة، ولا عجب في ذلك فقد كانت الخواطر مبلبلة، والأذهان مهيئة لقبول التهمة وتصديقها ولو وقعت على أرسخ الناس قدماً في الجهاد واشدهم تفانياً فيه.

ولقد كان الاخوان يقعون في هذه الأخطاء تحت تأثير الدعايات اليهودية، والأساليب التي خلقها اليهود لبذر بذور العداء بين أهل البلاد وإخوانهم من المجاهدين.

وواضح أن عرب فلسطين قد ابتهجوا بدخول الاخوان وارتاحوا إليهم، وسارعوا للانضمام في صفوفهم حتى أصبح عدد أهل البلاد المتطوعين مع الاخوان، أكثر بكثير من عدد الاخوان أنفسهم، ولم يسر اليهود بهذه الحركة، فعملوا منذ اليوم الأول على بذر بذور الفتنة بين الاخوان وأهل البلاد، وسلكوا كل سبيل لتقويض أركان هذه الوحدة، فكانوا يأمرون جنودهم بارتداء الزي العربي في بعض المعارك، لإيهام الاخوان أن عرب فلسطين يقاتلون مع اليهود.

ولقد حدثني أحد الاخوان الذين اشتركوا في معارك اللد أن هذه الطريقة بالذات اتبعت ضد الجيش الأردني، فخرج الناس يقولون أن الجيش الأردني يقاتل جنباً إلى جنب مع اليهود!

ولم يكف اليهود عن محاولاتهم فالتمسوا طرقاً كثيرة، وكلما فشلت طريقة لجأوا إلى شيطانهم يلتمسون عنده غيرها، حتى أعيتهم الحيل وفشلوا فشلا ذريعاً في فصم عرى محبة جمعها الاسلام و باركتها يد الله.

أذكر ذلك اليوم الذي جاءني فيه أحد الأعراب من أصدقاء الاخوان ليقول لي أن شيخ

العرب «فلان» جاءه وحمله رسالة إلينا مؤداها أن «م» ــ وهو شخصية عربية كبيرة تحتل مركزاً مدنياً هاماً في المنطقة ــ جاسوس لليهود، وأنه ــ أي «م» ــ متصل بقيادة القوات الاسرائيلية في الجنوب وأنه يبلغهم الأخبار أولاً بأول نظير وعود قطعها اليهود له بتعيينه حاكماً عسكرياً للمنطقة في حالة استيلائهم عليها.

وقال الأعرابي الصديق نقلاً عن «فلان» أن هناك اتصالاً سوف يتم بعد يومين في مكان محدد بين قائد إحدى المستعمرات وبين الشخصية الكبيرة.

ولقد كان الخبر مثيراً للغاية، لأنه يتعلق بشخصية لها خطرها في المنطقة، ولقد ذهبنا في الموعد المحدد لاستجلاء الأمر وإلقاء القبض على الشخصية الكبيرة أثناء تفاوضها مع اليهود، غير أننا لم نجد شيئاً، ولم تمض إلا أيام قلائل بعد هذه المحادثة، حتى إنكشف السر وظهر الخبيء، إذ إختفى «فلان» مصدر الرواية وصاحبها وعلمت أنه في إحدى المستعمرات وأن الرواية كلها مختلقة لا أساس لها. وليست إلا مناوره مدبرة أريد بها إشعال الفتنة بيننا وبين أهالي البلاد.

هذه الوسائل وأشباها مما لا يتسع المجال لسرده هي التي نجحت بعد ذلك في توسيع شقة الجفاء بين أهل البلاد والجيوش النظامية ووصلت بالعلاقات بين الحلفاء الأصدقاء إلى تلك الحالة المؤسفة من الشدة وعدم الثقة، والتي ترتب عليها ما ذكرته من استحالة التعاون بين الشعب الفلسطيني وحلفائه من جيوش العرب.

ولقد صارحني أحد قواد المستعمرات اليهودية في النقب وكنا نتفاوض معهم خلال الهدنة الأولى بشأن نقل بعض الجثث، فقال لي في مجال الحديث حول الحرب «لقد نجحنا في إخراج الشعب الفلسطيني من المعركة وهو الذي مارس قتالنا خلال أعوام طوال، أما أنتم أيها الغرباء فلن نأبه لكم ولن يصعب علينا إلقاؤكم في البحر متى جاء الوقت المناسب» وقد كان!...

الإخوان في النقب
«معركة كفار ديروم الأولى»

«كان الإخوان ينزعون ألغام اليهود
و ينسفونهم بها في صحراء النقب»

«المواوي في شهادته»

كثيراً ما يضع الإنسان لنفسه خطة يرتضيها و يسير عليها و يعتقد صوابها، ثم تأتي الحوادث بعد ذلك فتصرفه عن خطته فلا يملك إلا أن يسير في إتجاه آخر، وكثيراً ما يكون الإتجاه الذي يسلكه على الرغم منه صحيحاً حتى إذا اطمأن إلى صحته ووثق من صوابه، نظر إلى خطته التي خطها لنفسه وهنالك تبدو له عيوبها و يقف على كثير من مساوئها.

لم يكن الإخوان يعلمون عن المستعمرات اليهودية وتحصيناتها أكثر مما عرفته إدارة المخابرات في الجيوش العربية النظامية، فلقد هونت هذه المخابرات من شأن التحصينات اليهودية وقللت من اهميتها، حتى لقد قدرت إحداها مدة أقصاها ٧٢ ساعة ليفرغ جيشها من احتلال فلسطين كلها.

وحتى سمعنا أحد المسؤولين العسكريين في جيش عربي كبير يقول للوحدات العسكرية الزاحفة إنها ذاهبة في « نزهة عسكرية » إلى «تل أبيب» لا أكثر، وحتى يقطع على الضباط دهشتهم قال لهم : إن الناس في قريته حين يقيمون الافراح والليالي الملاح، يطلقون الرصاص في الهواء دليلاً لفرحهم وعلامة لابتهاجهم، وإن الأسلحة التي معكم تكفي جداً لهذه المهمة الهينة اللينة.

قال هذا الكبير المسؤول هذا الكلام أو معناه لوحدات جيشه الزاحف بينما كان كبير مسؤول في دولة عربية أخرى يقول لمراسلي الصحافة وهو يهم بإصدار الأوامر لجيشه ببدء

الزحف إن دخول الجيوش العربية كلها لم يكن في الواقع إلا لتقصير أمد الحرب وإنهائها بسرعة، ولما سأله الصحفيون عن مدى قدرة اليهود العسكرية قال لهم: إن فرقة واحدة من جيشه كفيلة بالقضاء على العصابات اليهودية وإلقائها في قاع البحر في مدة لا تتجاوز أسبوعاً واحداً.

لا شك أن العبارات التي فاه بها العسكريون المسؤولون عند بداية الحرب، والحوادث التي جاءت بعد ذلك، تدل على درجة مهارة المخابرات الحربية في الجيوش العربية، وعلى صحة المعلومات التي لديها عن نشاط الصهيونيين ومدى إستعدادهم.

ولو وقف الأمر عند حد هذه التصريحات الكلامية لقلنا إنها من باب التشجيع ورفع الروح المعنوية لدى المحاربين، ولكن الخطط العسكرية والطرق التي نفذت بها، والتدابير والأسلحة التي جابهنا بها العدو، كلها تدل دلالة واضحة على إستهتار بالغ بالعدو، وجهل مطبق بخططه وقوته، وتدل أيضاً على أن جيوشنا دخلت الحرب على أنها «نزهة عسكرية» فعلاً، وأن الأسلحة والذخائر لم تكن في الواقع إلا بالقدر الذي يكفي لإقامة الأفراح والليالي الملاح!

كان الإخوان في الفترة الأولى من الحرب يجهلون المستعمرات اليهودية وطرق تحصينها، فظنوا أن في مقدورهم مهاجمتها وإحتلالها رغم ما كانوا يعانونه من نقص في الأسلحة والمعدات، ولقد تمت المحاولة الأولى في الساعة الثانية من صباح ١٤ أبريل سنة ١٩٤٨ وكان الغرض منها إحتلال مستعمرات «كفار ديروم» المحصنة، وهذه المستعمرة وإن كانت صغيرة الحجم إلا إنها كانت مقامة في وضع بالغ الأهمية لقربها من الحدود المصرية ولوقوعها على طريق المواصلات الرئيسي الذي يربط مصر بفلسطين، وكان في إستطاعة حراسها أن يراقبوا الداخل والخارج، وأن يقطعوا هذا الطريق في أي وقت يشاؤون، وهم يختفون خلف أبراجهم المسلحة دون أن يتعرضوا لشيء من الأذى لذلك كله إهتمت القيادة اليهودية بهذه المستعمرة، وبالغت في تحصينها وإقامة الأبراج الشاهقة حولها، وإحاطتها بحقول كثيفة من الألغام والموانع السلكية الشائكة، ثم زودتها بعدد كبير من نخبة رجال «الهاجاناه» وفرقة «البالماخ» الفدائية.

هذا وصف موجز لهذا «الجيب» اليهودي الخطر الذي حاول الإخوان تطهيره واحتلاله،

ثم تلقوا على يديه درساً قاسياً، وكانت هذه المعركةَ هي نقطة التحول التي غيرت خطتهم وصرفتهم عن معاودة الهجوم على المستعمرات دون أن يملكوا المعدات اللازمة لهذا النوع من القتال.

هاجم الإخوان المستعمرة في وقت مبكر من صبيحة اليوم ونجحوا في المرور خلال حقول الألغام عبر ممرات أعدوها طوال الأسبوع الذي سبق المعركة، واجتازوا عوائق الأسلاك الشائكة، كل هذا تم بدقة وسرعة دون أن ينتبه حراس المستعمرة لما يجري حولهم، ولم يفيقوا إلا على صوت إنفجار هائل أطاح بأحد مراكز الحراسة، ثم بدأت المعركة داخل الخنادق وعلى الأبراج و «الدشم».

وأبدى الإخوان في هذه المرحلة من ضروب البطولة والفدائية ما لا يمكن حصره وتصويره، واستطاع اليهود أن يسدوا الثغرات التي أحدثها المجاهدون في دفاعات المستعمرة، ثم حاصروا القوة الصغيرة التي نجحت في التسلل إلى أوكارهم ومضوا يحصدونها ببنادقهم ورشاشاتهم.

وهكذا فشلت المحاولة الأولى ومضى الإخوان يحملون شهداءهم وجرحاهم وكان عددهم يربو على العشرين، وانتهت المعركة على هذه الصورة المؤسفة ولكنها ظلت مثلاً فريداً للبطولة والتضحية.

وظل الإخوان طوال فترة الحرب يتذاكرون المثل العليا التي سجلها المجاهدون فيها والتي أعادت للأذهان صوراً حية من جهاد الصدر الأول، فهذا أحدهم وهو المجاهد «محمد سلطان» من مجاهدي الشرقية، يزحف على بطنه حاملاً لغماً هائلاً وهدفه أحد مراكز الحراسة في المستعمرة ينتبه إليه الحراس وهو على قيد خطوات من هدفه، فيطلقون عليه رصاصات تصيبه في ذراعه، وتعجزه عن المضي في زحفه، ولكنه يتحامل على نفسه، ويزحف بصعوبة والدماء تنزف من جراحه. والرصاص يتناثر من حوله، ويظل يجاهد بعناد حتى يقترب من هدفه فيشعل اللغم فينفجر، ويدمر مركز الحراسة، ويقضي على البطل الفذ، ويمضي ليلاقي ربه شهيداً.

وهذا المجاهد «عبد الرحمن عبد الخالق» يقود إحدى جماعات الاقتحام في المعركة ويستمر في قتاله الرائع رغم أوامر الانسحاب التي صدرت إليه، فيقول كيف ننسحب

وإخواننا في داخل المستعمرة؟ ثم يذكر من معه قول الله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار» ، و يظل يقاتل بشدة حتى تصيبه رصاصة قاتلة في رأسه لتضع اسمه في عداد الشهداء الخالدين.

وهذا مجاهد آخر هو، «عمر عبد الرؤوف » تصيبه رصاصه في صدره فتبدو على وجهه إبتسامة مشرقة، ويهتف بمن حوله «أترون ما أرى؟ ثم يأخذ نفساً طو يلاً، و يقول هذه هي الجنة ... إنني أراها ... وأشم رائحتها» ، ثم يلفظ أنفاسه الطاهرة، ليمضي إلى جنة ربه الموعودة.

ولكل شهيد من شهداء هذه المعركة قصة في البطولة لا يزال إخوانهم الأحياء يرددونها بمز يد من الإعجاب والتقدير.

إنتهت هذه المعركة وخرج الإخوان منها بنتيجة واحدة، فهموها وظلوا يعملون على أساسها، طوال الفترة التي قضوها في فلسطين، فهموا أن مهاجمة المستعمرات اليهودية بهذا النقص الواضح في الأسلحة والمعدات هو انتحار محقق، وفهموا كذلك أنهم لم ينجحوا إلا في حرب عصابات ينزلون فيها الضربات على خصومهم خارج هذه المستعمرات دون التعرض لحصونهم واستحكاماتهم.

ولقد قلت للإخوان عقب هذه المعركة مباشرة: «إن اليهود أقو ياء في هذه الحصون والأبراج، فلن نهاجمهم فيا بعد اليوم، ولكننا سنغير على قوافلهم ونضطرهم لقتالنا في الأرض المكشوفة» وعلى هذه الطر يقة بدأ الإخوان ينظمون أنفسهم في عصابات صغيرة ترابط على طرق المواصلات وتهاجم شبكات المياه ومراكز التموين، حتى اضطر اليهود إلى إخراج كثير من قواتهم لحراسة المواصلات والقوافل، فاستطاع الإخوان بذلك أن يوقعوا بهم ضربات حاسمة سر يعة، وأن يغنموا منهم كميات وفيرة من العتاد والسلاح.

لقد قدر لي أن أشهد «معركة كفار ديروم» وأن أتولى قيادتها بعد أن جرح قائد السر ية «يوسف طلعت» وتقرر اخلاؤه من الميدان، وقد حتمت عليَّ هذه المسئولية أن أبقى وراء تل صغير مجاور لأسلاك المستعمرة حتى أطمئن على انسحاب آخر جندي من قوتنا الصغيرة، وحين بدأت أغادر مخابىء الأمن زحفا إلى خطوطنا تعرضت لضرب مركز بالرشاشات اليهودية التي كانت مسلطة من الأبراج الشاهقة، ولما كانت الأرض التي ازحف عليها

منبسطة تماماً فإن عدم اصابتي تدخل في باب المعجزات والخوارق ولا زلت أذكر حتى هذه اللحظة التي اسطر فيها هذه المذكرات مئات الطلقات النارية التي كانت تئز حولي كطنين ذباب متوحش وتصطدم بالصخور والأتربة حول رأسي لدرجة أيقنت معها انني لا يمكن أن أفلت من القتل فقررت أن أبقى حيث أنا متظاهراً بالموت، وفعلا أسلمت أمري لله وسمحت لاعضائي أن تمسك عن الحركة تماماً و يبدو أن هذه الحيلة قد جازت على جنود العدو فكفوا عن تركيز الضرب على شخصي ، وكان مما ساعد على ذلك أن بعض جثث الشهداء كانت مطروحة بجانبي وليس هناك ما يدل على أن حالتي تختلف عن حالاتهم، ولقد بقيت على هذه الحالة ساعات طوالاً حتى جاءت السيارات البريطانية المصفحة ــ وكانوا لا يزالون في هذا الجزء من فلسطين ــ ليفرقوا بين المتحاربين فواصلت الزحف إلى محطة دير البلح العربية لأشهد دفن رفاق السلاح الذين سقطوا صباح ذلك اليوم المشئوم.

ولقد حاولنا بعد أسابيع قلائل أن نقدم تجربتنا مع «كفار ديروم» إلى البكباشي أحمد عبد العزيز حين أراد أن يجرب حظه معها ولم يكن لديه من الأسلحة والمعدات ما يصلح لهذه المهمة ولكنه رفض وجهة نظرنا وأمر سراياه بالهجوم عليها وفق خطة وضعها بنفسه وكانت تلك هي المرة الثانية التي حاول فيها الإخوان المسلمون اقتحام كفار ديروم دون نجاح سيرد بيانه في موضع قادم.

إن تجربتنا مع «كفار ديروم» يمكن أن تكون مثالاً لمحاولات أخرى قامت بها قوات عربية ضد المستعمرات اليهودية المنتشرة في فلسطين ومن المهم أن نذكر أن تلك المحاولات كانت على الأغلب تنتهي بالفشل، ويمكن أن نرد ذلك إلى أسباب عديدة أهمها هو تحصين المُستعمرات بالأسلاك الشائكة والألغام الأرضية والأبراج التي تتيح للمدافعين مجال الرؤية والرماية على مسافات طويلة، وكذلك وجود نظام دفاعي قوي يسمح باستمرار المقاومة حتى بافتراض أن المهاجمين نجحوا في إختراق العوائق واحتلال أجزاء من المستعمرة كما حدث بالنسبة لتجربتنا مع كفار ديروم، يضاف إلى ذلك أيضاً أن هذه المستعمرات تعتبر ــ وحدة دفاعية ــ كاملة بمعنى أن الخطة الاسرائيلية العامة قد وضعت نظاماً للتموين والامدادات يسمح لها أن تصمد لوقت طويل في فترات الحصار والعزل، ولابد لي أن أعترف أن التدريب العالي لوحدات المستعمرات اليهودية وقدرتهم على الصمود في الظروف

الصعبة هوعنصر هام في جعل هذا النظام الدفاعي نظاماً صالحاً وعملياً.

و يدفعني لهذا قناعة شخصية تكونت من التجربة والمراس بأن نظام المستعمرات اليهودية كقلاع محصنة في حالة الدفاع، وكمناطق تجمع في حالات الهجوم سيظل عقبة عنيدة أمام أي هجوم عربي في المستقبل، ولما كان هذا النظام المبتكر يطبق لأول مرة في الحروب الحديثة ــفيما أعلمــ فإن العسكريين العرب مطالبون بالتفكير فيه لاختيار الأسلحة والتكتيكات الملائمة، ولست هنا في مقام الإفاضة في هذا الموضوع ولكنني أريد أن ابرز هذا التحدي الذي صادفنا في الجولة الأولى ولم نكن نعلم به من قبل لعلنا نجد له الجواب الملائم فيما ينتظرنا من جولات.

قلنا أن تجربتنا مع كفار ديروم قد انتهت بنا إلى اننا ــلظروف تدريبنا وعددنا واسلحتناــ لم نستطع أن نهاجم المستعمرات المحصنة وان خطتنا المقبلة كانت ستتضح في أكثر من مكان من هذه المذكرات:

أولاً ــ استدراج سكان المستعمرات للأرض المكشوفة وإرغامهم على القتال فيها.

وثانياً ــ فرض الحصار والعزل على المستعمرات وإرهاقها بأعمال الازعاج والقناصة ولقد سلكنا لتحقيق هذين الهدفين سبلاً شتى منها قطع طرق المواصلات وإقامة الكمائن ونسف انابيب المياه وضرب المشاريع والمنشآت المنعزلة، وكان طبيعياً أن ينظم العدو غارات على مراكزنا المتقدمة في النقب وكانت تلك هي الفرصة التي نريدها ونهدف إليها، ومع هذه الحركات أصبح النقب الجنوبي في مثلث واسع قاعدته تمتد من غزة إلى رفح ورأسه عند بئر السبع ميداناً لمعارك مستمرة ليلاً ونهاراً، وكنا سعداء بهذه «الحرب الخاصة» التي كانت كثيراً ما تبدو وكأنها معزولة عن الحرب الواسعة وقليلاً ما تتقيد بما طرأ عليها من قيود والتزامات كقرارات الهدنة ووقف إطلاق النار.

أما عن مستعمرة كفار ديروم فقد ألزمناها بحصار محكم وإزعاج مستمر طيلة بضعة شهور، ولست أشك أن سكانها تعرضوا لأنواع شتى من الضيق والآلام ولكنهم صمدوا بشجاعة حتى اضطروا لإخلاء المستعمرة في منتصف يوليوعام ١٩٤٨، وكان ذلك نجاحاً بارزاً لخطتنا التي تقوم على الحصار من ناحية والاستدراج للأرض المكشوفة من ناحية أخرى، وقد شجعنا نجاح الحصار على كفار ديروم إلى فرض حصار مماثل على مستعمرات

أخرى مثل «نيريم» و «بيرون اسحاق» أو «المشبة» كما يسميها البدو، ولقد حاول العدو في مناسبات عديدة اختراق الحصار بواسطة القوافل المصفحة ولكن النظام الذي وضعناه للانذار المبكر عن طرق حلفائنا من البدو كان يمنحنا وقتاً كافياً للاستعداد وتحضير الكمائن وبث الألغام على طرق المواصلات، وفي مرات كثيرة كانت قوافل العدو تقع في هذه الكمائن وتكون سياراتها وأسلحتها وشحنات تموينها غنائم ثمينة كنا في أكثر الأحيان نقدمها هدية لأصدقائنا البدو. ولا شك أن هذه المعارك العديدة قد ساعدتنا على تطوير أساليبنا وابتكار وسائل جديدة حسب الظروف، وحين أيقن العدو أن لا أمل له في إختراق الحصار على المستعمرات التي نحاصرها ولا سيما كفار ديروم، لجأ إلى إنزال الإمدادات بالمظلات ولكن نيراننا الأرضية وضيق مساحة المستعمرة كانت تجعل عملية الإنزال غير محكمة وهكذا كانت الصناديق تنزل على رجالنا وعلى العشائر البدوية المجاورة وكأنها موائد مباركة من السماء!! ولكن هذا الحصار لم يؤت نتائجه المرجوة في احتلال تلك المستعمرات فيما عدا كفار ديروم لأن أكثرها لم تكن معزولة تماماً عن المنطقة اليهودية كما أن الجيش المصري لم يلبث أن تصدع تحت الهجوم اليهودي الشامل مما جعل استمرار الحصار للمستعمرات أمراً غير عملي وغير مجد.

الإخوان يقومون بحرب العصابات

«الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة
قوم فساء صباح المنذرين.»   محمد رسول الله

قد يظن البعض أن حروب العصابات، أو الحروب غير النظامية بصفة عامة، هي أعمال فوضوية لا هدف لها ولا نتيجة من ورائها، وأود قبل أن أبين الدور الذي قام به الإخوان حين إشتغالهم بهذا النوع من القتال، أن أوضح بإيجاز ما هي حرب العصابات ومدى تأثيرها على النتائج العامة للحروب.

فالواقع أن هذا النوع من القتال، لا يمكن أن يقوم به إلا رجال يؤمنون إيماناً عميقاً، بعدالة الفكرة التى يحاربون من أجلها، ولضمان النتائج الحاسمة يجب أن يكون هؤلاء الأفراد على مستوى رفيع من التدريب والذكاء، ذلك لأنهم يتعرضون في قتالهم، إلى كثير من المآزق الخطرة، ولأن مهمتهم الأساسية هي محاربة العدو في أرض تحتلها قواته، ليثير الرعب والفوضى في مؤخرته، و يقومون بهجمات خاطفة على طرق مواصلاته و يدمروا ما تقع عليه أعينهم من أسلحة ومعدات.

ويمكن تلخيص النتائج التي تطلب من رجال العصابات على الوجه الآتي:

أولاً : إنزال الخسائر بالعدو دون الاشتباك معه في معارك مباشرة.

ثانياً : إرغام العدو على تشتيت قواته وتخصيص جزء كبير منها لمطاردة هذه العصابات ومكافحتها.

ثالثاً : إرغامه على حراسة منشآته وطرق مواصلاته حراسة قوية وفي هذا ما يبعثر قوته ويجعله في قلق دائم.

رابعاً : إثارة العناصر الوطنية ضد قواته والتعاون معها وتسخيرها لتسقط الأنباء والتحركات ومعرفة الأهداف العامة، كمراكز التموين ومناطق الحشد.

تلك هي خلاصة الواجبات التي تناط برجال العصابات، وسنرى بعد قليل مدى النجاح الذي أحرزه الإخوان في خططهم الجديدة على ضوء هذه المعلومات.

وإن الباحث في التاريخ يجد أن كثيراً من الحروب لم تحسمها الجيوش المنظمة إلا بمعونة العصابات، وقد عرف التاريخ الإسلامي هذا النوع من القتال في «السرايا» التي كان يبعثها الرسول صلى الله عليه وسلم لتجوب أنحاء الجزيرة لقطع تجارة العدو، وإثارة الرعب في قلوب القبائل الموالية له، وفي الحرب العالمية الأولى نجحت العصابات العربية التي قادها أنجال الشريف «حسين» في إزعاج الجيوش التركية في ميادين الشرق العربي، وإرغامها على توزيع قواتها بين جبهات واسعة، حتى دخلت جيوش الحلفاء بقيادة «اللنبي» وأنزلت بها الهزيمة النهائية.

وفي الحرب العالمية الثانية تحطم كثير من الجيوش الأوروبية تحت ضربات الجيش النازي. ولجأ قادة الدول المحتلة وزعماء الحركات التحريرية بها إلى حروب العصابات يزعجون بها قوات الاحتلال الألمانية، ويغيرون على مراكز حشدها ويقتلون ضباطها وأفرادها، حتى اضطرت القيادة العليا الألمانية إلى التخلي عن كثير من المناطق ــ حيث احتلها رجال العصابات ــ والاحتفاظ بالمراكز الهامة، وظلت هذه العصابات تعمل بنشاط حتى أصبحت شوكة حادة تهدد ظهر الجيوش الغازية، وكانت سبباً مباشراً للهزائم التي لحقت بالنازيين تحول ميدان القتال إلى القارة الأوربية. وهكذا نجحت العصابات في تحرير بلادها وطرد الغاصبين من أرضها، وكانت خير معوان لجيوش الحلفاء المنظمة التي قامت بعمليات التحرير في أوربا بعد ذلك.

ولقد استخدم اليهود هذا النوع من التكتيكات. وأدخلوا في حسابهم دخول الجيوش النظامية فشكلوا قواتهم على أساس حروب العصابات وأخذوا يغيرون على مراكز الجيوش العربية ويوقعون بها الضربات دون أن يثبتوا أمامها في معركة مباشرة.

ولما لعبت السياسة الاستعمارية دورها في فلسطين، وتوقفت الجيوش العربية بمقتضى قرارات الهدنة ووقف القتال أخذ اليهود يقاتلون كجيش منظم يرمي لكسب الأرض

والدفاع عنها بجانب ما تقوم به العصابات الإرهابية من معونة صادقة للقوات النظامية، خاصة خلال الهدنة، وتكون الحجة دائماً أنها عصابات غير نظامية لا سلطان لحكومة إسرائيل عليها، وقد رأينا كيف استطاعت هذه الحكومة أن تتنصل من اغتيال الكونت برنادوت وسيط هيئة الأمم بينما ألقت الوزر كله على عصابات إرهابية متمردة!

لا شك أن حربنا في فلسطين كانت تحتاج إلى هذا النوع من التشكيلات لتعمل جنباً إلى جنب مع القوات النظامية، وكان المفروض أن يقوم الشعب الفلسطيني بهذا النوع من القتال، لولا عوامل الشك وعدم الثقة المتبادلة التي بذرها العدو، وجنت الجيوش العربية نتائجها.

وحين دخلت القوات غير النظامية التي شكلتها الجامعة العربية باسم «جيش الانقاذ»، وتركت مهمة قيادتها للقائد العربي «فوزي القاوقجي» كان من الواجب أن تقوم بهذه المهمة الخطيرة، فتتعقب العصابات الصهيونية، وتغير على مراكز الجيش الاسرائيلي. بينما تحتل الجيوش النظامية المدن والمراكز الهامة وتكون عصاباتنا في هذه الحالة كعصابات اليهود غير مقيدة بقرارات الهدنة ووقف القتال.

وما يقال عن قوات القاوقجي يقال عن جيش التحرير والجهاد المقدس. وأفواج المناضلين العرب، وأخيراً القوة «الخفيفة» التي تولى قيادتها الشهيد أحمد عبد العزيز. ولكن هذه القوات كلها خلطت بين عملها الأساسي الذي كان يمكن أن تنجح فيه، ومضت تدافع عن القوى العربية وتشغل نفسها بالهجوم على المستعمرات المحصنة دون جدوى.

أما القاوقجي فقد استدرجه اليهود إلى أن ظفروا بقوتة وأنزلوا به الضربة القاصمة عند «مشمار هاعيميك» وبذلك انتهى أمره وتبعثرت قواته. وأما الشهيد أحمد عبد العزيز فقد حاول مهاجمة المستعمرات حتى استقر أخيراً في جبال الخليل تحولت قوته لقوة نظامية تدافع عن منطقة محدودة.

وأود أن أصل إلى غايتي من وراء هذا البحث أن أناقش رأياً يقول به البعض. وهو أن دخول الجيوش العربية لفلسطين كان بداية الكارثة التي أحاطت بها. وأن فلسطين لم تكن في حاجة إلا لعصابات تعمل بحرية ولا تتقيد بقرارات مجلس الأمن وهيئة الأمم. والواقع

أن هذا الرأي لم يظهر إلا عقب الهزائم التي منيت بها الجيوش العربية. التي ثبت أن من بعض أسبابها خضوع هذه الجيوش لقرارات مجلس الأمن بوقف إطلاق النار، خاصة في هدنة الأسابيع الأربعة حيث تمكن اليهود من جلب الكثير من الأسلحة ومعدات الحرب التي لم يكن لها وجود لديهم قبل هذا التاريخ.

والرد على هذا الرأي «أن العصابات لا يمكن أن تقاتل عصابات مثلها وتنتصر عليها» وأن العصابات لا يمكن أن تحسم الحرب بمفردها ولكنها كانت ولا تزال دائماً سلاحاً خطراً لو سارت في ركاب جيش منظم وأحسن تدريب أفرادها وقيادهم. فيحتل الجيش المنظم المدن والمراكز و يتولى الدفاع عنها بينما تقوم العصابات المدربة بتحطيم قوى العدو ومهاجمة وحداته وطرق مواصلاته.

وإذن فلم يكن هناك مفر من دخول الجيوش العربية لتحقيق الهدف الذي حاربنا من أجله، ولكن الخطأ أولاً وآخراً، في عدم استعداد هذه الجيوش إستعداداً يكفل لها أداء مهمتها. والخطأ بعد ذلك خطأ الزعماء السياسيين الذين لم يدخلوا في حسابهم هذه الهيئات الدولية ومدى خضوعهم لها. أما دخول الجيوش نفسها فلا غبار عليه ولا مفر منه ولا يمكن أن تحسم الحرب بدونه. لا في الماضي ولا في المستقبل إذا أردنا حقاً أن نعاود الكرة لتحرير الأرض المقدسة.

قلنا إن الدرس الذي استخلصه الإخوان من معركة «ديروم» الأولى أن يشرعوا في تنظيم حرب عصابات تشمل صحراء النقب كلها. ولقد باشروا تنفيذ هذه الخطة ومضوا يخرجون في عصابات قوية تدمر شبكات المياه وتنصب «الكمائن» على طرق المواصلات، حتى استطاعوا تدمير عدد كبير من المصفحات والسيارات.

ولقد حدث مرة أن قامت قوة منهم بقيادة المجاهد «حسن عبد الغني» بتدمير شبكات المياه بين مستعمرتي «بيري» و«أتكوما» وأباحت أنابيب المياه لأعراب المنطقة ينتزعونها من الأرض تحت حراستهم، حتى نزعت من الأنابيب مساحات شاسعة، ثم رابطت في المنطقة، لتمنع العدو من إصلاحها، وصبر اليهود يومين عسى أن تنصرف لشأنها، ولكن القوة العنيدة ظلت تواصل تدمير الأنابيب ونزعها والتعرض للمصفحات والقوافل التي تحاول إصلاحها، فلم تجد القيادة الإسرائيلية بدأ من الدخول في معركة مباشرة، فجمعت عدداً

كبيراً من المصفحات من جميع المستعمرات. وأحاطت القوة الصغيرة من جميع الجهات، وأخذت تقترب منها على أمل أن تظفر بها. وثبت الإخوان ثباتاً عجيباً، وأوقعوا في اليهود عدداً من القتلى قبل أن يبعثوا في طلب النجدات من معسكراتهم.

وجاءت مصفحات الإخوان وأقامت حول مصفحات العدو الذي سقط في يده حين رأى نفسه محصوراً بين نارين، فاضطر إلى طلب نجدات أخرى من المستعمرات القريبة، وامتلأ ميدان المعركة بقوات كبيرة من الجانبين. واشتد القتال بين الفريقين شدة لم يسبق لها مثيل، حتى يئس العدو من زحزحة الإخوان عن موقفهم، فأخذ يطلق سحباً من الدخان ليستر انسحابه، وما كادت أطباق الدخان تنجاب عن ميدان المعركة حتى سارع الإخوان يجمعون غنائمهم من السلاح ويعودوا لتدمير الأنابيب من جديد.

وأيقن اليهود أنه لا قبل لهم بمواجهة هذه القوات المتفانية في حرب شريفة، وحاولوا تسميم آبار يستعملها الإخوان في منطقة «خزاعة» حيث كان المجاهد «نجيب جويفل» يرابط بها بسريته.

ولكن عين الله المبصرة ويقظة الإخوان مكنتهم من اكتشاف الجريمة قبل وقوعها، وذلك أنهم لمحوا رجلين يرتديان الملابس العربية ويتظاهران باستجلاء الماء، وكان منظرهما يدعو إلى الريبة، فاقترب منهم الجندي الحارس وأمرهما بالوقوف، فلاذا بالفرار، فتعقبهما الجندي الحارس وعدد من إخوانه حتى ادركوهما ولم يبق بينهما إلا خطوات، وأمروهما بالتسليم مهددين إياهما بإطلاق النار، فرفعا أيديهما بالتسليم، وحين اقترب الإخوان منهما إنبطحا على الأرض في سرعة، وقذفا على المهاجمين عدداً من القنابل اليدوية، وأسرع الإخوان بملاصقة الأرض ثم أطلقوا عليهما النار فأردوهما قتيلين.

وبلغت النقمة من الإخوان من هذا الغدر أن حملوا الجثتين إلى مستعمرة «نيريم» وهناك على مقربة من العدو نضحوا الجثتين بالبترول وأشعلوا فيهما النار على مرأى جيد من المستعمرة.

وجن جنود اليهود وأخذوا يلوحون بايديهم في غضب وانفعال وحين جن الليل هاجموا مواقع الإخوان في « خزاعة» انتقاما لهذا الحادث. ولم يتمكنوا من زحزحة الإخوان أو إبادتهم، وإن كانوا قد نجحوا في قتل أحد المجاهدين الأبرار، وذلكم هو المجاهد الشهيد

«عيسى اسماعيل» من إخوان الشرقية الكرام.

وهكذا نجحت الخطة الجديدة، ولم يعد الإخوان في حاجة إلى معاودة الهجوم على المستعمرات المحصنة والتعرض لنيرانها وحصونها ذلك لأن اليهود قد اضطروا إزاء هجمات الإخوان الموفقة على قوافلهم وطرق مواصلاتهم إلى تعيين دور يات ميكانيكية وقوات كبيرة من المشاة لحراسة تلك الطرق والمنشآت وحمايتها أمام تلك الهجمات، ولم يكن الإخوان ليضيعوا الفرصة الثمينة، فأخذوا يغيرون على هذه القوات المبعثرة في الصحراء و يرغمونها على القتال إرغاماً، حتى تحولت تلك المنطقة إلى ساحة حرب قوية ولم يكن يمر يوم في تلك الفترة دون أن تنشب معركة عنيفة تنتهي حتما بقتل عدد من جنود الأعداء وتدمير عدد آخر من مركباتهم ومدرعاتهم.

ولقد حاولت القيادة اليهودية أكثر من مرة القضاء على هذه العصابات وتطهير المنطقة منها، فكانت ترسل عدداً كبيراً من قواتها، وكان هذا أقصى ما ير يده الإخوان فيستدرجونها إلى المناطق الوعرة ويحاصرونهم في الشعاب والوديان.

وإذا نظرنا إلى هذه الفترة، نجد أن الإخوان قد وصلوا إلى نتيجتين لم يكونوا يستطيعون الوصول إليها بدون هذه ألاعمال العصابية، فالنتيجة الأولى هي خروج اليهود من مستعمراتهم وحصونهم لمقاومة عصابات خفيفة محصنة، في بطون الشعاب والوديان، والنتيجة الثانية أن الإخوان استطاعوا الحصول على كثير من الغنائم والمعدات التي لم يكونوا يملكونها كالمصفحات الضخمة والاسلحة الرشاشة البعيدة المرمى، هذا عدا أنواع مختلفة وكميات كبيرة من الذخائر والقنابل.

وكان الواجب يحتم علينا منذ شرعنا في تنظيم حرب العصابات أن نتعاون مع أعراب المنطقة، غير أن الاشاعات التي كانت الدعاية اليهودية ترددها عن خيانة هؤلاء البدو ومدى تعاونهم مع العدو قد وقفت سداً منيعاً دون ذلك التعاون المنشود، ولم نكن نستطيع العمل في هذه المناطق دون أن نتبين مدى صحة هذه الاشاعات . ودون أن نحيل بدو هذه المنطقة إلى قوة متعاونة معنا على الهدف والغاية. ولقد قمنا بمحاولات كبيرة إزاء هذه المشكلة أثبتها في هذا البحث كأساس لما جنيناه من نتائج.

بعثنا عدداً من دوريات الاستكشاف، وذهبت بصحبة الاخوان المسئولين أكثر من مرة، فخيل إلينا أن هناك شبه تعاون فعلا بين اليهود وبدو تلك المناطق. فهذه المصفحات اليهودية تنتقل بين المستعمرات بحرية وأمان، وتمر على خطوات من مضارب البدو وخيامهم دون أن يتعرضوا لها بشيء من الأذى، ولم تمض إلا أيام حتى فهمنا السبب ــ فبطل العجب ــ وعلمنا أن الخطأ يقع علينا لا على هؤلاء البدو.

كان اليهود يسترضونهم بشتى السبل ويحيطونهم بكثير من صنوف الرعاية والإغراء، فهذه انابيب المياه تصل إلى خيام البدو، والماء عند البدو ضرورة عزيزة المنال، يسير من أجله ساعات طويلة على جمله ليحصل عليه، فإذا كان اليهود يمدونه به حتى خيمته فذلك جميل ما بعده جميل، وهاهم قواد المستعمرات اليهودية يضيفون البدو، في خيامهم ويسامرونهم ويأكلون عندهم «العيش والملح» ويشاركونهم الأعياد والأفراح.

ولا أنكر أن بعض القبائل الأخرى كانت في حالة حرب مع اليهود من اليوم الأول لهذه الحركات، ولكن هذا لا يمنع من تصحيح هذه الأوضاع الفاسدة، فبدوي واحد ممالىء لليهود، يحدث ثغرة عميقة في خطط الدفاع ويكون أخطر من كتيبة معادية تقاتلنا وجهاً لوجه.

لا بد أن تصحح هذه الأوضاع ليعلم البدوي حقيقة هؤلاء الأصدقاء الألداء، ولقد جربت البدو بنفسي فوصلت الى نتيجة آمنت بها إيماناً عميقاً، تلك هي ان البدوي لا ينقصه الإيمان بقضيته والتعلق بوطنه، ولكنه في هذه الحالة، مضطر لسلوك هذا المسلك، فليس لديه السلاح الذي يواجه به قوى اليهود الموزعة في كل قطعة من وطنه، وهو في حالة من الفقر لا تسمح له بشراء الأسلحة وقد كانت تساوي مالاً كثيراً في ذلك الحين، ولا توجد على مقربة منه قوات عربية منظمة تستطيع أن تدفع عنه العدوان، وتحمي أولاده وغنمه من هجمات العدو الغادرة.

وإذن فليس الذنب ذنبه، ولكن الجرم يقع على تلك الفئة التي وضعتها الظروف في موضع القيادة من هذه الحرب، والذنب بعد ذلك يتركز في الزعامة الشعبية التي لم تكن تكلف نفسها مشقة التجول بين هؤلاء الأعراب وتنظيم حركة المقاومة في مناطقهم وتلقينهم ما يجب عمله إزاء هذه الحالة.

فعلى الذين يتهمون البدو بالخيانة، أن يتهموا أنفسهم بالتقصير والتضليل، وإذا قارنا بين جهل البدوي المطبق وبين علمهم ومسؤولياتهم وعظم التبعة المعلقة في أعناقهم أمكننا أن نحدد التهمة وأن نضع الأمور في نصابها الصحيح.

أما الذي صنعناه نحن لتصحيح هذا الوضع وإثارة اعراب المنطقة فقد كان من البساطة والسهولة بحيث لا يحتاج الى كثير من التفكير والتدبير، ذلك اننا أوعزنا الى بعض شباب الإخوان أن يتسللوا في ظلمة الليل ويبثوا الألغام على الطرق اليهودية القريبة من مضارب البدو دون أن يفطن أحد الى وجودهم ففعلوا، وانفجرت الألغام في إحدى القوافل اليهودية ولم يكن العدو في حاجة الى التفكير ليعلم أن هؤلاء البدو هم واضعوها أو على الأقل مشتركون في وضعها، فأخذوا يطلقون عليهم النار بلا حساب وكانت قوة من الاخوان مستعدة على مقربة من هذه المنطقة فأغارت على مؤخرة اليهود، وكان طبيعياً أن ينحاز العرب الى عرب مثلهم، وأخذوا يشاركوننا في قتال اليهود حتى أرغموهم على دخول المستعمرات.

وهكذا نجحت الخطة وتحولت هذه القبائل من ذلك الحين إلى قوة معادية لليهود. وعرف الاخوان كيف يستغلون ذلك. فجندوا عدداً كبيراً من شباب القبائل وأخذوا يدربونهم على استعمال السلاح حتى إذا أتموا تعليمهم وكلوا إليهم الأعمال الخطرة. والبدوي بطبيعته مقاتل قوي البأس فوق ما يتمتع به من مزايا تجعله بارعاً في الإخفاء والتمويه. ولقد أظهر هؤلاء الأعراب بعد ذلك إيماناً قوياً وتفانياً في العمل وكان لهم ابعد الأثر في نجاح العمليات الخطرة التي اضطلع بها الاخوان بعد ذلك.

ولقد أصبحت هذه القبائل لا تكلفنا إلا شيئاً يسيراً من الذخيرة. وأفراد من الاخوان يوجهونهم وينظمون حركاتهم. ولقد تداول على قيادتهم عدد من خيرة شباب الاخوان. ممن أبلوا بلاءاً حسناً وأظهروا كثيراً من الشجاعة والمقدرة أذكر منهم المجاهدين (نجيب جويفل) و (حسن عبد الغني) و (علي صديق) وغيرهم ممن تركوا آثاراً باقية، وذكريات طيبة، ولا يزال رجال القبائل حتى اليوم يمتدحون سيرتهم ويمجدون ذكراهم.

وحين تشعبت اعمال الاخوان واتسعت الجبهات التي يحاربون فيها. وزادت القيود التي فرضتها الحكومة لمنع دخول المجاهدين من مصر. اضطررنا لتشكيل مجموعات منظمة من

رجال القبائل وفتحنا باب التطوع. فانهال جموع كبير من شبابهم. وفعلا تشكلت منهم عدة (سرايا) وتركنا مهمة تدريبها واعدادها للأخ (نصر الدين جاد) الذي بذل جهداً مشكوراً، في تنظيمها، حتى صاغ منها قوة مقاتلة استطاعت أن تثبت وجودها وأن تشترك في معارك الاخوان الكبرى و يكون لها أثر كبير في نتائجها العامة.

ولم نترك هذه القبائل لمصيرها بعد أن وصلنا لأقصى ما نريد من نتائج في هذه المنطقة. فأقمنا في منطقتهم موقعاً (حصيناً) للغاية واخترنا لاقامته تلاً مرتفعاً يشرف على مساحات كبيرة من الأرض. وأحطناه بالأسلاك والألغام. وزودناه بالاسلحة والعتاد. وكان ضباط الاخوان يتداولون قيادته بنظام و يشرفون منه على تنظيم دوريات مسلحة تخرج بمعونة البدو وتتعرض لقوافل التموين اليهودية وتضطرها للدخول في معركة معها. تنتهي حتماً بتدمير غالبية وحداتها وقتل كثير ممن فيها. وتكررت هذه العمليات حتى روع اليهود وصمموا على محو هذا الموقع وتدميره فهاجموه بمصفاحاتهم أكثر من مرة غير أنهم لم يفلحوا في إقتحامه كما كانوا يقدرون.

ومما يدل على مدى اهتمامهم به وإصرارهم على احتلاله ذلك الهجوم الذي شنوه صبيحة يوم ٧/١٩ وحشدوا له قوات كبيرة من جميع المستعمرات القريبة ومهدوا لهجومهم بضرب شديد من مدفعيتهم ثم تقدموا تحت حماية المصفحات، واستطاع الاخوان أن يحيطوا بهم وسط التلال المتناثرة على مقربة من خربة «أبو معيلق»، و يوقعوا بهم هزيمة فادحة الخسائر، و يرغموهم على التقهقر بعد تدمير عدد من المصفحات، نظير شهيد واحد خسره الاخوان هو المجاهد «سيد حجازي»، وعدد من الجرحى منهم قائد الموقع في تلك الفترة المجاهد «محمد الفلاحجي» من إخوان الدقهلية.

لقد كان هذا الموقع بمثابة صورة بدائية لمستعمرة محصنة، وكان الهدف منه ــ كما أسلفنا ــ هو تثبيت القبائل البدوية في أماكن سكناها حتى لا تهاجر تحت عامل الخوف فتصبح المنطقة كلها تابعة لليهود دون قتال، ولقد كنت شديد الاهتمام بقضية إبقاء العرب في النقب اعتقاداً مني أن جلاءهم عن أراضيهم وفرارهم يعني تسليمها للعدو و يعني أن تمتد رقعة المستعمرات و يصبح بامكان الوحدات الاسرائيلية فيها أن تنتقل بحرية وأمان وأن تتجمع قواها لتساهم في المعارك الرئيسية ضد الجيش النظامي، ومن المؤسف حقاً أن

القيادة المصرية لم تشاركني هذا الاهتمام بمصير القبائل العربية في النقب ولم توافق على منحي الاسلحة والأموال اللازمة للتوسع في هذا البرنامج، ولكنني كنت مقتنعاً لدرجة أنني غامرت بأفراد قلائل من الاخوان أرسلتهم ليعيشوا مع البدو في مضاربهم ليدربوهم على استخدام الاسلحة والألغام والمتفجرات، واعتبرنا كل قبيلة بمثابة موقع جديد لنا حتى أصبح لدينا عشرات المواقع باسم القبائل العديدة القاطنة في الصحراء، وكانت هذه المواقع ترتبط مع قيادتنا في «البريج» بأجهزة اللاسلكي وخطوط التلفون، كما كانت دورياتنا المصفحة تجوب الصحراء في نظام دوري في الليل والنهار لتوصل الامدادات والتموين ولتحريك الوحدات البدوية لضرب الاغراض التي نحددها لها، وقد كنت اجد دائماً سعادة لا تعادلها سعادة حين أخرج مع هذه الدوريات لزيارة أصدقائي المشايخ والوجهاء ولأسمر معهم على فناجين القهوة «السادة» وربما نتناول الثريد ولحم الضأن الذي ينهبه رجالهم يومياً من المزارع اليهودية المجاورة. ولقد حاولت مراراً متعددة أن أغري قيادة الجيش المصري باحتضان هذه الفكرة ولكن النظريات التقليدية للحرب، كانت تقف حجر عثرة أمام التفاهم على هذه القضية، كانت وحدات الجيش المصري «مربوطة» على جانبي الطريق الساحلي من رفح حتى اسدود في شريط نحيل لايتجاوز في أوسع نقاطه عشرة أميال، أما الأرض المواجهة لهذا الشريط وهي في الواقع فلسطين كلها فكانت بالنسبة لهم أرضاً معادية، وقد ساعدت هذه النظرة الضيقة لأن تصبح كذلك لأن جميع العرب القاطنين فيها قد اضطروا لإخلائها تحت الإرهاب اليهودي وهكذا أصبح الجيش المصري يواجه مساحة شاسعة يملكها العدو الإسرائيلي ولا يبدو الشريط الساحلي أمامها إلا كخط بالقلم الرفيع على صفحة كتاب! وقد جاءت النتيجة المرة لهذه السياسة العاجزة حين خرجت الخطة الاسرائيلية من طور الدفاع إلى طور الهجوم، والتقت المستعمرات اليهودية في جيش واحد يندفع كالحراب المشرعة إلى الجيش المسمّر على الشريط الساحلي الضيق يقطعه ويطويه حتى يلقي به أخيراً أوصالا ممزقة أمام الحدود.

لقد حاولنا ــ كما أسلفت ــ أن نقنع الجيش بخطتنا لتثبيت السكان العرب في النقب دون جدوى، ولقد وضح لي الآن اننا والجيش كنا ننتمي الى عالمين منفصلين، أحدهما يقرأ كتب الحرب ويطبقها حرفياً والآخر يفهم الحرب ببساطة على انها البحث عن العدو لقتله

حيث يكون، أحدهما يعتبر أرض فلسطين هي ذلك الشريط الساحلي الضيق الذي تقف على جانبيه قواته دون حركة، والآخر يعرفها أرضاً واسعة تقع بين البحر المتوسط وخليج العقبة وكلها ميدان حرب مع العدو المعتدي، أحدهما ينتظر اليهود أن يهاجموه ليدافع عن نفسة على قدرالاستطاعة، والاخر يؤمن بالهجوم المستمر و بدون توقف، وهو خلاف قديم ظهر في حروب كثيرة بين العقلية المتزمتة التي تريد أن تخضع الظروف للنظريات الجامدة، والعقلية الحرة التى تريد أن تبتكر من النظريات ما يتلاءم مع الظروف الخاصة المتجددة، وكان طبيعياً أن تنتهى المحاورة بانتصار صاحب الرتبة الأكبر والنفوذ الأقوى، وكانت النتيجة أننى لم اتمكن من تنفيذ خطتى إلا في حدود امكانياتنا المتواضعة، وكم حز في نفسي وملأها ألما انها امكانيات لم تسمح لنا بحماية أصدقائنا البدو طويلاً وتركناهم بعد أشهر من الزمالة الشريفة يواجهون تصفية الحساب مع اليهود وحدهم فيقتلون منهم كيف يشاءون و يشردون الباقين مع نسائهم وأطفالهم، أما نحن فلم يختلف مصيرنا عن مصيرهم كثيراً لاننا كنا بعد نهاية الحرب وراء أسلاك المعتقلات!

و يذكرني هذا الذي تم بيننا و بين قبائل البادية في مناطق النقب بقصة أخرى تدل على ان اليهود قد استخدموا هذا الاسلوب من توثيق علاقاتهم بالعرب لخدمة أهدافهم الخبيثة.

أذكر أننى كنت اقوم بزيارة لمدينة نابلس في أحد أيام شهر فبراير سنة ١٩٤٨م وكانت الزيارة للسلام على القائد العربي (فوزى القاوقجى) لدى دخوله فلسطين. وكنا وفداً كبيراً من إخوان يافا.

وكان الطريق الذي نسلكه يشطر مستعمرة (بيت شيمن) إلى قسمين. فما راعني إلا الجنود اليهود يقفون عند مدخل المستعمرة و يشيرون لسيارتنا بالمرور بعد أن يشيروا بأيديهم محيين. وذهلت لهذه الظاهرة، فملت على أحد الركاب من أهالي مدينة اللد. وسألته عن السر فى ذلك، وكيف أن اليهود لم يطلقوا علينا النار فى الوقت الذى تدور فيه المعارك بشدة في جميع أنحاء فلسطين.

فقال لي :« إن اليهود قد اتصلوا بنا وقالوا إن يهود اللد وعرب اللد أصدقاء ولا يهمهم ما يجري في المناطق الأخرى».

وانخدع العرب فترة قصيرة من الزمن، حتى قامت جماعة معارضة كان قوامها الشباب الكريم من اهالي المدينة، فاشتركت منطقتهم في القتال وقامت بنصيب كبير فيه، ودارت الأيام دورتها وكانت تلك المستعمرة هي المركز الذي حشدت فيه القوات اليهودية، وهاجمت منه المدينة من الخلف وارغمت أهلها على الهجره والفرار بحياتهم موقعة بهم أشنع ما عرفته الحرب من وحشية وإجرام.

ولعل القارىء قد فهم الغرض الذى كان يرمي إليه اليهود من وراء هذه الأساليب الماكرة من تشكيك العرب في قضيتهم، وإضعاف المقاومة في بعض المناطق حتى يتفرغوا لكبحها في المناطق الأخرى، ولا شك أنها أساليب تدل على ما امتاز به اليهود من المكر والخداع.

تلك هي القصة لتي ذكرتها وأنا بصدد معالجة ذلك الإشكال الماثل الذى تعرض لي في صحراء النقب. والذي تغلبنا عليه بتلك الخطه المضادة التى قمنا بها. والتي فاتت غيرنا من القوات العسكرية المنظمة حين تركت هؤلاء البدو لشأنهم ولم تفكر في الإفادة منهم حتى أصبحوا سلاحاً مغلولا ألقته الجيوش العربية وحمله اليهود واحتفظوا به، وقد ينجحون في استعماله لو واتتهم الظروف.

١١ـ مع أحمد عبد العزيزفي جولته

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ
وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾

قرآن كريم

أوضحنا في صفحات سابقة كيف وقفت الحكومة في طريق الاخوان، ومنعتهم من إدخال أفواج من شبابهم كما كان مقرراً من قبل.

وكان يمكن للاخوان أن يريحوا أنفسهم من عناء الجهاد وو يلات القتال، وأن يكتفوا بالتصفيق والتظاهر كمل تفعل زعامات مقدسة وأحزاب محترمة.

ولكن الاخوان لم يفعلوا شيئاً من هذا، بل نراهم يتلمسون كافة السبل والحيل و يعملون جاهدين لتذليل هذه العقبات وفتح الأبواب المغلقة أمام الجموع الوافدة من شبابهم المؤمن، الذين تدفقوا من الأقاليم والعواصم حتى اكتظ بهم المركز العام وضاقت بهم شعب «القاهرة». و بدأت اتصلات كثيرة، ومؤتمرات متعددة، انتهت الى تكوين فرق من المتطوعين يقودها ضباط من الجيش، وتتولى الجامعة العربية تدر يبها والانفاق عليها.

وكان طبيعياً أن يرحب الاخوان بالفكره، فهم لا ير يدون إلا إنقاذ فلسطين وانتزاعها من عصابة الشر، وكانوا يعلمون أيضاً أنه لا توجد هيئة أخرى فى مصر يمكنها أن تساهم في هذه الحركة بنصيب كبير، وإذن فالاخوان هم الذين سيجاهدون مهما اختلفت الأسماء، وتغيرت المظاهر.

وبدأت حركة التطوع عن طريق المركز العام، وكان يشرف على تنظيمها المجاهد الكبير المرحوم (الصاغ محمود لبيب) وكيل الاخوان المسلمين وقائد وحداتهم العسكريه، ونجح بمعونة بعض الشخصيات المجاهدة وعلى رأسهم معالي «صالح حرب باشا» وسعادة اللواء «عبد الواحد سبل بك» في إقامة معسكر للتدريب في (هاكستب) تتولى الجامعة العربية إمداده وتنظيمه، ويشرف على برنامج التدريب فيه جندي ممتاز هو البكباشي (حسين مصطفى) من رجال الجيش العامل.

ولقد أخذ الناس بهذه الحركة العنيفة والإقبال الشديد على التطوع، وعجبوا كثيراً لهذا الشباب الذى يقدم نفسه للموت عن طواعية واختيار، وعهدهم بالشباب من أمثال هؤلاء ينفرون من الجندية، حتى إنهم يقطعون أصابعهم كيلا يصلحوا للانخراط فيها، وكان آباء المتطوعين وأمهاتهم أشد الناس إشفاقاً على فلذات أكبادهم أن تلاقى الحتف برصاص اليهود.

وشهد معسكر «الها كستب» في أول تكوينه معارك عنيفة بين عواطف الأبوة الحنون، وعناد الشباب المؤمن المتشبث بمبادئه ومثله العليا، فهذا شاب من الاسكندرية هو الأخ المجاهد (عبدالمنعم سعيد) يجرفه هذا التيار العاتي، ويصمم على خوض غمار الحرب دفاعاً عن الاسلام وكرامته، فيتفق مع نفر من إخوانه ويغادرون الاسكندرية خفية ويبذلون محاولات متعدده حتى تسجل أسماؤهم في كشوف المتطوعين، ويقبلون على التدريب في شغف ولذة، ويبحث أهلوهم عنهم طويلاً، ويبحثون في طلبهم، ويشهد معسكر «الهاكستب» حواراً عجيباً بين بطلنا الصغير «عبد المنعم» وعمه الذي جاء في طلبه، فعمه يحاول إقناعه بالعودة ويذكره بمستقبله وحاجة أهله إلى سعيه وكده، والفتى يجيب بحدة وتبرم: «لا أريد العوده، دعوني أؤدي بعض ما علي من دَيْن للاسلام». ويتدخل قائد المعسكر في الأمر ويحاول إقناع الفتى باتباع نصائح عمه. ويحتد الفتى مرة أخرى ثم يصيح: «لا. لا.. لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

أجل.. أجل.. هكذا فهم الاخوان حقيقة دورهم في فلسطين. جهاد خالص في سبيل الله لا سعياً وراء الشهرة ولا طلباً للمغنم التافه ولكن سعياً وراء عزة الاسلام، فإما نالوها، وإما سقطوا شهداء دونها.

يئس العم من بن أخيه وأشفق القائد على نفس الفتى المؤمن فلم يرغمه على الخروج، وظل بطلنا ينعم في معسكره ويمني نفسه باليوم السعيد حين يقف أمام أعداء الله وجهاً لوجه، ومضى العم مشدوهاً مما رأى، مقتنعاً أن شيئاً جديداً قد طرأ على شباب اليوم، وأن هذا الجيل قد بدأ يتجه اتجاهاً لاعهد للناس به.

وليس أعجب من هذا إلا أخ من إخوان القاهرة هو المجاهد (محمد العيسوي) وقد نجح أبوه بما له من مركز ونفوذ في إبعاده عن المعسكر بعد أن أخذ من القائد وعداً بعدم قبوله من جديد، وعز على البطل ان تنهار آماله وتتحطم على صخور هذه التقاليد البالية، ففكر وقدر ثم هداه تفكيره الى وسيلة ناجحة، فأخذ يهرب من أهله كل يوم و يأتي الى المعسكر حيث يظل الساعات الطوال خارج الأسلاك يراقب حركات التدر يب ويحاول تقليدها، حتى إذا انتهى اليوم أخذ من زملائه ما يكتبونه من محاضرات عسكر ية، ورجع الى بيته حيث يستذكرها بشغف وعناية.

وحين تحركت الكتيبة الاولى الى العر يش بعد نهاية تدر يبها، ركب نفس القطار الذي سافرت به بعد أن اشترى على حسابه بعض الملابس العسكر ية، وفوجىء افراد الكتيبة وقائدها حين رأوه ينزل الى المحطة، وظل أهله يوالون السعي لإرجاعه ولكن قائد الكتيبة أصر على بقائه، ورفض كل المساعي التي بذلت لإعادته، بعد ما رآه من ثبات إيمانه وصدق عزيمته.

واستمطر معي سحائب الرحمة على المجاهد الكريم (فتحي الخولي) الذي أخذه اهله قوة واقتداراً وحبسوه في غرفة منعزلة، فهددهم بالإنتحار إن وقفوا في طر يقه ومنعوه من الجهاد، وكان دائماً يقول لإخوانه (إن الجنة تناديني) ولقد أجاب (فتحي) نداء الجنة، إذ كان أول شهيد تقدمه الكتيبة ولما يمضِ على وصوله إلى فلسطين سوى يومين اثنين.

أمثلة كثيرة لا يحيط بها الحصر ولكن ما ذكرناه يصلح دليلا واضحاً على مدى ما وصل اليه الاخوان من نجاح رائع وهم يحشدون هذا الشباب و ير بونه في مدرسة الإسلام الخالدة.

بدأت الكتيبة تدر يبها، وأبدى الاخوان شغفاً شديدا بالتدر يب، وأقبلوا على المحاضرات الحر بية يوسعون بها مداركهم، و يزدادون إلماماً بوسائل الحرب الحديثة واستعمال الاسلحة

المختلفة وكانوا مشوقين الى السفر متعجلين لتطبيق ما تعلموه عملياً في أرواح اليهود، حتى كان يوم ٢٥ أبريل سنة ١٩٤٨ إذ صدرت الأوامر بإرسال هذه الكتيبة الى الميدان وكان قائدهم حتى ذلك الحين البكباشي (زكريا الورداني)، وكم كان المنظر مؤثراً حين حضرت عائلات المجاهدين لوداعهم، وأقبلت جماهير غفيرة من الشعب لتطالع الصفحة الجديدة التي نشرت لتسجل قصصاً رائعة من البطولة يكتبها هذا الشباب المؤمن بجهده وعرقه ودمه.

ألا ليت هذه الجماهير طالعت ختام هذه الصفحة. وقدر لها أن تستقبل ابطالها حين عودتهم، لترى كيف تنخسف قيم البطولة في مصر.

ليت هذه الجماهير شهدت بعد ذلك كيف عاد هؤلاء الأبطال بعد أن تركوا أحباءهم تحت ثرى فلسطين، وفيهم من ترك عضواً من أعضاء جسمه عربوناً للعودة القريبة، ولكن الحكومة تكفلت باستقبالهم ورصدت قوات من بوليسها ليكون في انتظارهم، لا ليقف لتحيتهم، ولا ليصطف على الجانبين لتعظيمهم، ولكن ليحرسهم الساعات الطوال داخل سجون الأقسام!..

سارت الكتيبة في رعاية الله ونزلت الى العريش، وأخذت تعد عدتها لدخول فلسطين، وما هي إلا أيام قلائل حتى لحق بها القائد الجديد بصحبة عدد من الضباط البواسل الذي عز عليهم الانتظار فآثروا اللحاق بقوات المتطوعين.

وكان القائد الجديد ضابطاً من الفرسان برتبة «البكباشي» غير معروف من جنوده، إذ لم يكن له ما يميزه على غيره من زملائه الكثيرين، وإن كان الضباط قد وصفوه لجنوده بإكبار وإعجاب، ذاكرين له دروسه ومحاضراته القيمة في كلية أركان الحرب، وبطولاته الرائعة التي سجلها في ميدان الفروسية.

ولم يكن هذا القائد الجديد سوى البكباشي (أحمد عبد العزيز) الذي لمع اسمه بعد ذلك في الحرب، ودأبت الصحف العربية على تتبع أنبائه وتحركاته، وأولته من العناية والاهتمام ما لم تول أحداً من قادة الجيوش العربية ممن يفوقونه في المركز وبعد الصيت.

«ونحن اذا أردنا أن نؤرخ لهذه الكتيبة المجاهدة، نجد انفسنا مضطرين لتحليل شخصية قائدها، لأن القائد هو عصب القوة وعقلها المفكر، ومن خلال شخصيته وميوله نستطيع أن

نحكم على أعمال القوة ووسائلها في العمل. ولن تجد هذه الحقيقة واضحة بأجلى صورها أكثر من وضوحها في هذه الكتيبة المغامرة، ومدى انطباعها بشخصية قائدها وميوله.

خصلتان هما الأساس الذي ارتكزت عليه شخصية أحمد عبد العزيز:

أولاهما: جرأة خارقة وولع شديد بالمغامرة.

ثانيتها: اعتزاز بشخصيته، واعتداد بمقدرته وكفاءته.

جرأة غامرة وولع بالمخاطر وصل به الى حد التهور، وكثيراً ما كان يعرض نفسه لأخطار شديدة حتى أشفق عليه ضباطه فلم يكن يجيبهم إلا بكلمة واحدة (لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا)، واعتزاز بشخصيته وكفاءته كان كثيراً ما يصل به الى حد الغرور.

وهاتان الخصلتان هما اللتان دفعتاه للزج بكتيبته في أخطار شديدة والقيام بالاعمال الخارقة التي ظلت الصحف تتداولها طوال فترة الحرب، وهاتان الخصلتان أيضاً هما اللتان دفعتاه لاخطاء جسيمة عصفت بالكثيرين من رجاله وأثرت تأثيراً بعيداً في النتيجة العامة للحرب.

تلك هي أهم العناصر التي تكونت منها شخصية هذا الرجل، فلنحتفظ بهذا الميزان في أيدينا ونحن نتابع السير وراءه حين قام بهجماته على مراكز اليهود في النقب، وحين وقف بشدة ليدافع عن المدن الفلسطينية التي تقع في جنوبي القدس.

بدأ أحمد عبد العزيز يعد قواته لدخول فلسطين. وكانت قوات الاحتلال البريطاني لا تزال بها، فقام بعدة دوريات استكشف فيها مناطق النقب الشمالية، وصحبه في الدورية الأولى الشيخ محمد الفرغلي، رئيس الإخوان في فلسطين، والشيخ فريح المصدر شيخ عشائر التصيرات الضاربة في صحراء النقب، وكبير معاونيه البكباشي «زكريا الورداني».

وبعد عدة دوريات ومشاورات قرر الدخول الى منطقة (غزة) ومهاجمة المستعمرات الواقعة فيها، فأصدر أوامره في ٥ مايو للتحرك ولكي يتفادى الصدام مع قوات الاحتلال الانجليزية المقيمة على الطريق الرئيسي في (رفح) استعمل طريقاً غريباً فسار بسياراته على شريط السكة الحديدية، وهناك قابله الأهلون مقابلة حافلة وتقدم أعيان المنطقة اليه طالبين أن يعمل على تجنيد ابنائهم وتنظيمهم ضمن قواته فوعدهم خيراً.

ولم تطل إقامته في (خانيونس) فبدأ عملياته بأن أرسل قوة صغيرة من الاخوان تهاجم قافلة يهودية فاشتبكت معها في ١٣ مايو وأرغمتها على الفرار. وفي هذه المعركة سقط الشهيد المبرور «فتحي الخولي» الشاب الذي أشرنا إليه في أول هذا الباب.

كانت خطة أحمد عبد العزيز إلى مهاجمة المستعمرات اليهودية، وكان يريد أن يسلك السبيل الخاطىء الذي سارت فيه قوات الإخوان الحرة من قبل، ولقد اتصل به الاستاذ «محمد فرغلي» وبين له خطورة هذا الإجراء متخذاً من كارثة الاخوان في (كفار ديروم) مثلاً لما يقول، لكن هذه النصائح لم تجد سبيلها في نفس أحمد عبد العزيز وعز عليه أن يتراجع في أمر أبرمه فصمم على مهاجمتها وقدر له أن يتلقى على يدها درساً قاسياً دفع ثمنه الفادح من خيرة شباب الإخوان وزهرة رجالهم.

اتجه تفكير أحمد عبد العزيز الى مهاجمة مستعمرة (كفار ديروم) اول المستعمرات وأقربها إلى طرق المواصلات، فبدأ في ١٠ مايو بإرسال دورياته لتحصل على معلومات تكون أساساً لخطته حتى إذا تم له ما أراد نظم الخطة. وكانت كلها تدور على أن مدفعيته الضخمة ستدك الأبراج والحصون، ولن يجد مشاته أحداً في قلب المستعمرة لأن حماتها سيكونون جميعاً تحت الأنقاض!! .. وكانت خطته ــ بإيجاز ــ تقضي بأن تبدأ المدفعية في دك الحصون في الساعة الثانية صباحاً لمدة عشر دقائق، يبدأ الفدائيون بعدها في نسف حقول الألغام ومواقع الأسلاك الشائكة، ثم تهاجم المشاة المستعمرة من ثلاث جهات لتتم تطهيرها واحتلالها.

وأترك وصف هذه المعركة للأخ المجاهد (أحمد لبيب الترجمان) أحد قواد الإخوان في الميدان وقائد جماعات الاقتحام في هذه المعركة.

قال الأخ «لبيب» إن أول الأخطاء التي تورطنا فيها كان تأخير الهجوم عن موعده المقرر. فبدل أن تبدأ المدفعية ضربها في الساعة الثانية، بدأت في الساعة الرابعة والنصف حين وضح النهار وأصبح في مقدور العدو مراقبة المهاجمين وحصدهم بالبنادق والرشاشات.

أما لماذا تأخر ضرب المدفعية فكان العذر أقبح من الذنب، ذلك أن الضابط المختص لم يسجل الأغراض التي تقرر ضربها بالنهار، ليسهل عليه ضربها بالليل، مما اضطره إلى تأخير الضرب حتى يسفر النهار وتتضح الأغراض، وانطلقت المدافع بعشرات القنابل واستمرت الأبراج لا تتزعزع، وحينئذ وضح أمامنا أن الخطة فاشلة وأن الهجوم لو استمر فسيتحول

لكارثة مروعة، وحاولنا تأجيل الهجوم ليوم آخر أو تحوير الخطة بحيث تتلاءم والأوضاع الجديدة، ولكن الأوامر صدرت بمواصلة الزحف واحتلال المستعمرة، وأطبقت المدفعية الكبيرة أفواهها، وانطلقت مدافع (الهاون) تلف المستعمرة بسحابة من الدخان.

وبدأ المجاهدون يزحفون إلى أغراضهم، والعدو الماكر يغري بالتقدم حتى أصبحنا على الأسلاك والمستعمرة لا تزال هادئة ساكنة وفجأة تشققت الأرض عن عيون كثيرة، وانسابت سيول دافقة من النيران وتساقط المجاهدون حتى امتلأت الساحة بالجرحى والشهداء.

وكان مقرراً أن يدمر الفدائيون الأسلاك الشائكة بألغام (البنجالور) غير أن حملتها أصيبوا جميعاً، ورأينا أنفسنا في وضع حرج، ونيران العدو لا تزال تشق طريقها في الجموع العارية، وفجأة تقدم شاب أسمر طويل وصاح في إخوانه ليتراجعوا إلى الوراء، وتراجعت الجموع قليلا للوراء، فقذف الشاب بنفسه على الأسلاك الشائكة المشحونة بالألغام، فانفجرت وتطايرت الأسلاك الشائكة وتطاير جسده معها أشلاء ممزقة، وفتحت السماء أبوابها لتستقبل ضيفاً جديداً كان أهل الدنيا يعرفونه باسم (عمر عثمان بلال).

وقضي على البطل الجريء ولكن بعد أن حقق المعجزة وفتح لإخوانه ممراً في الأسلاك وفرشه لهم بدمه الطاهر، وتدفقت الجموع الى المستعمرة وأخذت تحتمي من نيران العدو بحفر القنابل وخنادق المواصلات، ورأى العدو ذلك فجن جنونه وأخذ يركز الضرب على هذه الثغرة، وانطلقت مدافعه ورشاشاته تقيم أمامها سداً كثيفاً من النار والبارود، فارتبكت الجموع مرة أخرى ووجدها العدو فرصة سانحة فشدد النكير، وفجأة وصلت المهزلة إلى آخر مراحلها إذ انطلقت مدفعيتنا من الخلف وبدل أن تصب نيرانها على اليهود المختبئين في المستعمرة، أصابت المجاهدين الزاحفين حولها، وتسبب هذا الخطأ الشنيع في قتل عدد كبير، وكان طبيعياً أن يحل الذعر وتنهار الروح المعنوية وتتوقف المعركة عند هذه النهاية الدامية، وتفتح الجنة أبوابها لتستقبل سبعين ضيفاً جديداً من خيرة شباب مصر، وتستعد مستشفيات (غزة) و (القاهرة) لتسقبل خمسين جريحاً من جرحى هذه المعركة.

وكان ممن جرح فيها اليوزباشي البطل «معروف الحضري» فحمله الاخوان من داخل المستعمرة، حيث رحل للعلاج في القاهرة، وقبل أن يتماثل للشفاء عاد ليواصل جهاده

و يلعب دوراً هاماً على مسرح الحرب.

ولا أنتهي من الحديث عن هذه المعركة بالذات دون أن أسجل خطأ فاحشاً وقع فيه المسؤولون عنها، ذلك أنهم تركوا الشهداء والجرحى حول المستعمرة دون أن يعملوا على نقلهم، مما أثر تأثيراً بعيداً في نفوس المجاهدين، ولكي أصور فداحة هذا الخطأ يكفي أن أقول أن جثث الشهداء الأبرار ظلت ملقاة حول المستعمرة أكثر من شهر حتى استطاع كاتب هذه السطور ــ بمعونة نفر من إخوانهم نقلهم حين أعلنت الهدنة في ١٨ يونيو.

انتهت معركة (كفار ديروم) على هذه الصورة، ولم يكن أحمد عبد العزيز من شهودها، إذ كان يتلقى أنباءها أولاً بأول من مقر قيادته في (خانيونس)، وحين تلقى هذا النبأ جزع جزعاً شديداً. وألم لفقد هذا العدد الضخم من خيرة رجاله دون أن يحقق أدنى نتيجة، فصمم على أن يوقع باليهود ضربة قاتلة وما كان إلا يومان حتى واتته الفرصة ولم يضيعها، ولقن اليهود درساً مراً وأعاد لقوته روحها المعنوية التي كادت أن تتلاشى بعد هزيمتها في (كفار ديروم،).

ضرب المجاهدون حصاراً محكماً حول المستعمرة، وفي اليوم التالي للمعركة حاول العدو تحطيم هذا الحصار وإدخال قافلة كبيرة محملة بالجنود والعتاد، وكانت هي الفرصة التي ينتظرها أحمد عبد العزيز و يسيل لها لعابه فنظم لها (كميناً) محكماً، وحشد مدافعه على سفوح التلال المشرفة على الطريق، وحين دخلت في الدائرة التي رسمها، أمر اليوزباشي «حسن فهمي» قائد مدفعيته فانطلقت المدافع من أبعاد قريبة، وحاول اليهود الدفاع عن أنفسهم بادىء الأمر، ولكنهم وجدوا أنفسهم محصورين داخل حلقة فولاذية، فاختاروا أهون الضررين وقذفوا أنفسهم من المصفحات وحاولوا النجاة بارواحهم والفرار إلى مستعمرة (كفار ديروم).

وكانت هذه خطوة محسوباً حسابها في الخطة، إذ كان الأخ المجاهد «علي صديق» يقود فصيلة من المشاة مختبئة بعناية وراء التلال القريبة، فلم يكد اليهود ينزلون من المصفحات و يتحركون تجاه المستعمرة، حتى انطلقت الرشاشات من كل صوب فحصدتهم حصداً ولم ينج منهم أحد.

وحاول حماة المستعمرة نجدة إخوانهم، وتركهم الاخوان يغادرون الأسلاك الشائكة ويبتعدون عنها ثم بدأوا يطلقون عليهم النار من «أوكار» معدة بعناية حتى سقط منهم عدد كبير، وتراجع الباقون إلى المستعمرة، وسكتت المدفعية، وأطبقت الرشاشات أفواهها الملتهبة، وأخذ المجاهدون يحصون ما غنموه، فإذا هم أمام خمس عشرة مصفحة ضخمة مشحونة بأحدث طراز من الأسلحة والذخائر ومواد التموين ولأول مرة تعلو وجوههم ابتسامات الفرح بعد هزيمة الأمس، حين فتحوا إحدى المصفحات فوجدوها مليئة بالدجاج والطيور من مختلف الأنواع والأحجام.

وكان نصراً رائعاً ردّ لهذه الكتيبة المجاهدة اعتبارها، وعوض لها خسارتها، وبعد هذه المعركة تغير الموقف واقتنع أحمد عبد العزيز بالنظرة الأولى، وهي أن مهاجمة المستعمرات دون أن يكون معه عدد من الدبابات الثقيلة، إن هو إلا ضرب من الانتحار، فأخذ يستخدم (تكتيكات) العصابات ويضرب المستعمرات بمدفعيته دون أن يهاجمها، ويعترض طريق القوافل المصفحة ويبيدها عن آخرها، حتى أزعج اليهود إزعاجاً شديداً وحرم عليهم التجول في صحراء النقب وكان مقدراً لهذه الحركة أن تحرز نجاحاً رائعاً لولا ما جدّ على الموقف الحربي من أحداث وتطورات.

لقد أشرت إلى قيامي بنقل جثث شهداء الاخوان في كفار ديروم، وهذه القصة لا تخلو من الطرافة على الرغم من كآبة المناسبة وجو الحرب المقبض في ذلك الحين، ففي صبيحة يوم ١٨ يونيو ظهر أحد جنود «الهاجاناه» من كفار ديروم وهو يحمل راية بيضاء وتقدم نحو مواقع المراقبة التابعة لنا، وقد أبلغني قائد الموقع بأمره لاسلكياً وطلب الإذن باستقباله لمعرفة ما لديه فأذنت له، وحين وصل أبلغ رجالنا أنه يحمل رسالة شفوية من قائد المستعمرة مفادها أنه يرغب في الدخول معنا في بحث لاخلاء جثث الاخوان من حول المستعمرة مقابل «شروط معينة» وأن قائده مستعد لمقابلة أي مسؤول منا سواء في منطقتنا أو في منطقته لبحث هذا الموضوع الإنساني، ولما بلغني الخبر وافقت على الفور على مقابلة قائد المستعمرة وعرضت أن يكون اللقاء عند مستعمرته إذا لم يكن لديهم مانع، وتركت لقائد موقعنا أن يحدد مع الرسول بقية التفاصيل التي تتعلق بالوقت والمكان، ولم تكن لديهم أي شروط للقاء سوى ألا نحمل معنا أية أسلحة غير الأسلحة الشخصية التي لا تتعدى المسدسات.

الواقع انني لم ادرك حقيقة المخاطرة التي انطوى عليها ذهابنا للمستعمرة دون اسلحة إلا بعد ان انتهى هذا الاجتماع الطريف، ربما لأنني كنت مشوقاً لرؤية هذا الحصن القاتل من قريب، وربما للتعرف على غريمنا في الجهة المقابلة في جو عادي بعد أن ظل اتصالنا به بواسطة القنابل والرشاشات! على أن أهم ما في الموضوع كان في الحقيقة نقل جثث اخواننا الأعزاء ودفنهم دفناً لائقاً بعد مرور اسابيع على استشهادهم، وفعلا توجهت في الموعد المحدد ومعي اربعة من ضباطنا احدهم يحسن اللغة الالمانية بعد ان علمنا ان قائد المستعمرة من اصل الماني، والواقع اننا لم نحتج للترجمة حيث اننا وجدنا اكثر رجال الوفد اليهودي يحسنون اللغة العربية، ومع اننا احترمنا وعدنا بعدم اخذ اسلحة معنا سوى المسدسات الا اننا لم ننس ان نحرك بطارية مدافع هاون ١٠٨ مم وعدداً من المصفحات الى اماكن قريبة على سبيل الاحتياط فيما اذا تحرك الغدر اليهودي التقليدي ووجدنا انفسنا مضطرين للدفاع عن حياتنا.

كان اول سؤال طرحه الضابط اليهودي هو عن مصير بعض الجنود اليهود الذين وقعوا بين ايدينا خلال الاشتباكات السابقة مع القوافل المصفحة، وكان جوابي انه لا يوجد لدينا اسرى وإنما وجدنا فعلا بعض القتلى في داخل السيارات او على ارض المعركة واننا قد نقلناهم ودفناهم بصورة عادية، وهنا زعم اليهودي اننا قد اخذناهم احياء ثم قتلناهم، وكاد هذا الاتهام الوقح وردي العنيف عليه ان ينهي البحث لولا انه تصنع الهدوء وعرض ان نضع على القبور اليهودية «نجمة داوود» وهو شعار اسرائيل ولكنني رفضت هذا الطلب وعرضت ان نضع عليهم علامات مميزة حتى يمكن التعرف عليهم ونقلهم في نهاية الحرب فوافق على هذا العرض، وكان مطلبه الثاني هو السماح لقافلة تموين بالوصول الى المستعمرة مقابل السماح لنا بنقل الجثث فرفضت هذا الطلب فوراً باعتباره يخرج عن مهمتي وعن الطبيعة «الانسانية» المحضة التي جئت من اجلها، فلم يطرق هذا الموضوع مرة أخرى، و يبدو ان سكان المستعمرة كانوا لا يقلون عنا حرصاً على نقل الجثث من ارض المعركة مخافة ان تسبب لهم الامراض فوافقوا على مطلبنا على ان ننقلهم دفعة واحدة في وقت معين، وعلى ان يكون الافراد الذين ستوكل اليهم هذه المهمة غير مسلحين. وفي بعض اللحظات ادرك اليهودي انني أكثر من النظر في المستعمرة وما يحيط بها من اسلاك وابراج وكأنه ادرك ما يدور في خاطري

فلفت انتباهي بأدب قائلاً: «الا تعتقد ان المنظر في الجهة العكسية اجمل وافسح» ، وخلال الحديث قدم لي قائد المستعمرة أحد مرافقيه الضباط وهو من اصل روسي واسمه «آصف» قائلاً: ان هذا الضابط هو الذي حاول قبل بضعة ايام اختراق الحصار على رأس فصيل من الهاجاناه ولكن نيران رشاشاتنا ردته فاشلا، فقلت ان وجوده معنا الآن يدل على انه محظوظ فعلاً ونصحته بألا يحاول اللعب بالنار مرة اخرى!! وأذكر ان الحديث بعد ذلك تحول الى مبارزة كلامية وتهديدات مبطنة ومحاولات مستترة لكسر المعنويات واثارة المخاوف، وفي ختام الجلسة قال له احد الاخوان مازحاً «انكم يهود حقاً فلم تقدموا لنا شاياً ولا قهوة ولو جئتم عندنا لأكرمناكم» فرد اليهودي قائلاً «انكم تحاصروننا منذ بضعة شهور فمن اين لنا القهوة والشاي؟ ثم ان مدافعكم امس دمرت مطبخ المستعمرة واتلفت الموقد الوحيد لدينا» وكان تعليقي على هذه المحاورة المازحة ان هذه الاخبار هي عندي أهم من القهوة والشاي!! وفي العودة من كفار ديروم انتابني شعور غريب وانا اعبر عن نفس الأرض التي عبرتها قبل شهور زحفاً على البطن والرصاص يلفح وجهي كأنه صفير الأبالسة! والواقع اننا لم نحاول العودة الى «كفار ديروم» حرباً وإنما عدنا إليها في منتصف يوليو بعد ان افلحت خطة الحصار في إنهاك قوتها واقتنعت القيادة الإسرائيلية بسحب وحدة الهاجاناه من هناك.

وفي اليوم التالي أرسلنا بضع سيارات لنقل جثث الشهداء بعد ان اعددنا لهم مدافن في (مقبرة الإخوان المسلمين القائمة على أحد التلال المشرفة على قرية دير البلح) وتم الدفن فعلاً في حفل رسمي حضره وجهاء البلدة والقرى المجاورة.

بعد هذه الحوادث بدأت القوة المصرية النظامية تزحف على فلسطين بقيادة اللواء «احمد محمد علي المواوي» واحتلت في زحفها السريع كثيراً من المدن الساحلية، ثم توقفت في «غزة»لتنسق عملياتها المقبلة، وكان مفروضاً ان يبدأ التنسيق بتوحيد القيادة في الجبهة المصرية، ويبدأ التعاون الفعلي بين قوات الجيش وقوات المتطوعين وكان من رأي «المواوي» ان يخضع احمد عبد العزيز لقيادة الجيش العامة. تنسيقاً للعمل وتوحيداً للجهد وكان يريد ان يجعل من كتيبته (قوة ضاربة) ترافق الجيش في عملياته.

غير ان احمد عبد العزيز رفض هذه الفكرة وأصر على أن يستقل بالعمل بحجة انه يقود جماعات من المتطوعين لا يلتزمون بالأوضاع العسكرية التي يلتزم بها الجيش النظامي.

وأخيراً رأى «المواوي» حسماً للنزاع ان يتولى احمد عبد العزيز قيادة منطقة (بئر السبع) ــعلى الا يتجاوزها شمالاًــ فيدافع بذلك عن مفتاح فلسطين الشرقي، و يوزع قوات العدو بين جبهتين واسعتين، ويحمي ميمنة الجيش المصري من خطر الإلتفاف.

وقبل احمد عبد العزيز هذا الرأي فجمع قواته واخترق بهم صحراء النقب ماراً بمستعمرة (العمارة) حيث ضربها بمدفعيتة في ١٧ مايو، ودخل بئر السبع حيث قابله السكان مقابلة رائعة. ولم يكد يستقر بها حتى بدأ أول حركاته بضرب مستعمرة (بيت إيشل) الحصينة ثم شرع في توزيع قوته على هذه المنطقة. فارسل جزءاً بقيادة البكباشي «زكريا الورداني» ليحتل (العوجة) و (العسلوج) العربيتين. وابقى جزءا آخر بقيادة اليوزباشي «محمود عبده» ليتولى الدفاع عن مدينة (بئر السبع) ومنطقتها.

أما هو فقد اتخذ قيادته في المدينة وأخذ يرسم الخطط لمهاجمة اليهود في كل مكان من الصحراء. و بدا ان الخلاف قد انتهى عند هذا الحد وحل محله التعاون والانسجام لولا أن جاء وفد من مدينة (الخليل) في ١٩ مايو وقابل احمد عبد العزيز والتمس منه ارسال جزء من قواته للاشتراك مع الجيش الاردني في الدفاع عن الخليل و بيت لحم. وهنا نجد احمد عبد العزيز يوافق على توزيع قوته. و يقرر الزحف الى الخليل. غير عابىء بالتعليمات التي اتفق عليها مع القائد العام وغير عابىء بما قد تجره هذه الخطوة من مشاكل سياسية اذ ان هذه المناطق كانت تدخل ضمن الجبهة الاردنية حسب الخطة العربية العامة.

وفي يوم ٢٠ مايو زحف احمد عبد العزيز الى الخليل على رأس قوة صغيرة تاركا مهمة الدفاع عن مدينة (بئر السبع) ومنطقتها لليوزباشي «محمود عبده» وفصائل الاخوان المسلمين التي تعمل تحت قيادته ولندع احمد عبد العزيز يواصل زحفه الى الخليل. ولنقف نحن قليلا مع حماة بئر السبع حيث نشهد طرفا من اعمالهم الرائعة.

قرر اليوزباشي «محمود عبده» محاصرة المستعمرات وانهاك قوى العدو بالغارات المتواصلة على مواصلاته ومراكزه. واخذ يبعث بالدوريات المسلحة لتجوب الصحراء وتعترض طرق القوافل وترغمها على الفرار تاركة خلفها الكثير من الأسلحة ومعدات الحرب.

ولقد حاول اليهود في ٧ مايو توصيل بعض المؤن الى مستعمراتهم المحصورة. وكان الطريق الذي يسلكونه يمر فوق جسر مقام على احد الوديان العميقة. فقرر الاخوان نسف هذا الجسر حين مرور القافلة فوقه. وفعلا قامت قوة من بئر السبع بقيادة المجاهد «علي صديق» وبثت الالغام تحت الجسر. واختبأت داخل الشعاب والمنحنيات القريبة ولم يطل بها الانتظار اذ تقدمت قافلة العدو وهي جاهلة تماماً ما ينتظرها.

فما ان توسطت الجسر حتى انفجرت الالغام الهائلة وتطايرت اجزاء الجسر في الهواء. وانقلبت مصفحات العدو في الوادي السحيق. وانتهز الاخوان الفرصة فقاموا يقتلون كل من تظهر رأسه تحت الردم.

واسفرت المعركة عن قتل عدد من جنود الأعداء، واسر عدد آخر من المصفحات، أطلق الاخوان على اكبرها اسم قائدهم (محمود عبده) وكما ارهب محمود عبده (الضابط) اليهود بخططه وكمائنه، فقد ارهبت محمود عبده (المصفحة) اليهود بعد ذلك حين كانت تشترك عملياً في جميع الدوريات الناجحة!

اما احمد عبد العزيز والاخوان الذين معه فما كادوا يدخلون مدينة (الخليل) حتى استقبلهم السكان في مظاهرات حماسية واجتمع الناس بهم في مسجد (الخليل) ابراهيم حيث وقف الأعيان ورؤوس القبائل يرحبون بمقدمهم و يبدون سرورهم البالغ لدخول هذا النوع المؤمن من المجاهدين الى ديارهم. وما كاد الجمع ينفض حتى ركب احمد عبد العزيز في دورية الى مدينة بيت لحم.

ولقد بدأ النزاع بين الأردنيين والمتطوعين في اليوم الأول اذ كانت قوة من الجيش الاردني تحتل المدينة وتتخذ من مركز البوليس فيها قيادة لقوات الاحتلال. وكانت هذه القوة ترفع علمها على سارية المركز، وأراد المتطوعون أن يرفعوا علمهم فمنعهم الاردنيون بحجة ان هذه المدينة تدخل ضمن جبهتهم، و بدأ الصراع بين الفريقين، وانقسم اهل المدينة الى معسكرين، هذا يشايع المصريين، وذاك يشايع الأردنيين، ووجدتها عناصر الفتن فرصاً سانحة لبذر بذور الجفاء، واستغلها الجنرال «كلوب» أسوأ استغلال فأخذ يوغر صدور المسؤولين في حكومة شرقي الأردن و يتخذ من هذا الموقف دليلاً على نوايا مصر إزاء جارتها العربية

قرر احمد عبد العزيز تخفيف القوات التي تركها في (العوجة) و (العسلوج) و (بئر السبع) وسحب معظمها الى الخليل وبيت لحم، حيث اخذ ينظم خطط الدفاع عن المدينتين، متخذاً مقر قيادته في فندق (وندسور)، في أحد أحياء مدينة (بيت لحم) الساحرة.

١٢ في الدفاع عن بيت لحم والخليل

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾

تقع مدينة (بيت لحم) على بعد ستة أميال جنوبي القدس، وهي إحدى المدن المقدسة لدى المسيحيين، إذ تقع فيها كثير من آثار المسيحيين وكنائسهم، وخاصة كنيسة المهد التي يحج اليها المسيحيون من جميع بقاع العالم، وغالبية سكانها العظمى من المسيحيين العرب.

وكم كان جميلا من هؤلاء المواطنين أن يحتفوا بالاخوان عند دخولهم للدفاع عن مدينتهم و يكونوا معهم أسرة واحدة متعاونة، وكان الإخوان يبادلونهم هذا الشعور الكريم لما رأوه من إخلاصهم، ولما شهدوه من غيرة صادقة على كرامة العرب والمسلمين، ولعل في هذا التعاون الصادق أكبر رد على أولئك الذين يحاولون تشو يه حركة الاخوان و يلصقون بها تهمة التعصب الذميم وهم يعلمون أن الاخوان براء من هذا الاتهام، ولكنها تهمة يحاولون بها خدمة المستعمر الدخيل وتثبيت أقدامه في هذا الوطن المسكين.

وها هي معارك بيت لحم وعدد الاخوان الهائل الذي استشهد حول أسوارها دفاعا عن مقدسات المسيحيين وآثارهم، تقف دليلاً شاهداً على مدى التعاون الذى يجمع بين العنصر ين الشقيقين، و يوحد بين الطائفتين الحبيبتين، ولقد كنت شخصياً أهتم بهذا المعنى عند ز ياراتي المتكررة لبيت لحم، فكنت ألتقي ببعض رؤساء الطوائف المسيحية بها،

واسألهم عن نظرتهم للاخوان وحركتهم، وكانت نفسي ترتاح كثيراً حين استمع إلى إجاباتهم وكلها مزيج من الحب والاطمئنان، وكيف لا تكون كذلك وهم يرون بأعينهم مقدار الجهود التي يبذلها الاخوان دفاعاً عن عرب فلسطين لا يفرقون في ذلك بين عربي ومسيحي، ولقد ظل الاخوان في مدينتهم عاماً كاملاً دون أن تقع حادثة واحدة من تلك الحوادث التي تقع عادة بين الجنود والمدنيين من أهل البلاد.

كان الجيش العربي الأردني يحتل مدينة «بيت لحم» قبل دخول أحمد عبد العزيز، وكان يتخذ مقر قيادتة في (مار الياس) الواقع شمالي المدينة، وكان هذا الجيش مشتبكاً مع مستعمرة (رامات راحيل) الواقعة على طريق بيت لحم ــ القدس، غيرأنه لم يتمكن من اقتحامها وبقيت (رامات راحيل) كما كانت دائماً مصدر خطر كبير.

فهي تقع على ربوة عالية، وتتحكم في الطريق الرئيسي الذي يصل بيت لحم بالقدس. فوق أن المدافعين عنها يمكنهم مراقبة القوات الموجودة ببيت لحم وإحصاء حركاتها وسكناتها، لذلك كله نرى أحمد عبد العزيز يتجه إلى اقتحامها منذ أن هبط أرض المدينة.

ولقد بدأ في ٢٤ مايو فأرسل قوة من جنود الاخوان بقيادة (لبيب الترجمان) لتقوم باستكشاف المستعمرة وكتابة تقرير واف عن تحصيناتها، وقامت الدورية بعملها خير قيام ونجحت في التسلل إلى مكان قريب من المستعمرة حيث أخذت تراقب تحصيناتها، ومواقع الدفاع عنها، وظلت في موضعها يوما كاملا حتى فطن اليهود لوجودها وأخذوا يطلقون عليها النار من قمم الأبراج، واشتبكت معها الدورية غير أن قائدها أمر بالانسحاب إذ كان هدفه هو «الاستكشاف» فحسب وليس الدخول في معركة مباشرة. وحين وصل الى بيت لحم عكف على كتابة تقريره وضمنه ما وصل إليه من معلومات عن المستعمرة ونقاط القوة والضعف في الدفاع عنها وقدمه إلى أحمد عبد العزيز الذي جعله أساسا لخطته المقبلة.

كانت الخطة الجديدة لا تختلف كثيراً عن الخطة التي اتبعت في (كفار ديروم) إذ تقرر أن تبدأ المدفعية بقصف الحصون والابراج ثم يزحف المشاة تحت غلالة من نيران مدفعية (الهاون) وقنابلها الدخانية، ثم تتقدم جماعات الفدائيين من حملة ألغام (البنجالور) لنسف العوائق السلكية وحقول الألغام.

غير ان هذه الخطة نجحت في إحتلال (رامات راحيل) وكان سر نجاحها أن الأرض المحيطة بالمستعمرة كانت جبلية مليئة بالمنحنيات والفجوات، حين كانت الأرض المحيطة بكفار ديروم سهلاً منبسطاً يمتد إلى مسافات شاسعة.

وفي مساء يوم ٢٦ مايو كان كل شيء هادئاً حول مستعمرة (رامات راحيل) وكان جنود (الهاجاناه) فيها ينامون ملء أجفانهم مطمئنين إلى حصونهم القوية، حتى انتصف الليل ــأو كادــ وبدأت اشباح كثيرة تنطلق من مركز رئاسة أحمد عبد العزيز حيث يبتلعها الظلام الكثيف، ثم تلتقي في سكون في مناطق مختلفة في الجبال المحيطة بالمستعمرة، ثم انطلقت اشارة ضوئية زحف بعدها المجاهدون ثم توقفوا عند نقط معينة تحددت في الخطط المرسومة.

وعندما دقت ساعة الكنيسة الكبيرة دقتين بعد منتصف الليل ارتجت الارض تحت دوي المدافع، وتمزقت حجب الليل المظلم من وهج القنابل المحرقة التي انقضت كالشهب على المستعمرة الساكنة. ولم تمض إلا دقائق حتى شبت الحرائق في اكشاكها الخشبية وتفجرت حقول الالغام التي لف بها العدو مستعمرته، ثم سكتت المدافع، وأصدر (لبيب الترجمان) أوامره لقوته فبدأت تزحف تحت غلالة كثيفة من قنابل الهاون المتفجرة وقنابل الدخان، وفي لمح البصر اندفع الفدائيون يفجرون الغامهم تحت الأسلاك الشائكة، ومن ورائهم فصائل الاقتحام تعبر مسرعة لتحتل الأغراض التي خصصت لها.

وبدأ الاشتباك الرهيب عند الخنادق «والدشم» واستماتت اليهود في الدفاع عن مستعمرتهم، ولم يضيع الإخوان الوقت فتسلل نفر منهم إلى الأبراج العالية يفجرون تحتها الالغام ويحيلونها أنقاضاً وركاماً، وأثرت هذه الانفجارات المفاجئة تأثيراً سيئاً في نفوس المدافعين عن المستعمرة، وأسقط في أيديهم، فبدأوا يجلون عبر ممراتهم السرية إلى مستعمرة (تل بيوت) على مقربة من القدس الجديدة.

وعكف المجاهدون على الخنادق يتمون تطهيرها وحين كان آخر يهودي يغادر المستعمرة هارباً، كان صوت المؤذن يتهادى مع النسيم من أعلى قمة فوق اعلى برج ــ الله أكبر ... الله أكبر ... اشهد ان لا إله إلا الله ... اشهد أن محمداً رسول الله.

سقطت المستعمرة أمام هذه الخطة، وأخذ الإخوان يجوسون خلال أبنيتها وأبراجها فرأوا ما أذهلهم من الخيرات والمؤن المكدسة؛ إذ كانت هذه المستعمرة هي مركز التموين الذي يشرف على إمداد المستعمرات الواقعة في جنوبي القدس.

وكان عدد القتلى من اليهود في هذه المعركة كبيراً للغاية إذ وجدت تحت الردم ما يزيد على المائتين، عدا ما نجح اليهود في أخذه معهم عند إنسحابهم، أما خسائر الإخوان فلم تتجاوز تسعة من الشهداء والجرحى وشهيداً واحداً من قوة الإخوان الأردنيين، التي كانت ترابط في (صور باهر) بقيادة المجاهد (عبد اللطيف أبو قورة) رئيس الإخوان في عمان.

لم يكن انسحاب اليهود نهائياً من المستعمرة إذ كانوا يبيتون النية لاستردادها وطرد الاخوان منها، فصعدت طائراتهم في اليوم التالي تستكشف الحالة فيها فلم تجد إلا عدداً قليلاً من المجاهدين، وكان الخطأ الذي يؤخذ على قيادة المتطوعين انها لم تعزز الانتصار الذي احرزته.

ولم توضع الخطة السليمة للمحافظة على المستعمرة، وكان عذر أحمد عبد العزيز في هذا الخطأ أن قوته الصغيرة كانت موزعة في خط طويل يمتد من (العوجة) إلى (بيت لحم) وأن أسلحته وذخائره كانت قليلة تافهة ولقد طالب مراراً بتزويده بالسلاح والذخيرة، غير أن «المواوي» رفض إمداده بها وسبب ذلك ــ كما سمعته من ضباط هذه القوة ــ أن أحمد عبد العزيز تخطى اوامره وتجاوز الحدود التي رسمها له!

وفي اليوم التالي تجمعت قوات يهودية كبيرة من القدس الجديدة ومستعمرات (تل بيوت) و (أرنونة) فطالب الاخوان بتعزيز القوة وإرسال عدد آخر يشترك معهم في الدفاع عن المستعمرة.

لكن القيادة قلبت كفها محتجة بعدم وجود قوات لديها، حتى يوم ٢٨ مايو إذ حسم اليهود المعركة فأغاروا بقوات كبيرة قدرت بخمسة آلاف، تؤيدها المدفعية والعربات المدرعة، واستبسلت القوة الصغيرة من الاخوان في الدفاع على أمل أن تنجدهم القيادة بالقوات اللازمة، وطال بهم الانتظار زمناً طويلاً دون جدوى فقرروا الانسحاب بعد أن دمروها تدميراً تاماً ولم يتركوا فيها بقعة واحدة تصلح للإيواء.

حاصر الاخوان المستعمرة وما جاورها، وتولوا الدفاع عن قرية (صور باهر) العربية. ولقد حدث في أوائل شهر يونيو أن حلقت طائرة يهودية تحمل أسلحة وذخائر. وأرادت إلقائها على (رامات راحيل) وكان الوقت ليلاً، ورأى الاخوان أن المستعمرة تطلق إشارات حمراء لتدل الطائرة على موضعها، فما كان منهم إلا أن أطلقوا إشارات حمراء مشابهة، فاختلط الأمر على الطائرة وألقت حمولتها فوق (صور باهر) وكانت صناديق ضخمة مليئة باجزاء المدافع وأنواع الرشاشات الحديثة والأدوية الثمينة.

أراد اليهود تعزيز النصر الذي احرزوه في ختام معركة (رامات راحيل) فأرسلوا قوة من جنودهم هاجمت الجيش العربي الأردني في مقر قيادته في (دير مار الياس) واضطرته لاخلائه، وكان هذا الدير يقع على مقربة من (صور باهر) حيث ترابط فصائل من الاخوان فوق أن احتلاله باليهود كان يؤثر تأثيراً بعيداً في موقف القوات المرابطة في (بيت لحم)، فلم يجد الاخوان بدا من معاودة احتلاله، وتقدمت قوة منهم بقيادة المجاهد «حسين حجازي» تعاونه قوة فلسطينية من جيش الجهاد المقدس يقودها المجاهد العربي جاد الله وهاجمت اليهود على غرة واضطرتهم للانسحاب موقعة بهم كثيراً من الخسائر.

وكان هذا النجاح حافزاً على القيام بحركة جديدة، ذلك أن مستعمرة (تل بيوت) دأبت على إطلاق النيران من برجها الضخم وتسبب عن ذلك كثير من الخسائر والأضرار مما اضطر أحمد عبد العزيز إلى إصدار أوامره للأخ المجاهد (حسين حجازي) ليتولى تدمير هذا البرج الخطر.

وفي ليلة ٤ يونيو انطلقت جماعة من بيت لحم وأحيط انطلاقهم بتكتم كبير، حتى أن زملاءهم فيالقوة لم يعلموا حقيقة المهمة التي سيقومون بها، حتى لمعت برقة خاطفة أضاءت صفحة السماء وأعقبها انفجار هائل ارتجت له أركان المدينة، وشاهد الناس أحجار البرج الضخم تتناثر في الهواء ثم تتهاوى لتصنع من تراكمها قبراً كبيراً يضم نخبة كبيرة من رجال الهاجاناه.

ولقد علقت جريدة (أخبار اليوم) في عددها الصادر في ٥ يونيو تصف هذه العملية الجريئة فقالت بعد كلام طويل «وفي الليل تسلل (حسين) ومعه أربعة جنود ... وزحفوا على الأشواك في صور باهر أربعة كيلومترات تحت تهديد الرصاص الطائر في الهواء والحيات

الزاحفة بين الأحجار.

وقرب الفجر سمعت بيت لحم انفجاراً مدو ياً وتهدمت ثلاثة حصون من (تل بيوت).

وفي الصباح عاد (حسين حجازي) ليتلقى تهنئة قائده ... ومعها لقب بطل (تل بيوت)!

و بينما كان المجاهدون يوجهون ضربات مركزة في كثير من المناطق و يعدون أنفسهم للوثوب على القدس الجديدة إذا بالدول تقبل الهدنة الأولى، وتصدر أوامرها لجيشها بوقف إطلاق النار لمدة أربعة أسابيع تبدأ من ١١ يونيو سنة ١٩٤٨. ولم تكن الهدنة في حقيقتها إلا أسلوباً جديداً ابتكرته هيئة الأمم لمساعدة اليهود وتمكينهم من جلب الأسلحة الثقيلة والذخائر، ولقد كان قبولها من جانب العرب إقراراً بالأمر الواقع واعترافاً فعلياً بقيام إسرائيل.

ولم تقف فائدة الهدنة لليهود عند حد جلب السلاح والعتاد فحسب، ولكنها أيضاً كانت وسيلة لاحتلال المواقع الهامة، إذ أن أغلب المراكز الخطيرة لم يستطع اليهود احتلالها إلا بهجمات غادرة قاموا بها خلال الهدنة، وكانت الحجة دائماً عند هيئة الأمم وعند حكومة إسرائيل، أن أصحاب هذه الحركات الغادره ليسوا إلا عصابات فوضوية متطرفة.

وكانت الدول العربية تصدق هذا الزعم، وتشفق على هيبتها وكرامتها ان تجاري عصابات فوضوية، وهي الدول المحترمة ذات المركز والسلطان وعن هذا الطريق الوضيع احتل اليهود أغلب المناطق التي وقعت في أيديهم. ولقد نجح الاخوان في تكبيل المستعمرات اليهودية حول «بئر السبع» عن طريق الدوريات الكثيرة التي كانوا يبعثون بها، وعن طريق المواقع الحاكمة التي احتلوها على طرق المواصلات. فحاول اليهود اغتنام الهدنة ــ كعادتهم دائماً ــ وهاجموا قرية (العسلوج) حيث كانت ترابط قوة صغيرة يقودها اليوزباشي (عبد المنعم عبد الرؤوف).

ولم تصمد القوة الصغيرة طويلاً، امام هذا الهجوم المباغت فتسرب افرادها الى الصحراء مذعورين، حين رأوا انفسهم امام قوات كبيرة من العدو تؤيدها حشود من المدرعات والمدفعية، ومما يذكر في هذه المعركة، أن ثلاثة من الإخوان هم المجاهدون رشاد زكي

ومحمود حامد ماهر وعبد الله البتانوني من إخوان القاهرة، كان القائد وكل إليهم مهمة حراسة مخازن الذخيرة، وكانت المخازن مليئة بالأسلحة والذخائر ـ إذ كانت هذه القرية هي مستودع الذخيرة الذي يمون المنطقة ـ وأفاق المجاهدون على أنفسهم فوجدوا العدو في داخل المواقع، وسمعوه يحاول احتلال المخازن فأخذوا يتدبرون موقفهم. إنها كارثة كبرى أن يضع العدو يده على هذا السلاح الكثير في وقت يحتاج فيه الى طلقة الذخيرة الواحدة. لا بد من عمل شيء ما، ولم يدم تفكيرهم كثيراً إذ قرروا نسف المخازن حين يدخلها العدو، واختبأوا خلف كومة من الصناديق حتى امتلأ المخزن بالجنود اليهود، ثم أشعلوا النار في صناديق المفرقعات. وفي لحظة واحدة استحال البناء الضخم إلى كومة من الانقاض، ومات الأبطال الثلاثة بعد أن ثأروا لأنفسهم وجروا العدو الغادر إلى كارثة مدمرة.

كان احتلال هذا الموقع يعني قطع مواصلات الجيش المصري في الجبهة الشرقية، مما دعا القيادة العامة إلى تنظيم خطة لاسترداده، وفي اليوم التالي تحركت قوة كبيرة من الجيش النظامي تعاونها المدفعية والسيارات المدرعة ولكنها فشلت في الإقتراب من القرية، لاستماتة العدو في الدفاع عنها.

فاستنجدت القيادة العامة بالبكباشي أحمد عبد العزيز الذي وكل الأمر لليوزباشي محمود عبده قائد الإخوان في «صور باهر» ليتولى إرسال قوة من رجاله تسترد هذه المواقع، وأترك وصف النتيجة لسعادة اللواء أحمد محمد علي المواوي (بك) القائد العام للقوات وهي مقتبسة من شهادة أدلى بها بين يدي القضاء في إحدى قضايا الإخوان المسلمين التي عرفت باسم (قضية سيارة الجيب).

وكانت اجابته رداً على سؤال وجهه إليه الدفاع في القضية المذكورة.

ـ هل كلفتم المتطوعين بعمل عسكري خاص عند مهاجمتكم العسلوج؟

ـ نعم. العسلوج بلد تقع على الطريق الشرقي واستولى عليها اليهود في أول يوم الهدنة، ولهذا البلد أهمية كبرى بالنسبة لخطوط المواصلات وكانت رئاسة الجيش تهتم كل الإهتمام باسترجاع هذا البلد، حتى أن رئيس هيئة أركان الحرب أرسل إلي إشارة هامة يقول فيها (لا بد من إسترجاع العسلوج بأي ثمن) فكانت الخطة التي رسمتها لاسترجاع هذا البلد هي الهجوم عليها من كلا الطرفين من الجانبين فكلفت المرحوم أحمد عبد العزيز بإرسال قوة

من الشرق من المتطوعين وكانت صغيرة بقيادة ملازم وأرسلت قوة كبيرة من الغرب تعاونها جميع الأسلحة، ولكن القوة الصغيرة هي التي تمكنت من دخول القرية والاستيلاء عليها.

ولما سأله المحامون عن السبب في تغلب القوة الصغيرة أجاب: — القوة الغربية كانت من الرديف وضعفت روحهم المعنوية بالرغم من وجود مدير العمليات الحربية فيها الا أن المسألة ليست مسألة ضباط، المسألة مسألة روح، إذا كانت الروح طيبة يمكن للضابط أن يعمل ما يشاء ولكن إذا كانت الروح ميتة لا يمكن للضابط أن يعمل شيئاً، لا بد من وجود الروح المعنوية، وهكذا تحررت (عسلوج) وكان تحريرها على يد قوة من الاخوان بقيادة ضابط ملازم، هو الأخ المجاهد «يحيى عبد الحليم» من إخوان القاهرة.

ورغم هذا النجاح الباهر الذي أحرزه الاخوان، وعظم الخسائر التي مني بها العدو، كانت خسائرها صغيرة جداً لا تتجاوز عدداً من الجرحى من بينهم قائد القوة المهاجمة المجاهد (عبد الحليم).

بدأ أحمد عبد العزيز خلال الهدنة يجمع قواته المبعثرة ويحشدها في (بيت لحم)، ويبدو أن القيادة العامة المصرية رضخت للأمر الواقع فأمدته ببعض الأسلحة والذخيرة وزودته بعدد من الجنود، فأخذ يحصن نفسه داخل المدينة، واقام خطاً دفاعياً حولها يمتد من (صور باهر) إلى (كرمزان) ماراً بقرى (مار إلياس) و (بيت صفافا) و (شرفات) و (الولجا)، وإلى جانب ما أثبته الاخوان من بطولة ومقدرة في الأعمال الهجومية، فإن مقدرتهم على الدفاع والتحصين كانت مثار إعجاب الضباط والمراقبين، وكانت مواقع (صور باهر) الحصينة وما اقيم بها من خنادق (ودشم) نحتت ببراعة في الأرض الصخرية الصلبة، تشهد بعظم الجهد الذي بذله الإخوان لتحصين هذه القرية العربية، والاختفاظ بها حتى آخر مراحل القتال رغم الهجمات المتوالية التي شنها العدو، وحاول فيها احتلالها ليضع القوات المرابطة في بيت لحم والخليل كلها تحت رحمته.

وكانت أولى المحاولات التي قام بها العدو هي اقدامه على محاولة احتلال مرتفعات (جبل المكبر) في ١٨ أغطس سنة ١٩٤٨.

يقع جبل المكبر إلى الجنوب الشرقي من القدس القديمة، وهو مرتفع منيع يستطيع من يحتله أن يهيمن على القدس كلها، ويقطع الطريق الرئيسي الذي يصلها بعمان، فوق أنه

يتحكم في القوات المتطوعة التي ترابط في جنوب القدس، وكان هذا المرتفع إحدى حلقات الدفاع التي يتولاها الإخوان المسلمون المرابطون في قر ية (صور باهر).

ولقد كان اليهود يؤملون في مهاجمة الإخوان على غرة، فبدأت جوعهم تتحرك في الساعة الثامنة من مساء ١٨ أغسطس من أحياء القدس اليهودية ومن المستعمرات الواقعة في جنوبيها، ثم بدأوا يزحفون في سكون وهدوء غير أن نقط المراقبة الأمامية فطنت لهذه الحركة وأرسلت تخبر قائد (صور باهر) بهذا النبأ وتطلب توجيهاته السر يعة، وبدأ (محمود عبده) يفكر في الموقف و يضع خطته على أساس الأنباء التي تصل إليه تباعا، ولم يكن يعنيه وقف الزحف اليهودي والاحتفاظ بالموقع، ولكنه كان ير يد إبادة هذه القوات وتلقين اليهود درسا قاسيا يحفظونه عن الإخوان وشدتهم في القتال.

وحين بدأ يتحرك بقوته من (صور باهر) كانت عواصف الرصاص تثور في قمة الجبل وكان التليفون يخبره أن طلائع العدو قد اشتبكت مع مواقع الأخوان الأمامية.

وما أن وصل حتى كانت المعركة في أعنف مراحلها، وكان واضحاً أن العدو يستميت في احتلال هذا الموقع و يقذف كتلا هائلة من قواته لتحقيق الغرض في أقصر وقت ممكن، وكلما تكسرت موجة تحت أقدام الأبطال المؤمنين تدفقت في أثرها موجة أخرى.

ولا عجب في ذلك فقد كان طر يق الإمداد مفتوحاً على مصراعيه، والقدس اليهودية وفيها عشرات الألوف على مرمى حجر من أرض المعركة. فصمم (محمود عبده) على التصرف السر يع وكانت أولى الخطوات التي أقدم عليها أن أمر فصيلة من جنوده فدارت إلى اليمين واقترىت من الطر يق الذي يستخدمه العدو في تحركاته وأخذت تطلق النار على القوافل التي تتحرك صوب المعركة، وفي نفس اللحظة كان يصدر أمره للمدافعين عن الجبل بالانسحاب إلى الوراء فظن العدو أن المقاومة قد انتهت، فتقدم ليحتل المواقع التي أخلاها المجاهدون وفي نفس الوقت كانت أفواه المدافع تنفتح من كل صوب وتقذف كتلاً من اللهب على قمة الجبل، ولم يكن لليهود ما يحتمون فيه، فقتل منهم عدد كبير، فبدأوا يتراجعون في ذعر وارتباك.

تقدمت بعد ذلك قوات من المشاة وحاصرت قمة الجبل، واشتبكت مع العدو في قتال عنيف، وحاول اليهود التراجع إلى القدس بعدما يئسوا من وصول النجدات المطلوبة، ولكن

القوة الخلفية فاجأتهم بالنيران الحامية. و بينما كانت المعركة تسير على هذا النحو المرسوم إذ اصيب اليوزباشي (محمود عبده) بطلقات طائشة فحمله مرافقوه للخلف دون أن يفطن أحد، و بعثوا برسالة مستعجلة لقيادة بيت لحم يخبرونها فيها باصابة القائد، ولم تمض إلا لحظات حتى جاء الأخ المجاهد (لبيب الترجمان) ليتولى قيادة المعركة في مرحلتها الختامية.

أخذ اليهود يتسللون فرادى إلى المنطقة الحرام ودار الحكومة حيث يوجد بعض مراقبي الهدنة ورجال هيئة الأمم وفطن الإخوان للامر فتابعوهم إلى هناك، وضربوا حصاراً محكما حول دار الحكومة وهددوا بتدميرهم، مما اضطر رجال هيئة الأمم إلى الاستغاثة بالبكباشي (أحمد عبد العزيز) الذي جاء لتوه، واستجاب لرغبة مراقبي الهدنة بوقف إطلاق النار، ولكنه أصر على احتلال مرتفع يدعى (رأس الاحرش) يشرف على دار الحكومة والحي اليهودي بالقدس. و بذلك أصبح الإخوان خطراً شديداً يهدد القدس الجديدة واتخذوا من هذا الموقع نقطة يراقبون منها حركات اليهود وسكناتهم.

وحاول اليهود في اليوم التالي القيام بهجوم كبير على نفس هذه المواقع أملاً في احتلالها ورد اعتبارهم بعد هزيمة الأمس، ولكن يقظة الإخوان واستماتتهم في الدفاع وقفت سداً منيعاً دون وصولهم لهذه الغاية، مما اضطرهم إلى التراجع في ذلة وانكسار؛ وكانت خسائرهم في هذه المرحلة تتجاوز المائتين حسب تقدير مراقبي الهدنة عدا فقدانهم لجميع الأسلحة والمعدات التي دفعوا بها في هذه المعارك.

بدأت بعد هذه الفترة مرحلة مفاوضات طو يلة لتخطيط حدود المنطقة الحرام، وكان أحمد عبد العز يز فخوراً بجنود الإخوان وبما أحرزوه من انتصار رائع، مما جعله يملي إرادته على اليهود و يضطرهم للتخلي عن منطقة واسعة مهدداً باحتلالها بالقوة، وكانت المفاوضات تدور في مقر قيادة الجيش العربي بالقدس ويحضرها الكولونيل (عبد الله التل) القائد العربي في المدينة المقدسة، وحين انتهت المفاوضات في ليلة ٢٢ أغسطس أراد أحمد عبد العز يز أن يحمل نتائجها إلى القيادة المصر ية العامة في (المجدل) واصر على أن يذهب في ليلته، وكانت المعارك في ذلك الحين تدور بشدة على الطر يق المؤدي للمجدل مما جعل ضباطه يلحون عليه في التر يث وعدم الذهاب، ولكنه قطع هذه المحاولات حين قفز إلى سيارته (الجيب) وهو يردِّد: «قل لن يصيبنا إلا ما كتبَ اللهُ لنا» وانطلقت السياره في طر يق المجدل ولم يكن

معه إلا اليوزباشي (الورداني) واليوزباشي (صلاح سالم) من ضباط رئاسة المواوي، وسائق سيارته.

وكانت «عراق المنشية» في ذلك الحين تستهدف لهجمات متواصلة مما دعا القيادة العامة إلى منع السير على هذا الطريق بالليل.

وما أن وصلت السيارة إلى مواقع عراق المنشية حتى صاح الحارس يأمر، السيارة القادمة بالوقوف، ولكن سوء الحظ تدخل هذه المرة، إذ ضاع صوت الحارس في ضجيج السيارة فأطلقت نقطة المراقبة النار، وتدخل سوء الحظ مرة أخرى حين أصابت أول رصاصة البكباشي (أحمد عبد العزيز) في جنبه، وحمله مرافقوه إلى عيادة طبيب بمدينة (الفالوجا) ولكن قضاء الله سبقهم اليه، فصعدت روحه إلى بارئها.

ولم يكد الخبر يذاع على الناس حتى عم الوجوم الجميع، وبكاه كل فرد في الجيش، وكان أكثر الناس حزناً عليه والماً لفراقه أولئك الجنود الذين زاملوه في الميدان وقاسموه مرارة الهزيمة ونشوة النصر، ونعته وكالات الأنباء ومحطات الإذاعة العالمية وأسف لفقده الحلفاء والاعداء، ونعوه للناس بمزيد الإعجاب والإكبار، وبموت أحمد عبد العزيز طويت صفحة من أمجد صفحاتنا العسكرية، وأفل نجم لامع كان في سمع الناس وبصرهم، وخلا بذلك مكانه في الميدان، وصعدت روحه الطاهرة لتحتل مكاناً مرموقاً في ملكوت الله وجنته ورفع اسمه من كشوف الجيش المصري ليحفظ في سجل التاريخ، كأبرز شخصية عسكرية أنجبته حرب فلسطين.

مات أحمد عبد العزيز فعينت القيادة العامة ضابطاً جديداً لقيادة (بيت لحم) هو البكباشي «محمد فكري» من سلاح المدفعية، لكنه عاد بعد أيام قلائل، حين لم يستطع التفاهم مع ضباط المتطوعين، فرأت القيادة أن تبعث البكباشي «عبد الجواد طبالة» قائد كتيبة المتطوعين الثانية. والتي كانت تتولى محاصرة المستعمرات وحراسة بعض النقط على خطوط المواصلات.

ولقد أتمت هذه الكتيبة تدريبها في معسكر (الهاكستب) بعد سفر الكتيبة الأولى، وكانت هذه الكتيبة تحوي عناصر طيبة من الإخوان كان على رأسهم الأخ المجاهد (صلاح

البنا) الذي كان له أبعد الأثر في تنظيمها وتدريبها، وكان مقرراً لهذه الكتيبة أن تحتل مدينة (بئر السبع) وتدافع عنها غير أن قائدها أشار باستحالة تنفيذ ذلك، لنقص مرتبها في الأسلحة، وخلوها تماما من مدفعية الميدان والمدفعية المضادة للدبابات وأخيراً استقر الرأي على أن تحاصر بعض المستعمرات الواقعة في منطقة غزة ــ رفح فأبلت في القيام بهذا الدور أحسن البلاء.

وظلت على هذا الوضع حتى موت أحمد عبد العزيز وحين استدعت الحالة ذهاب قائدها لتولي القيادة في (بيت لحم) تقرر انتقالها للانضمام لزميلتها (الأولى)، وتكونت من الكتيبتين وممن انضم إليهما من جماعات المناضلين والسودانين والليبين القوة التي عرفت باسم (القوة الخفيفة) والتي كان لها الفضل في المحافظة على منطقة الخليل وبيت لحم وتسليمها لقوات شرق الأردن بعد نهاية الحرب وإعلان الهدنة.

وصل القائد الجديد وافتتح نشاطه بالمرور على خطوط الدفاع. وكانت الحالة في المنطقة هادئة نسبياً إلى أن نقض اليهود الهدنة بعد أيام قلائل فاحتلوا منزلا قريباً يقع في الشقة الحرام واتخذوا منه وكراً خطيراً للقناصة يستعيضون به عن البرج الذي نسفه الإخوان في (تل بيوت). وأخذوا يطلقون منه النار على المجاهدين في مواقعهم، وحاولوا اقتناص قائد المنطقة نفسه حين كان يحاول الوصول إلى دار الحكومة للاجتماع بمراقبي الهدنة، وكانت الأنباء تشير إلى أن لجنة من كبار ضباط الجيش الاسرائيلي قد نزلت في هذا البناء واتخذته مقراً تشرف منه على جبهات المتطوعين وتضع خطة لمعارك شاملة تكتسح فيها هذه القوات.

لم يكن هناك بد من تدمير هذاالبناء فصدرت الأوامر لقائد الاخوان في (صور باهر) ليتولى تنظيم هذه الخطة وتنفيذها، وفي ليلة حالكة الظلام تسللت جماعة من الاخوان تحمل ألغامها واسلحتها ووجهتها هذا المنزل المقام بين ثلاثة مستعمرات من أخطر مستعمرات اليهود واستمروا يزحفون على بطونهم وقتا طويلا حتى اقتربوا منه، وبينما كانوا يعالجون فتح الباب الخارجي انتبه اليهود للحركة، فأخذوا يطلقون عليهم النار من أعلى المنزل ومن (الدشم) المسلحة المقامة حوله، وبادلهم الاخوان الضرب، غير أن شدة النيران المنبعثة من المنزل وخشية الاخوان من المستعمرات القريبة، جعلتهم يلقون الغامهم بعيداً عن البناء ويشعلونها، وحين انفجرت أحدثت دوياً هائلا، غير أن البناء ظل قائماً كما كان! وجرح

في هذه الحركة الأخ (عثمان عبد المجيد)، وحمله رفاقه معهم إلى معسكرهم في (صور باهر). وثار قائد (صور باهر) على هذا الفشل، وأصر على تدمير البناء، وفي اليوم التالي تحركت قوة كبيرة مكونة من بعض الاخوان السوريين، وعدد من مجاهدي الاخوان الأردنيين، وقد اشتبكت هذه القوة في معركة مع حماة البناء، غير أنها نجحت في الوصول إلى المنزل وتدميره على جميع من فيه من الضباط والجنود وأترك للبكباشي (طبالة) قائد القوة الخفيفة الكلام عن هذه العملية الجريئة في مقال نشرته له إحدى المجلات العسكرية تحت عنوان (ولاء في بطولة).

عالج قائد الدورية الباب معتمداً على أن صوت الرصاص يعلو صوت معالجة الباب، ولكن الباب لم يفتح فهو موصد من الداخل، وإذا بالقائد يضغط بسبابة يمناه (تنك) سلاحه فيطير قفل الباب و يفتح على مصراعيه، وفي لحظات أشعل الآخرون العبوات وألقوا بها داخل الدار وارتد الجميع للخلف قليلا ورقدوا إلى أن صم آذانهم صوت انفجار هائل تطاير على أثره الغبار في كل مكان.

وإن هي إلا غمضة عين فتسمع أنة موجعة صادرة من أحدهم فهرع اليه القائد فوجد الدم ينزف من جرح في رأسه. فحمله بمعاونة زملائه وهرعوا عائدين وكل منهم يتلفت للخلف ليروا أثر ما عملوا فلا يروا إلا غباراً يعلو الأرض، إلى أن وصلوا حوالي الرابعة صباحاً إلى رئاسة القطاع، وبين يدهم زميلهم الجريح يحتضر لكثرة ما نزف من الدماء. ولم تجد معه الاسعافات فلفظ أنفاسه الأخيرة وهو يتساءل عما حل بالمنزل فلما علم بتدميره تماماً لفظ النفس الأخير والارتياح التام باد على أسار يره.

وفي الصباح الباكر كان قائد الفدائيين يستقبل ضوء الشمس في مواقع «صور باهر» و يترحم على الشهيد البطل و يودعه إلى مثواه الاخير ثم عاد ليلقي نظرة على موقع المنزل فإذا هو حطام يضم بين أحجاره جثث عشرين من اليهود الغادرين، حاولوا الاعتداء عليه في الصباح فحكم عليهم جنوده (أن لا يروا ضوء صباح تال). اما شهيدنا المبرور في هذه المعركة فهو المجاهد (ضيف الله) من الاخوان المسلمين السوريين. وفي المساء كانت محطة إسرائيل تذيع نبأ المعركة وتنعى إلى اليهود مقتل ضابط إسرائيلي برتبة كبيرة ومعه عدد من

ضباط الجيش وجنوده. ماتوا تحت الردم على مقربة من مواقع الاخوان المسلمين في (صور باهر).

في منتصف شهر اكتوبر كانت الجبهة المصرية مسرحاً لعمليات واسعة النطاق، وكانت منطقة (الفالوجا) في ذلك الوقت تهاجم بعنف وشدة، والجدل عرضه لغارات جوية مروعة، وفي ذلك الوقت ايضاً كانت القيادة الاسرائيلية في القدس تحاول تصفية حسابها مع قوات المتطوعين في «بيت لحم» وبدأت أعمالها بهجوم حاد على (صور باهر) غير أن هجماتها المتكررة تكسرت تحت تحصينات الاخوان القوية.

فاخذت تدور حول خطوط الدفاع تتلمس أضعف النقط فيها حتى نجحت يوم ١٩ اكتوبر في اقتحام مرتفع شاهق يعرف بتبة (اليمن)، ولم يضيع اليهود الفرص فأخذوا يحشدون قوات كبيرة و يعدون انفسهم للوثوب على المرتفعات المجاورة والسيطرة على بيت لحم، مما اضطر قيادة (صور باهر) إلى إرسال قوة كبيرة لتقوم بهجوم مضاد تستعيد به هذا المرتفع. وبدأت المعركة بين الفريقين حامية شديدة، وكان مما يستلفت النظر و يدعو للاعجاب هو براعة اليهود وسرعتهم الفائقة في أعمال التحصين، لا تكاد قواتهم تستقر في موقع من المواقع إلا وتسارع بتحويله إلى قلعة محصنة.

وكان ذلك مما يساعدهم دائماً على الاحتفاظ بالمواقع التي تسقط في ايديهم، و يبدو ان هذه الظاهرة ناتجة عما عرف عن المقاتل اليهودي من جبن وضعف، فهو يستعيض عن الشجاعة الأصلية بتحصينات مصطنعة ولا يقوى على مواجه خصمه في الدفاع الا اذا كان مختفياً خلف اطباق كثيفة من (الدشم) والأسلاك الشائكة.

نجح الاخوان في الهجوم الذي شنوه وتراجع اليهود بعد مقاومة شديدة وخسائر من الطرفين، وكان يضاعف من هذا النجاح أهمية الموقع وخطورته الشديدة لوبقي في يد اليهود، وهأنذا أنقل نص إشارة رسمية بعثتها قيادة «بيت لحم» إلى الجهات العسكرية المسئولة بتاريخ ٢٠ اكتوبر ١٩٤٩.

(قام العدو بهجوم عنيف على جميع مواقعنا الدفاعية تحت ستار غلالة شديدة من نيران الاسلحة الأوتوماتيكية والهاونات وقاذفات الالغام والمدفعية الثقيلة، صدت قواتنا الهجوم، تمكن العدو من الاستيلاء على مواقعنا بجبل (اليمن)، قامت قوة من الاخوان المسلمين بقيادة

الملازم اول خالد فوزي بهجوم مضاد فطردت العدو بعد أن كبدته خسائر فادحة، (خسائرنا ضعيفة وقد ابلغنا مراقبي الهدنة).

وقد علقت اغلب الجرائد العربية واليهودية على هذه المعركة وذكرت جهود الاخوان فيها بالاكبار والاعجاب، وكتبت جريدة (الناس) العراقية في عددها الصادر يوم ١١/٧ مقالا تحت عنوان (بسالة متطوعة الاخوان المسلمين) جاء فيه (... وان اليومين الماضيين امتازا ببسالة منقطعة النظير من متطوعة الاخوان المسلمين فقد استولى اليهود شمالي غربي بيت لحم بعد محاولات عديدة على جبل مرتفع يسمى «تبة اليمن» و يشرف على قرى «الولجة» و «عين كارم» و «المالحة» وما جاورها وأصبحوا يهددون كل المناطق المحيطة بها.

ورات قيادة الجيش المصري ضرورة تطهيرها فندبت لذلك عدداً من متطوعة الاخوان المسلمين في (صور باهر)، فتقدمت سرية منهم، ولم تمر ساعة حتى كانت هذه الفرقة قد اجهزت على القوة اليهودية وغنمت ذخيرتها ومتاعها وحررت قرية «الولجة» وأصبحت تسيطر على منطقة واسعة وقد اصدرت قيادة الجيش المصري امرا بتسمية الجبل (تبة الاخوان المسلمين) وقد استشهد من الاخوان كل من مكاوي سليم علي من الزقازيق والسيد محمد قارون من المنصورة وابراهيم عبد الجواد من الفيوم، رحمهم الله رحمة واسعة).

يئس العدو من اقتحام «بيت لحم» و «الخليل» لوجود هذه القوات المؤمنة فيها، فبدأ يركز هجومه على مناطق «اسدود» و «المجدل». واستطاع ان يرغم القوات المصرية على إجلاء هاتين المنطقتين والايقاع بقوة كبيرة حاصرها في الفالوجا وظل يحاصرها حتى نهاية الحرب. وبحصار الفالوجا عزلت قوات المتطوعين عن القيادة العامة تماما، ولم يعد لها طريق يصلها بالقاهرة سوى الطريق الجوي الذي يصل عمان بالقاهرة.

وبدأت هذه القوات المغامرة تقاسي محناً شديدة سببها الحصار الشديد، وكثرة ما تعرضت له من هجمات متواصلة، ورغم ذلك كان كل ما يشغل الاخوان هو مصير اخوانهم المحصورين في الفالوجا، فبدأوا ينظمون بمعونة المجاهدين العرب خططاً لتموينهم، وتسللت قوافلهم عبر الصحاري الواسعة التي يسيطر عليها العدو، تحمل المؤن للقوات المصرية المحصورة، وتتعرض في طريقها الطويل لكثير من المآزق والاخطار.

وكم من مرة اصطدمت القوافل مع دوريات اليهود واشتبكت معها في معارك دامية، ونتج عن ذلك كثير من الخسائر، ولكن الاخوان لم يكونوا يحسبون للموت حسابا ما دام ذلك في سبيل وطنهم وكرامة جيشهم.

واذا ذكر هذا النشاط الرائع فلا يمكن ان نغفل الدور الخطير الذي قام بها اليوزباشي (معروف الحضري) حين قاد جماعات الاخوان المسلمين في تسللها إلى (الفالوجا) وظل يؤدي واجبه بايمان وثبات حتى ظفر اليهود به في إحدى العمليات، ونقلوه إلى خطوطهم الخلفية حيث ظل يقاسي مرارة الأسر في معسكراتهم حتى من الله عليه بالنجاة، حين انتهت الحرب وتم تبادل الاسرى.

وبينما كان الاخوان يعملون بهمة وإخلاص في تموين (الفالوجا) ومعاونتها على تحمل آلام الحصار ويستميتون في الدفاع عن مناطق (بيت لحم) و (الخليل)، إذ روع العالم الاسلامي بنبأ القرار الغاشم الذي اصدره (النقراشي) وحل بموجبة هيئة «الاخوان المسلمين» في مصر، وكانت طعنة نجلاء وجهها الانجليز على يد صنائعهم من المستورين إلى ظهر الشبيبة الاسلامية المحاربة.

وجن جنود الاخوان عند سماعهم هذا النبأ، غير ان الاوامر التي وصلتهم بعد ذلك من المرشد (الشهيد) كانت تأمرهم بالتزام الهدوء والاخلاد إلى السكينة. ولن يتصور احد عظم الكارثة التي كان يمكن ان تقع لو ركب (الاخوان) رؤوسهم، وقاموا بأي إجراء طائش، إذ كانوا هم وحدهم يدافعون عن منطقة من اكبر المناطق والعدو يحيط بهم من كل جانب وينتظر الفرصة ليبتلع هذه المدن الغنية الواسعة وقدر الاخوان عظم الخطر، فقهروا عواطفهم واكتفوا بارسال برقية إلى كبير الامناء بقصر عابدين ضمنوها سخطهم الشديد لصدور هذا الاجراء الظالم.

ثم عكفوا على اداء واجبهم من جديد وكأن شيئاً لم يحدث حتى انتهت الحرب واعلنت الهدنة وبدأوا يغادرون اسر اليهود ليقعوا مرة اخرى في اسر السعديين، وقدر لهم ان يلبثوا في الأسر الآخر عاما كاملاً، قضوه بين معسكرات الاعتقال في (رفح) و (العريش) حتى انهارت قوائم العهد الأغبر بما حملت من اوزار وآثام، وبدأ المجاهدون يستردون حرياتهم المفقودة شيئاً فشيئاً..!!

١٣ ــ دخول الجيش المصري إلى فلسطين

«ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى
يحكم الله بينه و بين عدوه»
محمد رسول الله

توغل الجيش المصري في أرض فلسطين، غير مبال بخطر شديد يجثم على ميمنته، و يتمثل في عدد هائل من المستعمرات المحصنة التي أعدت بإتقان، لتقوم بدورها في الوقت المناسب.

وكانت الخطة العربية العامة تقضي بأن يحتل هذا الجيش قطاعاً هائلاً يمتد من قرية (رفح) على الحدود المصرية إلى قرية (يبنا) على مسيرة عشرين ميلاً من تل أبيب، حيث تكون الجيوش العربية الأخرى الزاحفة، قد احتلت نقطاً مماثلة قريبة منها، ثم تتجمع هذه القوات وتتصل مكونة حلقة فولاذية حول عاصمة العدو، لتفصلها عن بقية المناطق.

وكان واضعوا الخطة يعتقدون أن احتلال العاصمة، سينهي هذه الحرب و يضطر العصابات اليهودية المسلحة إلى الإستسلام.

ولقد فات هؤلاء أن المستعمرات اليهودية قد وزعت في فلسطين توزيعاً عسكرياً تحت إشراف الإنجليز، يضمن لليهود الإستمرار في القتال مدة طويلة وأن كل مستعمرة من هذه المستعمرات كانت تحتوي على أعداد كبيرة من الجند ومقادير هائلة من السلاح والعتاد، ويمكن لهذه القوات أن تتجمع وتكون جيشاً لجباً، وتستمر في المقاومة حتى تتدخل الدول الكبرى وتضيع على العرب ثمرة انتصارهم.

على أن هذه الخطة لم يقدر لها النجاح، لما انطوت عليه من جهل بالغ بقوى العدو وأساليبه في المقاومة، فضلاً عن عدم التعاون الذي لم نلمس أي أثر له في تنفيذها بين الجيوش العربية، التي

كان مفروضاً أن تعمل تحت قيادة موحدة، ولكن ما كادت المعركة تدخل دورها الحاسم حتى أصبح كل جيش يقاتل على حدة في المنطقة التي اختص بها، ولقد زادت هذه الحقيقة وآثارها وضوحاً حين اشتد الضغط على جبهة الجيش المصري في الجنوب، وظلت الجيوش العربية الأخرى تنعم بالهدوء والراحة خلال الهدنة!

لم تحاول المستعمرات اليهودية إذن أن تعترض طريق الجيش المصري حسب الخطة اليهودية العامة، بل أظهرت كل معاني الضعف والإستسلام وكان بعضها يرفع الأعلام البيضاء على قمم الأبراج الشاهقة، حتى يمضي الجيش في تنفيذ خطته.

ولقد حاول الجيش المصري دخول بعض المستعمرات القريبة من مواصلاته، وتركه اليهود يقترب منها ثم أخذوا يطلقون النار على وحداته من أبعاد قريبة، فحاول الجيش اقتحامها بالقوة، وكانت أول محاولة له أن هاجم مستعمرة (نيريم) الدنجور على الحدود المصرية في ١٦ مايو ودكها بالمدفعية، ثم حاول اقتحامها بمشاته ولكنه وجد فيها مقاومة عنيفة اضطرته لصرف النظر عن محاولته. ومواصلة الزحف مكتفياً بمحاصرتها.

وتكررت المحاولة على كثير من المستعمرات ولكن هذه المحاولات ذهبت عبثاً رغم كثرة الخسائر التي تكبدها الجيش. ولا أستطيع أن أمر على ذكرى هذه المعارك دون أن أشير إلى الروح المعنوية العالية التي كان يتمتع بها أفراد هذا الجيش. هذه الروح التي دفعتهم لملاقاة الموت بصدور عارية. والتقدم صوب الأبراج المحصنة دون أدنى وقاية يحتمون بها، إلا إيمانهم بالله وثقتهم في نصره وتأييده.

ولقد أثبتت هذه الروح القوية وجودها وآتت ثمارها يوم أصر الجيش على اقتحام مستعمرة دير سنيد المحصنة في يوم ١٩ مايو وقاوم العدو مقاومة عنيفة، غير أنه اضطر إلى إخلائها أمام ضغط هؤلاء الجنود البواسل وشدة بأسهم تاركاً خلفه عشرات من القتلى وكميات وفيرة من المؤن والعتاد مما سيرد تفصيله بعد قليل. ثم واصل تقدمه شمالاً وأخذ يهاجم (كفار ديروم) و(بيرون اسحاق) و(كوكبة) و(نجبا) وغيرها وقد نجح في اقتحام (نيتسانيم) بعد معركة دامية أظهر الجنود المصريون فيها ضروب من البسالة ما يجعلهم في طليعة المقاتلين الممتازين، غير أن هذه الروح العالية لم تلبث أن ضعفت بعد تدخل السياسة وفرض الهدنة الأولى والثانية، وما صحب هاتين الهدنتين من انسحابات وهزائم.

ومما يجدر بي ذكره في هذا الموضع أن الجنود المصريين ـ على الرغم من هذه الروح العالية وما أظهروه في بداية الحرب من شجاعة وثبات ـ كان واضحاً ما عليه حالتهم من نقص في التدريب والمقدرة خاصةً فيما يتعلق (بالأعمال الليلية)، حين كانت هذه الناحية متوفرة تماماً في قوات العدو، ولا أظن إلا أن حضرات الضباط ممن اشتركوا في الحملة يوافقونني على هذه الملاحظة، إذ كان العدو يقوم بأغلب معاركه في الليالي المظلمة وبصورة تنبيء عن مقدرة فائقة ومستوى عال في التدريب.

كان مقرراً للجيش المصري كما ذكرت أن يواصل تقدمه إلى (يبنا) حسب الخطة العربية العامة، ولكن ما كادت طلائعه تتجاوز (أسدود) وتقترب من الهدف، حتى تجمعت القوات اليهودية من منطقة (رحبوت)، وهاجمته هجوماً عنيفاً، غير أن الجيش أفلح في صد هذا الهجوم وتكبيد العدو خسائر فادحة ولكن اليهود بهجومهم هذا حققوا نتيجة واحدة، هي (تثبيت) الجيش المصري في أسدود. وكانت هذه هي نقطة التحول في الحرب إذ لزم الجيش المصري موقف الدفاع عن نفسه وعن الأرض التي احتلها، وتغيرت تبعاً لذلك نظرة القيادة العامة للموقف، وأخذت تنحو منحى جديداً، فبدل أن تبذل جهدها في تتبع العصابات اليهودية والقضاء عليها رأت أن تعزل مستعمرات النقب عن بقية أجزاء فلسطين فزحفت القوات المصرية شرقاً واتصلت بقوات المتطوعين المصريين المرابطة في جبال الخليل، وبذلك أصبحت القوات المصرية تكون إطاراً وهمياً حول منطقة معادية تموج بعشرات المستعمرات وعشرات الألوف من الجنود.

والآن أريد أن أتساءل ما الذي كان يحدث لو تجمع اليهود على حدود مصر الشرقية، وحاولوا الإشتباك مع الجيش المصري عند دخوله لمنعه من التوغل في أراضي فلسطين؟ لا شك أن القيادة المصرية كانت تراجع موقفها، وتحجم عن المضي في تنفيذ خطتها قبل أن تظهر هذه «الجيوب» الخطرة التي يتجمع فيها العدو.

ولكن اليهود لم يفعلوا ذلك، لا ضعفاً منهم كما يقول البعض، ولكنهم وضعوا خطتهم الدفاعية على أساس (بعثرة) الجيش المصري وإعطائه الفرص ليحتل مساحات شاسعة، مع علمهم أنه لا يملك القوة العددية الكافية ليسيطر على هذه المناطق الواسعة سيطرة صحيحة، وعندئذ تقوم المستعمرات بدورها المرسوم فتهاجم قواته ويصبح من الميسور القضاء عليه.

ولقد كان الإنسان منا يعجب كثيراً وهو يمر على بعض المراكز الهامة التي يحتلها الجيش، فلا يجد إلا قوات ضئيلة مبعثرة هنا وهناك لا يمكنها الوقوف أمام أي هجوم لأكثر من دقائق معدودة

وكان هذا هو الوضع الطبيعي لجيش قليل العدد اضطرته ظروفه لحماية مناطق شاسعة يعجز عن حمايتها اضعاف اضعافه، وليست هذه الخطة التي اتبعها اليهود من تفكيرهم ووضعهم، ولكنها خطة قديمة استعملت اكثر من مرة : استعملها الروس امام نابليون حينما تركوه يحتل المناطق الشاسعة من الاراضي الروسية قبل ان يقوموا بالهجمات المضادة على جيشه، واستعملها الروس مرة اخرى حين عبرت الجيوش الألمانية الأراضي الروسية في يونية عام ١٩٤١ عندما تركت المناطق الشاسعة ليحتلها النازيون فتتبعثر بذلك جيوشهم و يصبح من الميسور القضاء عليها وإيقاع الهزائم بها كما حدث بعد ذلك.

وقد تعجب حين تعلم ان كثيراً من ضباط أركان الحرب في الجيش الاسرائيلي، كانوا ضباطاً في الجيش الروسي خلال الحرب الروسية الألمانية وكانت هذه الخطط دروساً مستفادة، نفذت بصورة مصغرة في فلسطين ونجحت نجاحاً منقطع النظير.

ولست ادري كيف غابت هذه المعاني عن اذهان القادة العسكريين في الجيوش العربية، ولن يزال سر هذه الخطة قائماً، يتذبذب بين (اللواء المواوي) القائد الاول للحملة، وبين الساسة المصريين الذين كانوا يحركون القتال من القاهرة، والذين كان اكبر همهم كسب الرأي العام، وانتزاع تصفيقه للجيش الباسل الذي احتل ثلث فلسطين في مدة لا تتجاوز عشرين يوماً، ببركة وزارة السعديين، وحسن سياستهم!!

على ان انصار (المواوي) يقولون إن الرجل لم يغب عن ذهنه ما في هذه الخطة من خطر. ولكنه كرجل عسكري كان ينفذ ما يؤمر به مضطراً، و يواصل الزحف كلما صدرت إليه الأوامر، ولكن انصاره يعودون فيقولون إن الواجب كان يقضي عليه باعتزال القيادة، ومغادرة الميدان، وعدم المجازفة بسمعته العسكرية كقائد، وسمعة الجيش بتعريضه للهزيمة المنكرة، من جراء خطة مرتجلة.

ولسوف تظل هذه النقطة الخطيرة التي رتب عليها ما حل بالجيش وما حدث في فلسطين سراً مغلقاً، حتى يأتي يوم يستطيع فيه (المواوي) أن يواجه أمته وأن يحدد مسئولية الكوارث

التي تعرض لها جيشنا في فلسطين والتي كادت تودي به لولا لطف الله وعنايته.

ولقد اوضحت في كلامي عن جهود المتطوعين في الدفاع عن بيت لحم كيف رأت القيادة العامة أن تجمع كتائبهم في بيت لحم والخليل، وحين تمت هذه الخطوة لم يبق مع القوات الرئيسية المصرية سوى قوات الاخوان الحرة التي كان يقودها مؤرخ هذه الصفحات والتي نفرد الأبواب التالية لمتابعة اعمالها والوقوف على مدى تأثيرها في سير العمليات التي دارت في هذه الجبهة.

كانت مهمة الاخوان في ذلك الوقت تتلخص في إرباك مستعمرات النقب، وإشغالها في الدفاع عن نفسها أمام هجماتهم المتكررة، حتى لا تفكر في الانقضاض على مؤخرة الجيش وهو مشغول بمعاركه الأمامية في مناطق أسدود والمجدل والفالوجا، فمرت بالاخوان في ذلك الوقت فترة من أنشط الفترات، وبلغت المعارك بينهم وبين اليهود إلى عنفوان شدتها، ولم يكن يمر يوم واحد حتى تنشب الاشتباكات الدامية في مناطق مختلفة من الصحراء، والإخوان في كل ذلك غير مقيدين مطلقاً بما جد من أساليب الخداع والتثبيط كقرارات الهدنة ووقف القتال. بل لا أكون مبالغاً إذا قلت إن الإخوان كانوا يعملون في فترات الهدنة أكثر مما يعملون في أوقات القتال، حتى وقع منهم في ذلك الحين كثير من الجرحى وعدد من الشهداء.

ولم تكن جهود الإخوان مقصورة على مهاجمة القوافل ومحاصرة المستعمرات بل كانوا يشتركون مع الجيش المصري في عملياته الهجومية، ولأضرب مثلاً على ذلك بمعركة «بيرون اسحق» إذ قرر الجيش اقتحامها ووضع خطة محكمة لذلك.

وكان كل ما تخشاه قيادة الجيش أن تتدخل المستعمرات الجنوبية في المعركة فطلب إلى البكباشي «عبد الجواد طبالة» أركان حرب المنطقة في ذلك الحين أن يقوم الإخوان بقطع الطرق التي تصل هذه المنطقة ومنع اليهود من دخول المعركة عن هذه الطريق، فعهدت إلى الأخوين «نجيب جويفل» و «محمد علي سليم» للقيام بهذه المهمة فخرجا بفصائلهما ورابطوا على نقاط متقاربة على الطريق، وحين بدأت المعركة واشتد الضغط على حامية

«بيرون اسحق» بعثت تطلب المزيد من القوات، واستجابت لها القيادة اليهودية، وما هي إلا برهة يسيرة حتى امتلأ الطريق بالمصفحات القادمة من مستعمرات النقب الجنوبية، ونشبت معركة شديدة بين الإخوان وهذا العدد الهائل من المصفحات، وحاول اليهود التخلص من هذا الحصار والوصول الى ميدان المعركة، ولكن قوة النيران الموجهة إليهم من الأسلحة الأوتوماتيكية ومدافع الهاون «البيات»، وحقول الألغام التي بثت في طريقهم، أقنعهم بأن طريق العودة هي أسلم طريق فبدأوا يتراجعون تاركين حامية «بيرون اسحق» تعاني وحدها شدة المعركة وتستغيث بقيادتها ولا مغيث!

ولست أنسى يوم هاجم اليهود أحد مضارب العرب الآمنة وأضرموا فيها النار بعد أن قتلوا كثيراً من رجالها، وجاء الأحياء منهم يشكون إلينا إذ كان سبب المذبحة التي أوقعها اليهود بهم أنهم يتعاونون مع الإخوان «المجرمين» على حد تعبيرهم!

ولقد كنا مضطرين لمجابهة هذا العدوان بمثله، حتى يأمن البدو على أنفسهم و يظلوا على ولائهم لنا فقررنا إيقاع مذبحة مشابهة باليهود وتسللت قوة من الإخوان في جوف الليل إلى إحدى المناطق الداخلية متوغلة في أرض يعتبرها اليهود حرمهم الخاص، وهناك على طريق السيارات بثوا حقلاً كبيراً من الألغام، وانفلتوا في أحد الوديان المجاورة ينتظرون مقدم «الصيد». وجاءت قافلة كبيرة عند الفجر، فلم تكد تمس الألغام حتى انفجرت وتطايرت أجزاء السيارات في الفضاء، وظل الإخوان في مكمنهم حتى انجلى دخان الألغام، وقام من نجا من اليهود، فأخذوا يطلقون عليهم النار حتى مات من مات وفر من استطاع الفرار، ثم جمعوا القتلى وكدسوهم كومة واحدة، بعد أن أخذوا ما وجدوه من سلاح وعتاد، ولم ينس الإخوان أن يتركوا منشوراً كتب فيه أن الحادث بمثابة رد لما ارتكبته العصابات الصهيونية ضد العرب الآمنين. ولقد سمع القائد العام بهذه العملية الجريئة فأبدى رغبته في رؤية بعض الأسلحة التي غنمها الإخوان، وأعجب كثيراً بما شاهده منها خاصة أحد مدافع «المورتر» المصنوعة حديثاً في بلجيكا، وكانت هذه واحدة من عشرات المعارك التي قام بها الإخوان وسببت ارتباكاً عنيفاً لليهود، وأكسبت الإخوان خبرة لا تجارى في وسائل حرب العصابات الحديثة.

ومع انشغال الإخوان المسلمين بالأعمال الفدائية على طول الجبهة الجنوبية ـ كما أسلفنا ـ فإن قيادة الجيش كانت تستدعيهم في كثير من الأحيان للاشتراك في الأعمال الهجومية على المستعمرات أو في أعمال الدفاع أمام الهجمات اليهودية الكبيرة على الجبهة المصرية، وفي مرات كثيرة كان وجودهم على ساحة المعركة هو العامل الحاسم بين النصر والهزيمة كما سيتضح في الفصول القادمة. ولنضرب مثلاً على هذا النوع من العمليات التعرضية في الهجوم الذي وقع على مستعمرة دير سنيد «ياد مردخاي» في ١٩ مايو ١٩٤٨ وهي احدى المستعمرات اليهودية القليلة التي سقطت بيد الجيش المصري وهي تستحق بسبب ذلك شيئاً من التفصيل.

كانت مستعمرة «ياد مردخاي» شأن المستعمرات اليهودية الأخرى تحتل نقطة حاكمة بالنسبة للمناطق العربية المجاورة لها، غير أن هذه المستعمرة كانت تقوم على الطريق الساحلي الرئيسي للجيش في قطاع غزة ـ المجدل، ولم يكن بالامكان تجاهلها أو الاكتفاء بحصارها كما حدث بالنسبة «لكفار ديروم» أو «نيريم» وغيرها من مستعمرات النقب.

كانت أول تجربة شخصية لي مع «ياد مردخاي» ان أحمد عبد العزيز طلب مني في منتصف ابريل أن اصحب قوة من المتطوعين الليبيين والسودانيين لتحتل موقع «عراق المنشية» في الشمال نظراً لأننا كنا أسبق منه في المنطقة وأدرى بأوضاعها وظروفها، وكانت تلك القوة تتحرك في سيارات «اتوبيس» عادية مما يعرضها لأخطار كبيرة فيما لو علم العدو بتحركها وفكر في إقامة كمين لها، وقد أخذت إحدى مصفحاتنا لتكون في مقدمة طابور «الأوتوبيسات» بينما ركبت مع «محمود عبده» في سيارة الجيب القديمة التي أخذناها من اليهود في مناسبة سابقة، وكان أكثر ما يخيفني هو المرور بهذه القوة المكشوفة من مستعمرة «ياد مردخاي» التي تقوم على جانبي الطريق الرئيسي وترتفع أبراجها ومواقعها المحصنة على قمم التلال المشرفة.

كانت الشمس تميل للغروب حين وصلنا إلى آخر منخفض يشرف على المستعمرة، وهناك أوقفت الركب واندفعت وحدي بسيارة الجيب للاستكشاف، وهناك وجدت عدداً

كبيراً من اليهود خارج المستعمرة يعملون في المزارع المجاورة وكانت هذه فرصتنا الذهبية للمرور دون اشتباك.

كانت الخطة ببساطة أن تقترب مصفحتنا الوحيدة لتقف وسط اليهود العزل وتصوب رشاشاتها عليهم بينما تواصل بقية السيارات المرور، كان عنصر المغامرة في هذه اللعبة هو أن اليهود لن يجرؤوا على إطلاق النار على سياراتنا مخافة أن نحصد رجالهم في الحقول فيتركوننا نمر بسلام، ولا أدري كيف كان يفكر قائد المستعمرة أمام هذه المفاجأة، وهل انتهى لمثل ما انتهينا إليه من استنتاج؟ ولكن المهم أن طلقة واحدة لم تطلق من المستعمرة على قوتنا الصغيرة، وانطلقنا في سياراتنا منتهزين فرصة الارتباك الذي وقع فيه المزارعون، وحين أنهينا مهمتنا في «عرق المنشية» في منتصف الليل وقفلنا راجعين بمصفحتنا وسيارتنا الجيب أخذت المخاوف تعود على رأسي أعنف مما كانت، إذ كيف سنعبر هذا الطريق المخيف مرة أخرى ولن ينفعنا تكرار نفس اللعبة، كما أن من المرجح أن اليهود قد دخلوا الآن إلى حصونهم المسلحة وسيكون في قدرتهم أن يحصدوننا حصداً دون أن نتمكن من رؤيتهم فضلاً عن مقاومتهم في هذا الظلام الكثيف، وبينما كنت أفكر على هذا النحو وسائق السيارة الجيب ينطلق بأقصى سرعته في اتجاه المستعمرة وأنوار مصفحتنا تتبعنا كظلنا من قريب برزت من الظلام أشباح تستوقفنا وتصيح بانفعال ظاهر، وحين وقفنا عرفنا فيهم بعض أصدقائنا البدو من سكان المناطق المجاورة للمستعمرة.

قال أحدهم وقد حياني باسمي «يبدو أن اليهود يدركون أنكم عائدون الليلة ولذلك فقد وضعوا ألغاماً على الطريق كما أن قوة صغيرة من رجالهم تقف الآن بين الأشجار في انتظاركم» وحين أخذنا نتدبر أمرنا قال آخر: «إني أعرف طريقاً رملياً يدور حول المستعمرة وينتهي بكم الى آخرها من جهة الجنوب وهو ليس ممهداً ولكن لا بأس من تجربته فإن الغوص في الرمال أحسن من الموت المحقق على كل حال» ولم يكن لدينا خيار في الموقف فقررنا أن نأخذ الطريق الرملي الطويل.

كان الطريق وعراً مليئاً بالحفر والصخور، وكان دليلنا البدوي يسير على مهل أمامنا

ليجنبنا النزول في المنحدرات الوعرة ونحن نسير خلفه بدون ضوء، ولقد اكتشفت أن طريقنا الجديد يقترب جداً من مستعمرة يهودية أخرى حتى ليكاد يلامس أسلاكها، وكان عنصر المقامرة هذه المرة أن المستعمرة الأخرى تكون نائمة ولا تنتظر قدوم أحد، وهناك احتمال معقول أننا سنمر بسلام.

لقد استغرقنا ساعات قبل أن نكمل الدائرة الواسعة ونرى أضواء «ياد مردخاي» تظهر أمامنا من الجهة الجنوبية مرة أخرى، وشعرت بزهو الإنتصار بعد هذه المغامرة الخطرة، وفجأة وجدت نفسي وسط شبكة من النيران المتقاطعه تتخللها انفجارات قنابل المدافع المضادة للمصفحات، وفي لمح البصر أدركت الحقيقة المخيفة وصحت على غير إرادة «لقد وقعنا في كمين»؟ وفي اللحظات التالية برزت أمامنا ثلاث مصفحات يهودية كأنها قطع من الظلام المحيط بنا ولا يحدد ملامحها سوى خياط النار المنبعثة من فوهات المدافع، وفي نفس الوقت أخذت مصفحاتنا تطلق مدافع «البازوكا» ورشاش الفيكرز على الوحوش المتقدمة من الجانبين، ولكن وضح أننا نخوض معركة خاسرة وأن النجاة منها بأرواحنا هي قمة الإنتصار، وفي تلك اللحظة صرخ سائق سيارتي ووقع من مقعد القيادة إلى الأرض يتخبط في دمه ولم أره بعد ذلك حتى الآن، و بقيت و«محمود عبده» في المقعد الخلفي بضع لحظات وخيوط الرصاص المتناثرة من حولنا في الهواء، ولقد حاولت أن أقود السيارة وأواصل التقدم ولكنها لم تتحرك إلا خطوات قليلة حين اخترق «المتور» دفعة من الرصاص فتوقفت تماماً عن الحركة.

وعندما قفزت وزميلي إلى الأرض وأخذنا نزحف على بطوننا تحت وابل من الرصاص الطائش كانت مصفحتنا لا تزال مشتبكة مع المصفح ١ت المعادية الثلاث، وحين ابتعدنا بضع يردات عن مكان السيارة الجيب المحطمة شعرنا أننا أصبحنا في مأمن لأن نيران العدو لم تعد مسددة علينا، وأصبح بإمكاننا أن نسير بصورة عادية ونحن نستتر بالأشجار الكثيرة المتناثرة في تلك المنطقة، وحين شعرنا أكثر بالأمن بدأنا نقلق على إخواننا الآخرين والمصفحة، ولكنني كنت أحس باطمئنان داخلي لأن هؤلاء الرجال قد وقعوا مراراً في كمائن يهودية ربما أشد إحكاماً من هذا الكمين ومع ذلك فقد أسعفتهم الشجاعة والمران من الخروج منها، وقد أصاب حدسي مرة أخرى حين التقينا معهم في الصباح التالي عند مدخل قرية «دير سنيد» العربية

وكانوا جميعاً في أحسن حال فيا عدا سائق السيارة الجيب الذي سقط في اللحظات الأولى للمعركة.

لقد أبلغنا تجربتنا تلك مع «ياد مردخاي» إلى أحمد عبد العزيز وأبلغناه عن خطر تلك المستعمرة وما تمثله من تهديد لأي تحركات على خط ـ غزة المجدل ـ وطلبنا منه أن يكتب للقيادة العامة للجيش لتضع هذا الأمر في تقديراتها للموقف.

لقد كان على الجيش المصري أن يواجه ما واجهناه قبل شهور حين دخل فلسطين في ١٥ مايو ١٩٤٨ وحين اجتازت كتائبه مدينة غزة في زحفها شمالاً إلى أسدود كان عليها أن تصطدم هذه المرة اصطداماً حاسماً مع المستعمرة، ولقد قدر لوحدة من رجالنا ولي شخصياً أن نشترك في هذه المعركة الهامة.

الواقع أن العمليات ضد «ياد مردخاي» بدأت يوم ١٦ مايو حين طلبت منا القيادة ـ كالمعتاد أن نقطع خطوط مواصلات المستعمرة لنمنع وصول النجدات من المستعمرات المجاورة وتحكم على قوة الهجاناه المحدودة أن توجه ثقل الجيش المصري وحدها، وفي نفس الوقت تحركت مدافع الميدان لتحتل مواقع قريبة من المستعمرة، غير أن الهجوم الفعلي لم يبدأ إلا عصر يوم ١٩ حين أخذت المدفعية تركز نيرانها على موقع المراقبة الأمامي القائم جنوب المستعمرة حتى دمرت أجزاؤه البارزة على سطح الأرض تدميراً تاماً، ثم حاولت المشاة اقتحامه ولكنهم فوجئوا بنيران شديدة من الرشاشات مما اضطرهم إلى تأجيل الهجوم الحاسم

وفي صباح اليوم التالي واصلت المدفعية ضرب المستعمرة بما فيها الموقع المذكور، وفي هذه المرة نجح جنود الجيش في اقتحام الموقع بعد معركة ضارية استخدمت فيها القنابل اليدوية والسلاح الأبيض، وأظهر جنود الجيش ضروباً من الفدائية والاستبسال.

كانت قوة الاخوان المسلمين الصغيرة تقوم بحصار طرق المواصلات كما أسلفنا خلال الأيام الأربعة التي شهدت معركة «ياد مردخاي» ولقد كانت هناك محاولات جريئة من جانب العدو لتعزيز وحدة الهاجاناه في المستعمرة وإمدادها بالمؤن والذخائر غير أن هذه المحاولات قد صدت بنجاح، إلا أن وحدة مصفحة من عشرين قطعة هاجمتنا من صوب مستعمرة «جيفارآم» في ليلة ٢٤، وبعد معركة ضارية بالرشاشات ومدافع «البازوكا»

نجح جزء صغير منها في دخول المستعمرة أما بقية السيارات فقد ردت على اعقابها، ولا شك أن صمود الاخوان ونجاحهم في عزل المستعمرة قد ساعد مساعدة فعالة على سقوطها بعد بضعة أيام، وحين كانت معركة الطرق تدور بيننا وبين العدو كان الجيش يحاول اختراق المستعمرة الرئيسية دون جدوى، ذلك أن تحصينات المستعمرة وخنادق الاتصال كانت مقامة بعناية مكنت رجال الهاجاناه رغم قلة عددهم في تلك المرحلة من المعركة على الصمود أمام محاولات الاقتحام المتكررة.

كانت «ياد مردخاي» غرضاً رئيسياً للجيش وكان لا بد من احتلالها وتدميرها أو الحكم على الحملة المصرية كلها بالفشل ولما يمض على بدايتها اسبوع واحد، وكانت الروح المعنوية للجنود والضباط لا تزال عالية لم تؤثر فيها العوامل التي ظهرت بعد ذلك على الميدان، والحقيقة أن هذه المعركة أظهرت معدن الجندي المصري الصبور إذا أتيحت له القيادة الصالحة والمعدات الكافية، وحين اشتدت مقاومة العدو طلب منا أن نجلب فصيلة من رجالنا لتساهم في عملية الاقتحام النهائي للمستعمرة، وفعلاً اشتركنا في هذا الدور الحاسم بفصيلة وثلاث مصفحات كنا غنمناها من اليهود في معارك النقب.

غير أن الدور الأهم ـدون شكـ كان هو نجاحنا في منع وصول النجدات اليهودية للمستعمرة، وربما لو أخفقنا فيه وأتيح للعدو أن يقيم جسراً بين المستعمرة المهاجمة ومجموعة المستعمرات المجاورة لتغيرت حتماً نتيجة المعركة.

سقطت مستعمرة «ياد مردخاي» في يد الجيش المصري وكان لسقوطها دوي عظيم كما كان له أثر سيء في نفوس الاسرائيليين، وبسقوطها أصبح الطريق مفتوحاً أمام الجيش المصري ليواصل زحفه شمالاً، ومع أن نتيجة هذه المعركة كانت انتصاراً بارزاً للجيش كما كانت مسرحاً لبطولات فردية نادرة، إلا أنها أثبتت للقيادة العامة أيضاً أن مهاجمة المستعمرات ليست رحلة مسلية، وأعتقد أن هذه التجربة ساعدت على وجود الاتجاه الذي برز فيما بعد لعدم مهاجمة المستعمرات اليهودية والاكتفاء باحتلال جوانب الطريق الرئيسي والدفاع عنه حتى لم يعد للجيش أي هدف استراتيجي يسعى لتحقيقه، وكان هذا الاتجاه هو المناخ الذي أدى للهزيمة النهائية في الحرب الفلسطينية.

كان دخول الجيش المصري الى فلسطين بالنسبة إلينا حدثاً هاماً أثر على كل أوضاعنا، ولقد مر بك في فصول سابقة أن وحدات الاخوان المسلمين في الجبهة الجنوبية قد دخلت إلى فلسطين بعد إعلان قرار التقسيم مباشرة وظلت تعمل وحدها في الميدان قبل دخول الجيش النظامي بخمسة شهور على الأقل، وقد ظلت تعمل حرة حتى بعد دخوله إلى أن طلبت القيادة العامة للجيش قيام تنسيق وتعاون بينها وبين المتطوعين ولقد تطور هذا التنسيق فيما بعد حتى أصبح نوعاً من التبعية للجيش، ولم نجد غضاضةً في ذلك ما دام الهدف هو العمل لإنقاذ فلسطين، غير أن محاولات متكررة وقعت فيما بعد لإذابة هذه الوحدات وصهرها في الجيش صهراً تاماً، وكنا نعلم أن وراءها توجيهاً سياسياً من حكومة النقراشي يدفعه تخوفها من الاخوان وخشيتها من نمو قوتهم العسكرية في فلسطين، ومع أنني وافقت تماماً على فكرة التنسيق والتبعية لتحقيق وحدة القيادة في الميدان ولضمان نجاح العمليات العسكرية ضد العدو، إلا أنني رفضت عملية الاذابة وقاومتها بعناد شديد وقد تكلفت في ذلك كثيراً من العناء.

لقد كان رفضنا الاندماج الكلي في الجيش المصري موضوعاً يستحق التسجيل والتوضيح ذلك أن بعض العناصر السياسية في القاهرة اتخذته دليلاً على أن الاخوان كانوا يرمون إلى بناء قوة عسكرية مستقلة تعمل على الاطاحة بنظام الحكم المصري، ولكن دوافعنا كانت في الواقع لا علاقة لها بالسياسة وإنما تمليها اجتهادات خاصة تتعلق بالمهمة التي كنا نعمل لها وهي قهر الصهيونية في فلسطين، فما هي هذه الدوافع والأسباب؟

كانت تربية شباب الاخوان المسلمين تقوم على أساس المساواة والتكافل والحرية ولم تكن هناك أية ميزات بين المسؤولين على اختلاف رتبهم وبين الأفراد إلا ميزة السمع والطاعة في العمل والواجبات، وكانت العلاقة بين الضباط والجنود علاقة أخوة ليس فيها شيء من الرسميات، ولم نكن نسمع أن هناك تفاوتاً في اللباس أو المأكل أو المسكن بين أعلى رتبة وأصغر رتبة، وكانت هذه الأوضاع يمليها المفهوم الاسلامي للجندية والجهاد كما تمليها ظروف هؤلاء الأفراد وثقافتهم وأوضاعهم الاجتماعية، فمثلاً قد تجد جندياً عادياً يحمل شهادة جامعية عالية بينما قائد فصيلته أو سريته عامل بسيط أو فلاح ذو ثقافة

متوسطة ولكنه اجتاز تدريباً خاصاً أو قضى في الميدان مدة طويلة أظهر خلالها شجاعة فائقة أو دراية واسعة في القيادة حتى يمكن القول إن قائد الفصيلة أو الجماعة كان أشجع أفرادها على الإطلاق وأكثرهم خبرة في القتال ومكانه دائماً هو المقدمة عند الاشتباك مع العدو.

أعتقد أن هذه التربية الحرة القائمة على الكرامة والمساواة كانت من بين الأسباب التي تدفعهم لتحدي الموت والصمود عند اللقاء، على أن هذه الأوضاع التي تحكم علاقات الاخوان المسلمين كانت عكس الأوضاع في الجيش المصري تماماً حيث تسيطر العقلية العسكرية الصارمة وحيث يقوم الخوف بين الجندي وقائده مقام الحب والاحترام، وحيث تقوم فجوة بين الرتب تشمل المأكل والملبس والمسكن. من هنا وجدنا أن إذابة الاخوان في الجيش ستعني هدم النظام الذي يقوم عليه كياننا الجهادي وبالتأكيد محو الملامح والخصال التي تنتج عنها خصال الفدائية والتضحية والتسابق على الشهادة، فهل يمكن أن أُلامَ لإصراري على ضمان الحرية الداخلية لوحدات الاخوان المسلمين في نطاق الإطار العام للجيش المصري وتحت قيادته الموحدة؟

الواقع أن قيادة الجيش أقرت هذا المبدأ بعد تردد شديد ومشاجرات متعددة بيني وبين ضابط اتصال الجيش «البكباشي زكريا العادلي امام» وهي مشاجرات كانت كثيراً ما تنقلنا إلى مكتب القائد العام للتأنيب أو المصالحة.

كان دخول الجيش المصري إلى فلسطين نقطة تحول بالنسبة لوحدات الاخوان المسلمين، وأصبح علينا منذ الآن أن نحاول ملاءمة نشاطنا مع خطط الجيش وسياسته العامة، كما أصبح علينا أن نشترك في عملياته الهجومية والدفاعية وكان يطلب منا على الأغلب أن نقوم بالأعمال التعرضية الخطرة، وأحياناً لتحقيق الأهداف التي تعجز عنها الوحدات النظامية كما سيتضح في الفصول المقبلة.

١٤ ـ أخطاء ... وانسحابات

«إن كل قائد عام، يعهد إليه بتنفيذ خطة يراها غير صالحة يعد مجرماً . إن واجبه يقتضيه الادلاء ببواعثه، والمطالبة بتغيير الخطة. وأخيراً يقدم استقالته، حتى لا يكون أداة للقضاء على جنوده» «نابليون»

أود قبل أن أستطرد في بيان ما خفي من نشاط الاخوان المسلمين وأثرهم في الميدان، أن أشير إلى بعض التغيرات الجوهرية التي طرأت على جبهات القتال، بعد فرض الهدنة الأولى ليكون القارئ على بينة من حقيقة الموقف.

لزم الجيش المصري مواقعه التي احتلها، وأخذت وحداته تنظم وسائل الدفاع عن نفسها وتستعد لاستئناف القتال، وعند نهاية الهدنة أخذ الجيش يهاجم مراكز اليهود بعنف وشدة، ويضيق الخناق على المستعمرات الجنوبية حتى كادت تموت جوعاً وعطشاً، وأدركت القيادة اليهودية حقيقة الخطر الذي يحيط بهذه المستعمرات، فحاولت تموينها بالطائرات، ولم تنجح في هذه الخطة أيضاً إذ كان السلاح الجوي المصري في ذلك الحين لا يزال يسيطر على الجو.

وأذكر أنهم قاموا بمثل هذه المحاولات في المستعمرات التي يتولى جنود «الاخوان» حصارها غير أن الاخوان أرغموها أكثر من مرة على إلقاء حمولتها بعيداً عن المستعمرات تحت تأثير نيران المدافع الرشاشة التي كانت تسلط عليها من أبعاد قريبة والفرار راجعة إلى قواعدها. وكانت هذه الحركة مصدر غنائم جديدة للإخوان، ومصدر مضايقات مثيرة لليهود.

وفرضت المدنة الثانية واستطاع اليهود خلالها أن يجلبوا أنواعاً جديدة من الأسلحة الثقيلة والطائرات الضخمة، وحين آنسوا في أنفسهم شيئاً من القوة والاعداد، ضربوا بالهدنة عرض الحائط وبدأوا عمليات حربية واسعة النطاق، فهاجموا «تقاطع الطرق» في ١٤ أكتوبر واحتلوها وبذلك تحطم الحاجز الذي يفصل الشمال عن الجنوب وانطلقت القوات اليهودية المدرعة تحمل الأسلحة والجنود، وانتفضت المستعمرات الهادئة الوادعة، ودبت معالم الحياة والنشاط في أوصالها، وقامت لتؤدي دورها المرسوم، فقطعت طرق المواصلات حين كان الضغط يشتد على خطوط الجيش الأمامية مما اضطر قيادة الجيش إلى تقصير خطوطه، والتخلي عن مناطق «المجدل» و «أسدود» والعودة إلى النظرية القديمة والتجمع في منطقة «رفح ـ غزة» تاركة خلفها قوة قوامها خمسة آلاف جندي في منطقة «الفالوجا» لم تستطع الإفلات واللحاق بالجيش المنسحب إلى «غزة».

ولقد اعتبر إخلاء هذه المناطق فشلاً ذريعاً، منيت به قيادة الجيش المصري، ومما يزيد في ضخامة هذا الفشل أن يتم الانسحاب بسرعة وارتباك وقبل البت في مصير لواء «الفالوجا».

ولا أمر على ذكر هذه الانسحابات دون أن أتعرض لحقيقة مؤلمة، ذلك أن هذه المناطق لم تتعرض لهجوم ذي بال وكان من الميسور البقاء فيها والمحافظة عليها ـأو على الأقل ـ الانسحاب منها بنظام وهدوء، حتى تعمل الترتيبات اللازمة لانقاذ قوات «الفالوجا» إذ كان كل ما فعله اليهود أن أمروا قوة صغيرة من جنودهم لا تزيد عن «سرية» فاحتلت قرية «بيت حانون» في ١٦ أكتوبر وبذلك قطعوا طريق المواصلات الرئيسي الذي يربط «غزة» ببقية المناطق، وكان الوضع الطبيعي أن يبادر الجيش فيهاجم هذه القوة الصغيرة ويؤمن طريق مواصلاته، وكان من السهولة عليه أن يفعل ذلك، بل أن خطة وضعت فعلاً لتطهيرها، وكان كاتب هذه السطور أحد شهودها، وكان مفروضاً أن تقوم قوات لتطهير هذه المنطقة، ولكن الأمر العجيب الذي لا أستطيع تعليله حتى هذه اللحظة أن تصدر الأوامر بالكف عن تنفيذ الخطة، وتصدر الأوامر في الوقت نفسه لحاميات «المجدل» و «أسدود» لتنسحب إلى غزة عن طريق الساحل، وبذلك تفقد السيطرة على منطقة من أهم

مناطق فلسطين دون سبب ظاهر، بل دون أن نتعرض لهجوم جدي واحد ...!

ولقد حدثني بعض ضباط المخابرات أن اليهود كانوا ينظرون إلى تحركات الجيش المصري بعين الريبة والحذر.

وكانوا يعتقدون أن قواته تتجمع لتضربهم الضربة القاتلة، ولم يكن يدور في خاطرهم مطلقاً أن هذه القوات تتحرك منسحبة للخلف دون سبب واضح، ولو علموا أنه يتحرك منسحباً لهاجموا قواته المختلة، وأحالوا انسحابه هزيمة منكرة، ولكانت مهزلة يتندر بها الناس لأجيال طويلة، ومأساة مروعة يتخذها التاريخ العسكري عنواناً للجهل وسوء التصرف.

والعجيب أن قوات «الفالوجا» ظلت في مواقعها لا تبدي حراكاً حتى أحاط بها العدو من كل جانب، وهنا تتعارض الأقوال في تعليل هذا الموقف، فبينما يقول البعض أن «المواوي» انسحب إلى غزة ولم يصدر تعليمات إلى لواء «الفالوجا» إلا متأخراً، بعد أن أطبقت الحلقة ووقعت هذه القوات في «المصيدة»، بينما يقول البعض هذا القول ويضع التبعة كلها على «المواوي»، يقول البعض الآخر أن التعليمات قد صدرت فعلاً لقائد «الفالوجا» «الأميرالاي السيد طه» لينسحب بقواته لا إلى «غزة» ولكن إلى «بئر السبع» حيث يرابط فيها ويحتل أجزاء من الطريق الذي يصلها «بغزة» بينما تكون القوات الرئيسية قد أتمت انسحابها إلى غزة وامتدت جنوباً حتى تلتقي بقواته، وبذلك يفصل الشمال عن الجنوب مرة أخرى ويكون الانسحاب انسحاباً منظماً «لخطة موضوعة» كما قيل يومئذ، لا هروباً على غير خطة إلا حب السلامة والابقاء على الحياة.

يقول البعض هذا ويقولون أن المهلة كانت كافية أمام «السيد طه» لينفذ هذه التعليمات، ويؤولون عدم تنفيذها بأسباب كثيرة لا تشرف أحد الرجلين. ولست أجد وسيلة تضع حداً لهذه الاتهامات وتقضي على هذه البلبلة الفكرية إلا أن يتكلم أحدهما ويحدد التهمة، أو أن تفتح وزارة الحربية فمها وترسل شعاعاً ضئيلاً على هذه الظلمات، أم تراها لا تريد الكلام ليظل الشعب جاهلاً بحقائق الأمور، وحتى لا يتعرض «لرد الفعل» السيء بعد شعوره بالهزيمة المنكرة التي مني بها في حرب فلسطين؟

وليست التهمة مقصورة على بقاء قوة معطلة في قرية «الفالوجا» وقت أن كان الجيش في حاجة الى جندي واحد، ولا لتعريض قرابة خمسة آلاف للإفناء والأسر.

لكن التهمة أكبر من ذلك بكثير. لأن بقاء هذه القوات الكبيرة في الفالوجا ترتب عليه ضياع مدينة «بئر السبع»، وإعطاء اليهود فرصة التجمع في مستعمرات النقب، وما أعقب ذلك من انهيار القطاع الجنوبي «عسلوج» - «العوجا»، ثم اقتحام اليهود لحدود مصر الشرقية والزحف حتى مشارف مدينة «العريش».

والتهمة كما ترى كبيرة جداً لو وقعت في أي جيش من جيوش الأرض لشكلت لها المحاكمات العسكرية، ولصدرت فيها العقوبات القاسية، أو على الأقل لتحددت المسؤوليات والتبعات، حتى يمكن استخلاص العبر والعظات. هذا في أي جيش، أما في جيشنا فإن هذه الأمور تعتبر تافهة صغيرة لا تستحق التفكير فيها فضلاً عن تشكيل المحاكمات من أجلها!..

أما قوة «الفالوجا» فقد أحكم اليهود حولها الحصار، وأخذوا يوجهون لها الضربات القاسية من الجو والأرض، وظنوا أن الصيد الدسم قد وقع في أيديهم، وأن هذه القوات لا تلبث أن تستسلم، غير أن القوات الباسلة خيبت ظنهم ومضت تدافع عن مراكزها بعناد واستبسال، وإذا ذكرت هذه الفترة من الحرب فلا يسعني إلا أن أسجل فخراً للأُميرلاي «السيد طه» قائد هذه القوة، إذ كان لروحه العالية وإيمانه القوي أبعد الأثر في ثبات جنوده ووقوفهم هذا الموقف الرائع، ومما يذكر أيضاً ـ أن فرصاً كثيرة تهيأت له للإفلات والنجاة، ولكنه كان يركلها بقدمه لشعوره أن في قبولها مساساً بكرامة الجيش والأمة، وظل يكافح بجنوده كفاح الأبطال حتى منَّ الله عليهم بالنجاة الكريمة بعد انتهاء الحرب واعلان الهدنة، وغادروا أرض «الفالوجا» بأسلحتهم ومعداتهم في ١١ مارس سنة ١٩٤٨.

وهكذا أخليت أهم المناطق وحوصرت «الفالوجا» وعزلت قوات المتطوعين المصريين والاخوان المسلمين في «جبال الخليل» ووقعت القيادة المصرية في مأزق حرج لم تستطع معه السيطرة على الموقف ومواجهته بما يحتاجه من حكمة وحزم، ولم يضيع اليهود الفرص، فشددوا النكير على حامية مدينة «بئر السبع» ـ مفتاح فلسطين الشرقي وحاضرة النقب ـ

وقذفوها بمئات الأطنان من القنابل من الجو دون أن تملك أي وسيلة لمقاومة هذه الغارات الوحشية ثم هاجموها بشدة مما اضطرها للتسليم في ٢٧ اكتوبر سنة ١٩٤٨.

ولقد استنجدت هذه الحامية بقيادتها العامة، وتوسلت اليها ان ترسل اليها بعض الجنود والسلاح حتى يمكنها الثبات أمام هذه الهجمات المنكرة، ولكن القيادة العامة كانت في شغل شاغل في ذلك الحين، فهي تحاول تثبيت أقدامها في منطقة «غزة» وجمع قواتها المبعثرة بعد الانسحاب، والعدو الماكر يأبى اعطاءها فرصة للتفكير في أمرها بما يقوم به من هجمات «وهمية» على غزة، ومن غارات جبارة على مراكز الجيش بها و يزيد في اشغالها بالمناورات البحرية التي تقوم بها قطع اسطوله وتحاول قطع الطريق الساحلي الذي تسلكه القوات في انسحابها من «المجدل».

وهكذا تركت «بئر السبع» لتواجه مصيرها المحزن في ايدي حامية صغيرة من الجيش، ومجموعات مفككة من المتطوعين الليبيين والمناضلين العرب. وبسقوط «بئر السبع» أصبح لليهود السيطرة الفعلية على أجزاء النقب الشمالية، وأصبح في مقدورهم التنقل بحرية بين أرجائها المختلفة. في تلك اللحظات الحرجة كانت الفرصة سانحة أمام اليهود للهجوم على المناطق الجنوبية واعادة مأساة الفالوجا في غزة ولم تكن هناك خطة منظمة للدفاع عن هذه المنطقة، إذ كان الجيش ـ كما ذكرت ـ مشغولاً في عمليات الانسحاب، ولم يكن في هذه المنطقة كلها حتى ذلك الحين غير عدة «سرايا» من الاخوان المسلمين، ووجد هؤلاء الاخوان أنفسهم أمام حقيقة واقعة هي عبء المحافظة على جيش مصر وحمايته من أي عدوان يحركه اليهود من هذه المنطقة، ولا يستطيع أحد أن يتكهن بفداحة الكارثة التي كانت وشيكة الوقوع، لولا وجود هذه الفئة المؤمنة المجاهدة في ذلك الحين.

شعرنا بخطورة الموقف، فقدمت مشروعاً الى القيادة العامة بينت فيه الأخطار الكبيرة التي يمكن أن تقع لو فكر اليهود في مهاجمة هذه المناطق وقطع خط الرجعة على الجيش، وطالبت في ختام التقرير باطلاق يد الاخوان واعطائهم العتاد اللازم والترخيص لهم لاحضار قوات أخرى من مصر، حتى يمكنهم تنفيذ ذلك المشروع.

وكان المشروع الجديد يقضي باحتلال مواقع «حاكمة» حول كل مستعمرة من

المستعمرات الكبيرة ومحاصرتها، وعدم اعطائها أية فرصة للتكتل حتى يفرغ الجيش من تنظيم خطوطه الدفاعية.

ولقد استدعتني القيادة العامة في «غزة» وناقشتني في تفاصيل الخطة، ثم أبدت موافقتها المطلقة على تنفيذها، وأذكر أن اللواء «المواوي» قد وعدني بكتابة خطاب الى الأمانة العامة للجامعة العربية والى رئاسة أركان الحرب يطالب فيه تجنيد كتيبة من الاخوان عن طريق المركز العام والشعب وارسالهم فوراً الى الميدان ليتمكن من السيطرة على الموقف.

ولقد ذهبت من فوري الى فضيلة «الأستاذ محمد فرغلي» رئيس الاخوان في فلسطين، وعضو مكتب الارشاد العام، وأطلعته على تفاصيل الخطة. فسافر من فوره الى مصر، ليعمل على تجهيز هذا العدد الكبير، وعمل الترتيبات اللازمة نحو ترحيلهم الى الميدان.

وأذكر أن اللواء «موسى لطفي» -وكان يشرف على ادارة العمليات الحربية في الميدان قابلني بعد ذلك وأبدى اعجابه الشديد بالمشروع، وأفهمني أن هذه الخطة لو نفذت بدقة وإحكام فسوف يكون لها الفضل الأول في حماية الجيش في هذه المرحلة الخطيرة، والاحتفاظ بهذه المنطقة الباقية من فلسطين، فوعدته خيراً ومضيت الى المعسكرات لأعد العدة وأبدأ العمل.

جمعت الاخوان في ساحة التدريب بالمعسكر، وقلت لهم إن الله قد فتح لهم باباً جديداً للجهاد، وأن الظروف قد ألقت على كواهلهم عبء المحافظة على الجيش وكرامته، وإنه لولا ثقتي في قوة إيمانهم ورغبتهم في الكفاح ما قبلت أداء هذه المهمة الشاقة التي أعلم فداحتها وخطرها.

ولن أستطيع أن أصور شعور الاخوان وهم يستمعون لهذه الأنباء، كانوا يقبلون في ابتهاج واضح وكأنهم يدعون لحفلة عرس أو نزهة خلوية، لا الى ميدان القتال فيه من المشقة والخطر ما فيه.!!

ولقد خرج الاخوان المسؤولون في استكشاف حول المستعمرات وعاينوا المواقع التي رأوا احتلالها ثم عاد كل واحد منهم يعد «فصيلته» ليحتل بها مواقعه، وكانت مشكلة المشاكل

اقناع أفراد من الاخوان بالتخلف عن فصائلهم والبقاء في المعسكر، ولست أنسى ما كان من أمر المجاهد الشاب «عبد الحميد بسيوني خطاب» نجل العالم الجليل الشيخ «بسيوني خطاب»، لقد كان هذا الشاب يبكي بكاء مراً حين أمره قائد فصيلته بالبقاء في المعسكر، وما زال يبكي و يبعث بالوساطات حتى أشفقت عليه، فسمحت له بالخروج. وخرج من المعسكر وهو أشد ما يكون فرحاً وابتهاجاً، ولقد أخلص النية للجهاد، فاجتباه ربه وأكرمه، واتخذه شهيداً في إحدى المعارك المشهورة، التي جاءت بعد ذلك.

وأقيمت المواقع الجديدة حول المستعمرات، ولم تكن سيارة يهودية تجرؤ على التنقل بين مستعمرة وأخرى، إذ أقام الاخوان «الكمائن» على الطريق، وملؤوا الأرض بالألغام، وأخذت دورياتهم المصفحة تجوب الصحراء الواسعة وتصل في طوافها حتى مدينة «بئر السبع» نفسها.

ولكي أصور أهمية هذه الحركة وأثرها يمكن أن أقول أن خمس عشرة سيارة مصفحة ودبابة قد دمرت خلال اسبوع واحد من بدء العمل، عدا أنابيب المياه التي كانت تدمر كل يوم مما اضطر اليهود الى ملاقاة الاخوان وجها لوجه، فنشبت معارك رهيبة سقط فيها بعض الاخوان ولكنها جاءت بأحسن النتائج وأبرك الثمرات.

ولقد ضج اليهود بالشكوى وأبلغوا مراقبي الهدنة احتجاجاتهم أكثر من مرة، وعلقت «محطة اسرائيل» على هذه الحركات وهددت باستئناف القتال ضد الجيش إن لم تكف عصابات الاخوان عن نشاطها في هذه المنطقة.

ولقد فكر بعض كبار الضباط في زيارة تلك المواقع البعيدة الواقعة حول «وادي الشلالة» و «تل جمعة» و «الرابية» و «الشعوث» وكان يرافقهم أحد الاخوان يدلهم على الطريق، فلما رأوا أنفسهم يتوغلون في الصحراء مبتعدين عن خطوط الجيش لأكثر من خمسة عشر كيلو متراً الى الشرق، وهالهم أن رأوا المستعمرات اليهودية خلفهم، داخلهم شيء من الشك والريبة، ومال أحدهم على الجندي المرافق لهم يسأله «أتراك ضللت الطريق؟» فلما أخبره أنهم يسيرون في الطريق الصحيح، قال لهم «إني أعتقد أنكم متفقون مع اليهود وإلا لما جرؤتم على التوغل في مناطقهم بهذه الصورة الجنونية!» وضحك الأخ المرافق وضحك

الضباط جميعاً، وحين رجعوا الى معسكراتهم أخذوا يشيدون بما رأوا من بسالة الاخوان وشدة بأسهم.

ويجدر بي -قبل أن أنتهي من الكلام عن هذه العمليات الناجحة التي قام بها الاخوان والتي أفادت فائدة كبرى في سير الأمور- أن أذكر المعونة القيمة التي قدمتها لنا القبائل العربية من البدو خاصة عشائر «الترابين» و «الحناجرة» و «النصيرات» و «التياها» و «المعالقة»، الذين وضعوا كل شبابهم تحت تصرف الاخوان. وكل مالديهم من سلاح وذخيرة وسيارات ...

ولقد تمت عمليات الانسحاب وبدأ الجيش يستقر في المواقع الجديدة التي اختارها، وبضياع المناطق الجديدة السالفة الذكر وضحت نهاية الحرب وأصبح من اليسير التنبؤ بنتيجتها، ويمكن تلخيص ما أسلفناه في الأبواب الماضية فيما يلي :

أولاً : توغل الجيش المصري في فلسطين دون أن يضع خطة عملية لفض «الجيوب» اليهودية الخطرة، التي توزعت في صحراء «النقب» كان أساساً لكل ما حدث بعد ذلك من أخطاء.

ثانياً : قبول الهدنة الأولى والثانية أعطى لليهود فرصة نادرة لاستجلاب أحدث أنواع الطائرات والدبابات وغيرها فوق أنه أثر تأثيراً عكسياً في روح جنودنا المعنوية.

ثالثاً : كان «الغرض» الأصلي -كما أسلفنا- هو احتلال «تل أبيب» ولقد رأينا كيف فشل الجيش في المحافظة على هذا الغرض، ثم تعددت أغراضه وأهدافه بعد ذلك حتى لم يعد له غرض معين يسعى له و يعمل على تحقيقه.

رابعاً: كان واضحاً ما عليه جنودنا من قصور وعجز في التدريب خاصة فيما يتعلق بالأعمال الليلية، ولو كانوا يحسنون هذا النوع من العمليات لهاجموا المستعمرات ليلاً واستفادوا من ميزة «المفاجأة» ولما تعرضو للخسائر الكثيرة من جراء الهجمات النهارية.

خامساً : لم يكن الجيش يملك دبابات ثقيلة تسهل له مهاجمة المستعمرات الحصينة، مما اضطره الى العمل بالنظريات القديمة فيحاول دك التحصينات بمدفعية قبل الهجوم، غير أن

قوة تحصينات اليهود و براعتهم في طرق الاخفاء والتستر في باطن الأرض، كانت تجعل هذه الطريقة مضيعة للجهد ومضيعة للذخيرة على قلتها.

سادساً : لم تكن لدى جنودنا ما يمكن تسميته برغبة «الاستكشاف» أو معرفة الأرض واستخدامها حين كان ذلك واضحاً كل الوضوح عند جنود الخصم و يكفي أن نقول إنه كان يسلك طرقاً يصعب على أهل البلاد أنفسهم معرفتها!

سابعاً : التزام الجيش لخطة الدفاع بعد الهدنة الأولى حطم روح جنودنا المعنوية وأعطى اليهود سيطرة تامة على الموقف الحربي، والاشتغال بعد ذلك بالاعمال الهجومية، خاصة إذا علمنا أن قوات العدو الرئيسية «البالماخ» لم تكن تشغل نفسها اطلاقاً بالدفاع.

ثامناً : لم تكن الجيوش العربية تتصرف بموجب خطة مرسومة وقيادة موحدة مما جعل اليهود يركزون هجماتهم على كل جيش على حدة، ولقد رأينا كيف ركزوا اهتمامهم في الجيش المصري أقوى جيوش العرب وأفضلها نظاماً وتسليحاً دون أن يخف زملاؤه لنجدته في الجبهات الأخرى.

تاسعاً : كان الواجب يقضي بالافادة من القوى الشعبية الفلسطينية وتسخيرها للمجهود الحربي، وكان يمكن أن تشكل قوات كبيرة من «الحرس الوطني» ورجال العصابات، فتتولى الأولى الدفاع عن المدن والقرى، وتتولى الثانية مهمة انهاك العدو وتوزيع قواته بينما تظل قوات الجيش حرة غير مرتبطة بالأوضاع الدفاعية إطلاقاً.

عاشراً : لم يكن هناك أي داع لبقاء «القوة الخفيفة» في جبال الخليل حيث أن تلك الجهات كانت تدخل ضمن المنطقة الأردنية مما سبب كثيراً من المشاكل السياسية بيننا وبين القوات الأردنية، ولو بقيت هذه القوات في يد قيادة الجيش المصري لأمكن استغلالها كقوة ضاربة «احتياطية».

١٥ ـ تغيير القيادة وحل الاخوان

«كان الاخوان المسلمون جنوداً أبطالاً أدوا
واجبهم كأحسن ما يكون»
«فؤاد صادق»

استقرت القيادة العامة في «غزة» بعد إخلاء المناطق المتقدمة الذكر، وبدأ «المواوي» ينظم نفسه في الوضع الجديد، وقيل أنه قد فرغ من تنظيم خطط عسكرية جديدة، وأنه سيباشر تنفيذها بنفسه، ولقد قال لي القائمقام «علي مقلد» أركان حرب القائد العام في ذلك الحين أن هناك خطة توضع لاختراق الحصار المضروب حول حامية الفالوجا وإنقاذها بالقوة.

وبعد أن بين لي بإيجاز تفاصيل هذه الخطة : قال لي إن الرأي متجه أن يقوم الاخوان المسلمون بأهم أجزائها، فأبديت له ترحيبي للقيام بأي عمل مهما كانت خطورته إذا كان فيه نجاة لاخواننا.

غير أن الظروف لم تسمح للمواوي بتنفيذ خططه، إذ تقرر سحبه الى مصر وغادر الميدان في ١١ نوفمبر، بعد أن سلم مهام القيادة العامة إلى اللواء أحمد فؤاد صادق.

جاء اللواء «فؤاد صادق» ليتسلم قيادة الحملة، وتناقل الضباط والجنود قصصاً كثيرة عن قسوة القائد الجديد وشدته، وبالغوا في إظهاره بمظهر القائد الفظ الذي يبطش لأتفه الأسباب.

وكانت مهمة القائد الجديد شاقة للغاية فحالة الجيش كانت قد وصلت الى درجة كبيرة من السوء والفوضى، وكانت الروح المعنوية في الجنود قد هبطت الى الحضيض من جراء الهزائم والانسحابات المتتالية، فقوات الفالوجا لا تزال تعاني مرارة الحصار، و يتناقل الجنود أنباء الهجمات الجوية والأرضية، التي تتعرض لها القوات الباسلة، وقوات المتطوعين في مناطق الخليل وبيت لحم تقاسي مرارة الحرمان من جراء انفصالها عن القوات الرئيسية، والعدو يعمل جاهداً لإفنائها واستخلاص تلك المناطق الحيوية من أيديها.

أما القوات الرئيسية في غزة فقد كانت تعاني ضعفاً شديداً، ورعباً قاتلاً بسبب هذه الأنباء المثيرة وبسبب الوضع الدفاعي الشاذ الذي لزمته في الخنادق الموحلة تحت رحمة الأمطار.

تلك كانت حالة الميدان حين تغيرت القيادة وجاء «فؤاد صادق» ليتسلم التركة، فكان أول عمل قام به أن طاف مع كبار ضباطه على الجنود في مواقعهم، وخنادقهم، يتحدث إليهم و يثير الروح الكامنة في أعماق قلوبهم تلك الروح التي حطمتها أخطاء الساسة ونزلت بها إلى الحضيض.

وكانت سنة حميدة استنها القائد الجديد، فجاءت بالنتائج الطيبة وكان لها أثر كبير في النجاح الموضعي الذي أحرزته تلك القوات بعد ذلك، وما لبثت الصورة القاتمة التي رسمها الضباط والجنود لقائدهم أن تبدلت وحلت محلها عاطفة متبادلة من المحبة والاعجاب.

ولقد زار القائد الجديد معسكرات الاخوان في الأسبوع الأول، وجلس إليهم وأبدى إعجابه الشديد بروحهم العالية، وكان يقول لهم في أول لقاء إنه سمع عن بطولتهم وأعمالهم وإنه يتمنى أن لو كانت روح أفراد الجيش على هذه الشاكلة.

ثم تكررت زياراته لهم في مواقعهم ومعسكراتهم، وكان الاخوان في كل مرة يزدادون تعلقاً بالرجل وإعجاباً به، وكان الاخوان حتى ذلك الوقت لا يزالون يحتلون المواقع المحيطة بالمستعمرات ولا تزال تقارير المخابرات الحربية ترد تباعاً إلى القيادة العامة عن مبلغ الخسائر الكبيرة التي ينزلونها بالعدو، ولقد مر بك كيف ضج اليهود بالشكوى وهددوا باستئناف القتال إن لم يوقف الجيش هذه العصابات عن نشاطها.

وفوجئت ذات يوم بطلبي إلى رفح حيث كانت القيادة العامة قد انتقلت إليها وهناك تسلمت أمراً يقضي بسحب الاخوان من تلك المواقع وإرجاعهم إلى المعسكرات، وحاولت أن أجد تعليلاً لهذا الأمر المفاجئ، فكنت أقابل بالصمت من الجميع، وقد همس لي بعض ضباط الرئاسة أن هذه التعليمات واردة من القاهرة.

وعجبت كثيراً لصدورها خاصة في هذه المرحلة الخطيرة من الحرب، وبعد أن آمن الجميع بالفائدة التي يجنيها الجيش من بقاء الاخوان في هذه المنطقة، وكنت أعلم أن اليهود سيبادرون حتماً لاحتلال هذه المواقع ليأمنوا شر العصابات وبالتالي ليضعوا خطوط الجيش المصري تحت رحمتهم، فمضيت أشرح وجهة نظري الى المسئولين وأبين الأضرار التي يمكن أن تنجم عن هذا الأمر ولكن المسئولين أصروا، وأفهموني بلباقة أن هذه الأوامر «تعليمات عليا» ليست قابلة للنقاش والتعديل.

فمضيت أنفذ هذا لأمر على كره مني وعلى كره من الاخوان جميعاً، وسحب الاخوان جميعاً من مواقعهم تنفيذاً لهذه التعليمات، وبذلك انحلت القيود التي كانت تكبل مستعمرات النقب ومضت القوافل اليهودية تجوب الصحراء بحرية من جديد، وتحشد الجنود والمعدات في المستعمرات القريبة استعداداً للعمليات المقبلة، وفقد الجيش عيونه المبصرة التي طالما نبهته للخطر قبل وقوعه.

ولقد صح ما توقعته وما حذرت منه فلم تمض إلا أيام قلائل حتى هاجم اليهود «تبة الشيخ نوران» واحتلوها، وأصبح في مقدورهم مراقبة الجيش المصري، وإحصاء حركاته وسكناته، ولقد حاول الجيش استرداد هذه التبة المنيعة فهاجمها في ٦ ديسمبر بقوات كبيرة ولكن ذهبت محاولاته أدراج الرياح رغم كثرة التضحيات والخسائر التي مني بها، وكان الفضل في ذلك لمناعة هذه التبة وخصائصها الطبيعية، وتحكمها في السهول المنبسطة التي تحيط بها، وكان هذا الموقع واحداً من المواقع التي ظل الاخوان يدافعون عنها بإصرار طوال عام كامل رغم الهجمات والمحاولات المتعددة التي قام بها العدو.

أما بقية المواقع فقد احتلها اليهود بدون قتال كذلك، فاحتلوا «تل جمة» في ١٥ ديسمبر و «تل الفارعة» في ١٨ ديسمبر، وبذلك فقد الجيش المصري منطقة تربو مساحتها على

سبعمائة كيلومتر مربع فقدها دون قتال، كما فقد المناطق المتقدمة قبلها دون قتال أيضاً، أما الأرض التي احتلها اليهود عقب انسحاب الاخوان منها فقد أقاموا فوقها المستعمرات المحصنة وحشدت فيها القوات اليهودية، التي هاجمت الجيش المصري في ختام الحرب.

أما سحب الاخوان من مواقعهم المنيعة، والحد من نشاطهم العسكري فكان صدى للإجراءات التمهيدية الشاذة التي اتخذتها الحكومة السعدية قبيل حل جماعة الاخوان في مصر، وكانت الحكومة كما أبلغت مؤخراً تخشى أن يقوم الاخوان في فلسطين بحركات انتقامية، وهكذا صور لهم الوهم أن هؤلاء الشباب المؤمنين سينقضون على جيشهم، وقت أن كانوا يقذفون بأنفسهم في لهب المعارك دفاعاً عن جيش بلادهم وكرامة أمتهم.

ولقد مر بك أن اللواء «المواوي» طالب بإرسال عدد كبير من الاخوان وإرسالهم فوراً إلى الميدان، وسافر لهذه الغاية الأستاذ «محمد فرغلي»، رئيس الاخوان في فلسطين، ولقد حدثني الصاغ «محمود لبيب» وكيل الاخوان، أن عبد الرحمن عزام أمين الجامعة ـ قد استدعاه في ذلك التاريخ ورجاه أن يعمل على تجنيد هذا العدد لأن خطورة الموقف العسكري تتطلب إرسالهم على وجه السرعة ومضى الصاغ «لبيب» فاتصل بشعب الاخوان في القطر، وأمر كل شعبة بتجهيز فرد واحد من أعضائها وإبقائه مستعداً للسفر في مدة معينة.

ولكن ما أن تناهى النبأ إلى مسامع النقراشي حتى هاج وماج ورفض قبول الفكرة من أساسها، ولم يستطع الاخوان تعليل ذلك الرفض حتى جاءت الحوادث القريبة بعد ذلك لتعلن الحقيقة المرة، ذلك أن النقراشي كان مشغولاً في ذلك الحين بتنظيم خطة القضاء على جماعة الاخوان ومحوها من الوجود.

وأعود بالذاكرة قليلاً الى الوراء، فأذكر الوقت الذي كان فيه المرشد العام عليه رحمة الله ورضوانه يعد قوة ضخمة للدفاع عن القدس، حيث كان اليهود يشنون هجمات عنيفة على مراكز الجيش الأردني بها، مما خشي معه أن يستولي اليهود على المدينة المقدسة، وأذكر أن حديثاً تليفونياً جرى بيني وبين فضيلته، وكان يقول لي انه يجهز قوات كثيفة ليدخل بها فلسطين، وأنه سيعلن الجهاد الديني والتعبئة الشعبية، بعد أن فشلت الحكومات وجامعاتها، وكان يسوق لي هذه الأنباء مردداً هذه العبارة: «ما فيش فايدة، الناس دول مش عاوزين

يحاربوا» وكان فضيلته يرمي من وراء ذلك إلى إثارة الشعور الديني في العالم الاسلامي، ودفع الشعوب الاسلامية والحكومات الاسلامية لعمل شيء ما.

على أن الحركة العسكرية التي أرادها المرشد العام لم يقدر لها النجاح، إذ وقف عناد النقراشي -الزعيم النزيه!- حجر عثرة في سبيلها استجابة لرغبات الانجليز وتمشياً مع سياستهم الذين كان يفزعهم اسم الإخوان وأنباء قتالهم الرائع في فلسطين.

ولقد سمع ضباط الجيش وجنوده بأنباء هذه الحركات الشعبية التي أرادها المرشد العام وارتاحوا لها، وعلقوا عليها كثيراً من الآمال الكبار وكان الجميع يعلمون أن مجيئه كفيل ببعث الروح المعنوية التي سحقتها الهزائم، وشد أزر المحاربين الذين فقدوا الثقة في قادتهم وزعمائهم، ولم يكن يدور في خاطر أحد أن هذا الوقت العصيب، هو الوقت الذي حدده النقراشي ليركب رأسه ويرتكب فيه أبشع حماقة عرفها تاريخ مصر الحديث.

ولم تلبث الأنباء أن جاءت بعد ذلك بقيام المذبحة الهائلة فسيق زعماء الاخوان إلى المنافي والمعتقلات، وكان من بينهم الأستاذ «محمد فرغلي» الذي ذهب ليستحضر جنوداً للميدان..!

حتى ذلك التاريخ لم يكن الاخوان المحاربون يعلمون شيئاً عن حقيقة ما يجري في مصر وعن سر هذه الإجراءات المريبة التي تتبع إزاءهم في الميدان، ولقد أدهشهم كثيراً إصرار المسؤولين العسكريين على جمعهم في معسكر والحد من نشاطهم، حتى كانت ليلة ٧ ديسمبر سنة ١٩٤٨ حين جاءني اللواء «البرديني» وكان يشغل منصب «قائد ثان» للقوات المصرية في فلسطين، وقد حضر إلى المعسكر في ساعة متأخرة من الليل يصحبه عدد كبير من ضباط أركان الحرب وجنود البوليس الحربي واقتحم حجرتي الخاصة أحد ضباط البوليس الحربي وقال لي:

إن وكيل القائد العام موجود في المعسكر ويريد أن يراك لأمر هام، فارتديت ملابسي على عجل وتبعته إلى الخارج. فأدهشتني السيارات العسكرية التي ملأت ساحة المعسكر، وأخذت أسائل نفسي عن سر هذه المظاهرة دون جدوى، وأقدمت عليهم مسلّماً ومحيياً،

فانبرى «البرديني» قائلاً : إنه يريد التحدث معي على انفراد، فصحبته إلى حجرة المكتب وجلسنا ومعنا بعض كبار الضباط، وافتتح الكلام قائلاً :

طبعاً يا فلان، كلنا إخوان وكلنا مسلمون فضلاً عن أننا نحارب عدواً مشتركاً ولغاية واحدة، ولا يمكن أن يضرب بعضنا وجوه بعض مهما كانت الدوافع والأسباب، ثم أخذ يردد هذه المعاني ويصوغها في جمل مختلفة، وشاركه ضباطه في تأكيدها، وكنت في حيرة شديدة ولا أفهم معنى لهذا الكلام، فقلت له : ألا أرحتني من عناء التفكير وبينت لي الموضوع دون حاجة لهذه المقدمات، فلست أشك أننا جميعاً إخوان نحارب عدواً مشتركاً ولغاية واحدة، وإلا لما رأيتني هنا في هذا الميدان.

قال : اسمع يا فلان! أنت رجل عاقل وحكيم وتستطيع أن تزن الأمور بميزانها الصحيح، ولقد أبلغنا أن قراراً سيصدر غداً بحل جمعية الاخوان المسلمين بمصر، والقائد العام -بناء على طلب الحكومة- يريد منك أن تسلمه جميع الأسلحة ومعدات الحرب حتى تهدأ الحال وتستبين آثار هذا القرار، خشية أن يركب بعض الاخوان رؤوسهم ويقوموا بحركات انتقامية يكون فيها أبلغ الضرر في هذه المرحلة الخطرة التي يجتازها الجيش.

ونرجو ألا تمانع في تسليم الأسلحة والمعدات لأمد محدود رغم أننا نثق أن في حكمة الاخوان وإيمانهم، ونؤمن أيضاً أنهم لن يقدموا على عمل ينجم عنه الضرر مهما كانت الأسباب!

فقلت له إن مسألة حل جمعية الاخوان مسألة نتوقعها بين يوم وآخر، ولسنا نعجب لوقوعها مادام الانجليز وصنائعهم يحكمون هذه البلاد، ثم أننا نؤمن أن هذه الدعوة ليست قابلة «للحل» لأنها دعوة الله، ودورنا فيها لا يتعدى الاخلاص لها والعمل لتحقيقها كل جهد استطاعته، فإن فعلنا ذلك فقد أدركنا بغيتنا وأدينا واجبنا، وحل الاخوان عندنا لن يتعدى نزع اللافتات وإغلاق الأبواب، أما الدعوة فموضعها قلوب الصفوة المؤمنة وهي قلاع منيعة لا يمكن قهرها ولا اقتحامها ولو نصبت الحكومة المشانق في الطرقات وراجعت سجلات الاخوان المسلمين لتشنق كل صاحب اسم أدرج فيها بلا استثناء، فلن تصل الى ما تريد لأن دعوة الإسلام ستجد حتماً من يعمل لها ولو بعد أجيال كثيرة. وليست هذه أول مرة يتعرض فيها

دعاة الاسلام للمحن والنوازل فصحائف التار يخ مفعمة بأنباء الطغاة والجبابرة، الذين وقفوا في وجههم وحار بوهم بكل سلاح، وكانت النتيجة في كل مرة أن يمحى الطغاة وتعفوا آثارهم، ثم يخرج الإسلام من محنه مرفوع الهامة، موفور الكرامة.

هذا كل ما عندي بشأن حل جمعية الاخوان، أما خشية الحكومة السعدية من قيام حركات انتقامية في الميدان فتلك خشية لا موضع لها، فإن إيمان الاخوان ووطنيتهم الصحيحة يمنعانهم من التفكير في مثل هذه الأعمال، وإن هؤلاء الشباب الذين باعوا أنفسهم وأهليهم وهجروا الدنيا بمن فيها. لن يختموا جهادهم بضرب وجوه المؤمنين من إخوانهم وزملائهم. ثم إننا لو فكرنا في الانتقام من مرتكبي هذا الجرم ومقترفيه، لما فكرنا في الجيش مطلقاً، لأننا نعلم أن الجرم كله يتركز في قلة تافهة من الحكام والكبراء، وهم وحدهم سيتحملون التبعة أمام الله وأمام الناس وسيأتي يوم ينزلون فيه من عليائهم ليحاسبوا على كل صغيرة وكبيرة.

أما دعوتنا فستظل كما هي كالطود الراسخ لا تز يدها المحن إلا قوة وصلابة، وعلى هذا فتسليم الأسلحة والمعدات يعتبر أمراً لا لزوم له، ومن واجب القائد العام ألا يفكر فيه مطلقاً، وعليه أن يبلغ المسئولين رأيه الصر يح، وأن يتحمل التبعة وهو رجل شجاع جريء لا تهمه المسئوليات والتبعات، وأرجو أن يعلم أيضاً أن هذه الأسلحة ليست ملكاً للحكومة ولا للجيش. ولكنها ملك لأفراد هذا المعسكر الذين اشتروها بمالهم الخاص، ومنهم من باع ملابسه وحلي زوجته لشرائها، ولن يستطيع إنسان- كائناً من كان- أن يقنعه بتسليمها والوقوف بدونها.

كنت أقول هذا الكلام وقد بلغ مني الغضب منتهاه وأخذ الرجل يحاول إقناعي دون جدوى، وأخيراً اتفقنا على كتمان هذا الأمر، حتى أقابل القائد العام في الصباح بمركز رئاسته في رفح، ومضى «البرديني» وصحبه و بقيت وحدي فترة من الزمن ثم غادرت المكتب، وقد عولت على كتمان هذا الأمر حتى يمكن معالجته بحكمة ولباقة.

وهناك على باب الحجرة وجدت جمعاً كثيراً من الاخوان ينتظرني وقد دهشوا لهذه المظاهرة العسكر ية التي اقتحمت المعسكر بسياراتها و بوليسها، وكان كل واحد منهم يبدي

سبباً من الأسباب، و يتكهن بالاحداث الجسام، التي لا بد أن تكون وقعت أو على وشك الوقوع ، ودلفت الى الغرفة بعد أن طمأنتهم بكلمات مختلفة، و بينت لهم أسباباً وهمية عن معارك وشيكة الوقوع، وأن هؤلاء الضباط قد جاءوا ليبينوا لي دور الاخوان فيها، فانصرف الاخوان كل الى موضعه ولم يبق إلا عدد قليل دخلوا معي إلى الحجرة، وأذكر أنني قمت لأصلي العشاء ووجدت نفسي بلا إرادة أقرأ سورة «البروج» فلما وصلت الى قول الله تعالى «وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ... الخ الآية» ... لم أتمالك نفسي فبكيت.

وكان الإخوان المحيطون بي قد فهموا كل شيء، فما كدت أنتهي من الصلاة حتى كانوا جميعاً يبكون، و بادرني احدهم وهو الاخ «سيد عيد يوسف» بقوله : هل حلت الاخوان في مصر؟ قلت له نعم وطلبت منهم أن يكتموا هذا الأمر حتى نتبين عواقبه. وخرج الاخوان و بقيت وحدي في غرفتي ولم يغمض لي جفن طوال تلك الليلة.

كان مفروضاً أن أذهب في الصباح الباكر لمقابلة القائد العام، حيث ثبت له أمر الإخوان عقب هذه الحوادث. فصليت الصبح ثم ركبت سيارة المعسكر وتوجهت إلى قرية رفح حيث القيادة العامة، وكنت أفكر طول الطريق فيما عسى أن يحدث، لو أصر «فؤاد صادق» على رأيه في تجريد الاخوان من سلاحهم وكنت أعلم سلفاً أن الإخوان لن يقبلوا تنفيذ هذا الأمر بسهولة، ولن يلقوا أسلحتهم بهذه الصورة المزرية.

وظللت أقلب الأمر على وجوهه كلها فلم أجد إلا وسيلة واحدة تريحنا من هذا العناء، هي أن يقتنع القائد العام بما أقوله و يدع الأمور تمضي في مجراها الطبيعي، حتى دخلت رفح، وكان الضباط يقبلون علي مرحبين، وكانوا جميعاً ناقمين على هذه الأوضاع، ولم يخف أحد منهم استنكاره لهذا الاجراء الظالم الذي استهدفت له أكبر هيئة شعبية في مصر، على أنهم كانوا مجمعين على أن جماعة الاخوان لم تحل، ولكن الأحزاب الحاكمة هي التي حلت نفسها بنفسها حين أقدمت على هذه الخطوة الطائشة. ثم التقيت بكبار المسئولين في الرئاسة، وقال لي القائمقام «ابراهيم سيف الدين» ـ وكان أركان حرب القائد العام وساعده الأيمن ومن خيرة الضباط الذين عرفناهم في الميدان ـ قال لي : إن القائد قد فكر كثيراً في الأمر

وتحدث مع المسئولين في القاهرة وأغلب الظن أنهم قد تركوا له معالجة الأمر بالصورة التي يراها. وبعد لحظات دعيت لمقابلة القائد العام، فقابلني الرجل بوجه باسم ورحب بي، ثم عرج على حوادث القاهرة فقال إنه يرجو ألا يتاثر الاخوان بما يجري هناك، وأن يركزوا جهدهم في المهمة العظمى التي يقومون بها في سبيل الله والوطن واستطرد يقول: ـ إنه قد فكر كثيراً في الأمر فاستقر رأيه على معالجته بالحكمة والحسنى، وإنه سيترك للإخوان الخيرة في أمرهم، وعليهم اختيار الأوضاع التي يرتاحون إليها فإن رأوا ـ كلهم أو بعضهم ـ مغادرة الميدان والذهاب الى بلادهم ليشاركوا إخوانهم في محنتهم فسوف يسهل لهم أمر العودة وإن رأوا أن يستمروا مع زملائهم حتى تستقر الحالة العسكرية على وضع من الأوضاع فسيظلون في أماكنهم دون أدنى تغيير في أوضاعهم ونظمهم.

على أنه يرجو أن يتدبر الاخوان الأمر وأن يعلموا أن الجيش في حالة ماسة الى جهودهم، ولا يليق بهم التخلي عنه وهو على هذه الحالة ثم طلب اليَّ أن أجمعهم في موعد معين حتى يذهب إليهم و يتحدث معهم كعادته فوعدته خيراً، وخرجت وقد زال من صدري هم ثقيل واختفى من أمام ناظري شبح أزمة مخيفة كنت أحسب لها ألف حساب.

ولما عدت إلى المعسكر وجدت أنباء القرار المشؤوم قد سبقتني إليه عن طريق الصحف وأجهزة الراديو، ورأيت الاخوان يتجمعون في حلقات كثيرة و يتناقشون في أمر هذا القرار، وقد علت وجوههم علامات الغيظ والحنق، فطلبت منهم الانصراف إلى أعمالهم، ثم عقدت اجتماعاً عاماً حضره قواد السرايا وضباط الفصائل، وشرحت لهم ما دار بيني و بين قيادة الجيش، وطلبت منهم بحث الموقف واتخاذ قرارات بشأنه. فتداولوا الرأي بينهم ثم قرروا مفاتحة الاخوان في الأمر وعقد اجتماع عام حتى يمكن معرفة رأيهم جميعاً، واتخاذ قرار موحد على أساس من الرغبة والاختيار.

جمعنا الاخوان في مسجد المعسكر، وتحدثت اليهم طويلاً في هذا القرار الأحمق، و بينت لهم حقيقة ما دار بشأن تسليم الأسلحة والمعدات وما تم التفاهم عليه، ثم خيرتهم بين الاستمرار في القتال أو الانسحاب الى مصر، وطلبت منهم الادلاء بآرائهم الصريحة دون ضغط أو إكراه، ثم أعقبني الأخ المجاهد «حسن دوح» من قواد المعسكر فحدثهم عن المحن

كمرحلة ضرورية في الدعوات وأنهى كلمته بمطالبتهم باتخاذ قرار موحد نلتزمه جميعاً ونتعاون على تنفيذه.

واستأذن أخ آخر في الكلام وقال إن عنده وصفاً لهذه المحنة من كلام المرشد العام نفسه! وأخذ يقرأ كلمات من رسالة كتبها الامام الكريم قبل ذلك التاريخ بسنوات وتنبأ فيها بمحن قاسية تعترض الاخوان، فيعتقلون وينقلون ويشردون، وتصادر حريتهم وأرزاقهم، وتلصق بهم التهم الباطلة ظلماً وعدوانا، ويتعاون عليهم أعداء الاسلام من مستعمرين وحزبيين، ولكن الله وعدهم بعد ذلك كله مثوبة العالمين ونصرة المجاهدين.

وذكر الأخ المتكلم أن الأستاذ الامام كان يتعجل المحنة ويتعجب من تأخرها، ويعتبر وقوعها علامة النصر وبداية الطريق إلى الفوز المبين.

وبعد أن انتهى المتكلمون طلبت إلى الاخوان الإدلاء بآرائهم فوجدت إجماعاً تاماً على ضرورة البقاء، ومواصلة القتال حتى ينتهي الجيش من مهمته وتعود فلسطين كما كانت دائماً أرضاً عربية مسلمة.

وفي اليوم التالي حضر اللواء (فؤاد صادق) يرافقه جمع كبير من ضباطه وأبدى رغبته في الجلوس إلى الإخوان والتحدث إليهم بنفسه، فلم يمض إلا دقائق حتى كانوا جميعاً في مسجد المعسكر، ولما دخل عليهم حيوه بهتافات الاخوان المعروفة، ثم قام الأخ (حسن دوح) فتحدث نيابة عن الاخوان وبين للقائد إجماع الاخوان على البقاء ومواصلة الجهاد حتى تنتهي الحرب دون أن يتعرض الجيش مطلقاً لنظم قيادتهم وتشكيلاتهم، وتحدث القائد إلى الاخوان وشكرهم على هذه الروح السمحة الطيبة وأبدى استعداده لاجابة مطالبهم كلها.

وهكذا انحصر تفكير الاخوان في الجهاد عن فلسطين ووضع مصلحة الجيش والأمة فوق كل اعتبار.

فهل كان هذا الموقف يتنافى مع رأى قيادة الاخوان في مصر؟

المفروض أن قيادة الارهاب العليا لن تحارب في فلسطين ومصر معاً وتوزع قواتها بين جبهتين! والوضع الطبيعي أن تبادر القيادة العليا المذكورة فتسحب قواتها من فلسطين لتواجه

بهم هجمات البوليس المصري، وتنفذ مؤامرتها الكبرى لقلب نظام الحكم في الدولة، وتحقيق المسرحية المثيرة التي ألفها (عمار) وأخرجها (النقراشي) وخليفته، كان هذا هو المفروض في مثل هذا الموقف، ولكن يظهر أن قيادة الارهاب لم تكن لها حكمة (عمار) ولا ذكاء (ابراهيم عبد الهادي) فكان أن أرسل المرشد العام خطاباً مع أحد الاخوان يقول فيه (إنه لا شأن للمتطوعين بالحوادث التي تجري في مصر، وما دام في فلسطين يهودي واحد يقاتل فإن مهمتهم لم تنته) ثم يختتم الرسالة بوصية طويلة للاخوان بالتزام الهدوء وحفظ العلاقات الطيبة مع إخوانهم وزملائهم من ضباط الجيش وجنوده.

والواقع أن خطة المرشد العام كانت تقضي بعدم المقاومة حتى لا يستفيد الانجليز من الفتنة، إذ كان يدرك أن خيوط هذه المؤامرات كانت في يدهم، فهم الذين احتضنوا الصهيونية منذ كانت فكرة وحلماً، حتى أصبحت دولة وجيشاً.

ورأى الانجليز أن مصر كلها تقف صفاً واحداً لمواجهة الخطر اليهودي، وأن هيئاتها المختلفة لم تتفق على أمر بقدر ما اتفقت على محاربة اليهود ومكافحة شرهم، رأى الانجليز ذلك، ورأوا أن هيئة الاخوان هي التي تتزعم الحرب ضد اليهود في البلدان العربية وفي فلسطين وخشوا أن يتناول الاخوان لواء الجهاد، وبذلك تتحول الحرب إلى معركة شعبية لا سيطرة فيها لقرارات الأمم المتحدة، ولا لمجلس أمنها المنكود.

والانجليز يريدون أن تستمر هذه الحرب حكومية رسمية حتى يأمروها، أو يدعوها فتسير.

ولقد زاد من خوفهم ما أذاعه المرشد العام عن عزمه على إعلان التعبئة الشعبية والجهاد الديني وهو ما ذكرته في موضع سابق، كل هذه الأسباب وغيرها جعلت بريطانيا وزميلتيها الاستعماريتين فرنسا وأمريكا تضغط على النقراشي وتأمره بحل الاخوان المسلمين والتضييق عليهم فإن قاوم الاخوان وتحولت الفتنة إلى حرب أهلية فهي الفرصة الذهبية لبريطانيا، وإن سكت الإخوان واحتسبوا فقد نجحت في تحطيم الوحدة الشعبية وتوجيه قوى الأمة والحكومة وجهة مضادة.

ولقد حدثني أحد الاخوان العائدين إلى الميدان أن نفراً من شباب الدعوة توجهوا للإمام

الشهيد عند طغيان موجة الاعتقالات وسألوه عن رأيه في هذه الحركة، واستأذنوه في المقاومة حسب الطاقة ولكن الرجل المؤمن حذرهم من هذا، وبين لهم أن الإنجليز هم السبب وأنهم هم الذين أوحوا الى النقراشي بحل الإخوان والتضييق عليهم على أمل أن يقاوموا، فيغتنم الانجليز الفرصة للتدخل المباشر في شؤون البلاد، ثم وضح لهم الدور في القصة المشهورة التي تروى عن سليمان الحكيم عليه السلام، حين اختصمت إليه امرأتان على طفل وليد، وادعت كل واحدة منها بنوته، فحكم بشطره نصفين بينها، فوافقت المرأة التي لم تلده على قسمته، بينما عز ذلك على الأم الحقيقية، وآلمها قتل فلذة كبدها فتنازلت عن نصيبها فيه، نظير أن يظل متمتعاً بحياته وقال الإمام الشهيد: ـ «إننا نمثل نفس الدور مع هؤلاء الحكام ونحن أحرص منهم على مستقبل هذا الوطن وحرمته، فتحملوا المحنة ومصائبها، وأسلموا أكتافكم للسعديين ليقتلوا ويشردوا كيف شاؤوا وحرصاً على مستقبل وطنكم وإبقاء على وحدته واستقلاله».

وصدع الاخوان بالأمر، وتحملوا مصائب المحنة بصبر وجلد، ومضى السعديون في خطتهم الطائشة يقتلون ويشردون، ولا ينام زعيمهم مطمئناً إلا إذا ارتاحت نفسه لعدد من المشردين والمعذبين، وكان كلما زاد العدد كان ذلك أدعى لراحته وسعادته، حتى كفنت مصر كلها في سحابة كثيفة داكنة من الظلم والظلمات، وبات أي فرد في مصر تحت رحمة البوليس السياسيّ إن شاء عذب وإن شاء غفر، وشهد الناس ألواناً جديدة من الطغيان، لم يعرفوها قبل هذا العهد الأسود، فساجد الله تهاجم وتراقب، ويوضع روادها في قائمة المشبوهين، وكتب الله والسنن تعتبر نشرات ممنوعة لا يجوز تداولها، ومبادئ الاسلام الكريمة تضم إلى غيرها من المبادئ الهدامة التي يحاربها القانون ... قانون الدولة التي يزعمون أن دينها الرسمي هو الاسلام!

وكان طبيعياً أن تبرر الحكومة موقفها وتخلق سبباً أو أسباباً لهذه المذبحة المريعة، فأخذت أبواقها تشيع في الجمهور أنباء مختلفة عن مؤامرات تدبر في الخفاء لقلب نظام الحكم، وطفحت الصحف الحكومية المغرضة، بتفاصيل هذه المؤامرات الوهمية، وتعدتها إلى الكلام عن الجمهورية الاسلامية، ودستور القرآن الذي يريد الاخوان تطبيقه، وصور

الخيال أركان النظام الجديد، حتى ذكرت إحداهما أسماء بعض وزراء الحكومة الاسلامية الجديدة!...

ولم يكن الاخوان يستطيعون الدفاع عن أنفسهم في ذلك الجو الخانق الأغبر، فالحكومة تقبض بيد من حديد على وسائل الإذاعة والنشر، وتملي عليها ما تكتبه وما تذيعه، وخزائن الدولة مفتحة الأبواب أمام أصحاب الأقلام المأجورة والذمم الخربة، ليغترفوا منها و يدبجوا المقالات، و يكتبوا ما يمليه عليهم الهوى والغرض، و يساهموا مساهمة فعالة في تضليل الشعب واستعداء الحكومة، التي لم تكن في حاجة إلى استعداء، وهي تعلم جيداً معالم الطر يق الوعر الذي خططه لها أسيادها المستعمرون واندفعت فيه دون رو ية أو تفكير.

والشعب المسكين يقف مذهولاً من هذه الحركات، ولا يكاد يفقه معناها فهو يستقي معلوماته من الصحف المغرضة، والأقلام المأجورة، و يطالع كل يوم أنباء العثور على أسلحة ومفرقعات، هي في الواقع من مخلفات الكميات الهائلة التي بعث بها الاخوان إلى فلسطين، ولكن أبت الروح الحزبية الخبيثة إلا أن تجعل منها أسلحة لجيش سري خطير!

في هذا الجو المسموم كانت تعيش مصر، وتلك كانت حالتها الداخلية عقب هذا القرار الأحمق، فأي توافق عجيب بين هذه الحركات الداخلية، و بين توتر الحركة العسكر ية في الميدان؟!

١٦ ـ الاخوان بعد قرار الحل
(معركة التبة ٨٦)

«أيها الاخوان، لا يهمكم ما يجري في مصر، فإن
مهمتكم هي مقاتلة اليهود، ومادام في فلسطين يهودي
واحد فإن مهمتكم لم تنته».   «حسن البنا»

لم يؤثر قرار الحل في سياسة الاخوان في فلسطين، وظلوا يؤدون واجبهم المقدس في مجاهدة أعداء الاسلام، رغم ما كانت تصلهم من أنباء مثيرة عن الارهاب الحكومي في أرض الوطن.

وما كاد شهر ديسمبر ينتصف، وتصل الحالة الداخلية في مصر إلى أسوأ مراحلها، حتى استغل اليهود الفرصة، وقاموا بأعنف هجمات شهدتها حرب فلسطين، وكان الاخوان في ذلك الحين يعاد تدريبهم في المعسكر، بعد أن قضوا أكثر من عام في معارك متواصلة، ومما يجدر الإشارة اليه، أن اللواء «فؤاد صادق» كان قد افتتح بعض المدارس العسكرية في رفح للتدريب على الأسلحة الصغيرة وفنون القتال، وطلب انتساب نفر من الاخوان إليها ليعاد تدريبهم فبعثنا عدداً كبيراً من الاخوان ووزعناهم على الفرق المختلفة، ولقد كان إقبالهم على الدرس والتدريب، ورغبتهم الشديدة في تعلم أساليب الحرب الحديثة مثار اعجاب الضباط الذين زاملوهم في الدرس أو اتصلوا بهم.

ولما انتهت فترة التدريب اقترح القائد العام أن يظل الاخوان في معسكراتهم ليكونوا «قوة ضاربة» تكون مستعدة دائماً للدخول في أية معركة.

ولم يطل الانتظار طويلاً! إذ نقض اليهود الهدنة في ٢٣ ديسمبر وهاجموا مرتفعاً حاكماً جنوبي دير البلح يعرف باسم التبة ٨٦. وكان نجاحهم في احتلال هذا الموقع يعني عزل «حامية» غزة وتمثيل مأساة الفالوجا مرة أخرى.

ولقد رأينا كيف اضطر الجيش الى إخلاء مناطق برمتها عندما احتل اليهود موقعاً مشابهاً عند «بيت حانون»، وكان هذا مايرمي إليه اليهود من معارك «الطرق»، التي اتسمت بها حربهم في فلسطين، من قطع مواصلات الجيش وإرغامه على التقهقر، ثم طلب الهدنة لتمكنهم من المحافظة على ما وقع في أيديهم، وكان هذا ما أرادوه من احتلال مرتفع «دير البلح» الذي نتحدث عنه.

ولقد تحدث إليَّ الأميرالاي «محمود رأفت» قائد قطاع «دير البلح» بالتليفون في ساعة متأخرة من ليلة ٢٣ ديسمبر، وأخبرني أن العدو قد نجح في اختراق خطوطنا الامامية في دير البلح وانتزع المرتفع من أيدي جنودنا الذين أذهلتهم «المفاجأة». وقواته تتجمع الآن وتحاول الوصول إلى طريق المواصلات الرئيسي، ولكن قوات الجيش تحاول حصره فوق المرتفع حتى الصباح، حيث يمكننا أن نقوم بهجمات مضادة لاسترداده وتطهيره، ثم صارحني بأن الموقف جد خطير، وأن هذه المعركة سوف يكون لها أثر بالغ في النتيجة العامة للحرب، وختم حديثه طالباً أن يستعد الاخوان ليكونوا آخر «ورقة» نقذف بها في وجه اليهود.

فألقيت سماعة التليفون وخرجت من المكتب وكانت أصوات الانفجارات العنيفة تسمع عن بعد في جبهة القتال، وطلقات الرصاص المضيء تمزق حجب الليل المظلم وترسم على صفحة السماء خطوطاً حمراء متشابكة فأمرت بصفارة الإنذار فأطلقت ولم تمر دقائق على إطلاقها حتى كان حراس المعسكر قد أخذوا مواضعهم الدفاعية، وتجمعت القوات الاحتياطية في أرض التدريب وكل فصيلة أمامها قائدها ومعها أسلحتها ومعداتها، وتحركت مصفحات المعسكر وسياراته المدرعة وانتظمت في تشكيلات الاستعداد، وأخذ قوادها يمدونها بحاجتها من البترول والماء، ثم دعوت الاخوان المسئولين وشرحت لهم الموقف في إيجاز وطلبت تجهيز سرية للاشتراك في هذه المعركة، وكانت المشكلة أمامي وأمام الاخوان المسئولين إقناع بعض الأفراد بالبقاء، فكل فصيلة تريد أن يكون لها شرف العمل دون

غيرها، فلما وقع الاختيار على الفصائل الثلاث هلل أفرادها وكبروا وأخذوا يهتفون من أعماق قلوبهم : «هبّي ريح الجنّة هبّي!» ومضوا يعدون أسلحتهم، ويستعدون لمنازلة العدو، وبعد ساعة تحركت السيارات بمن فيها لترابط قريباً من أرض المعركة.

كانت نسمات الفجر تحمل إلى أنوف المحاربين رائحة البارود المحترق مختلطة بأنفاس الشهداء الأبرار، وكانت أشعة الفجر الأولى تتسلل إلى الميدان فتكشف معالمه شيئاً فشيئاً، والغيوم تتكاثف وتلقي حمولتها من الماء فوق رؤوس المحاربين، وكان اليهود حتى ذلك الحين لا يزالون فوق المرتفع الذي احتلوه، ولا تزال مدافعهم تسيطر على مسافات شاسعة من الأرض المنبسطة حوله.

ولم تكد الشمس ترسل أول أشعتها، حتى صدرت الأوامر لجنود الجيش بالتقدم، فانسابوا في أفواج متلاحقة، تريد أن تصل إلى القمة، وتطرد العدو الرابض فيها، ولكن ارتفاع الموقع، وسيطرة أسلحة اليهود على الأرض المحيطة به، كانا يمنعان الجنود من الاقتراب، وظلت الحالة هكذا موجات إثر موجات وجرحى كثيرون، وشهداء يسقطون دون الهدف، وكيف يمكن للحوم آدمية أن تقاوم القنابل والرصاص. والعدو الماكر يربض خلف خنادقه التي أعدها بعناية ويصوب نيرانه منها على لحوم بشرية متراصة، وبدا جلياً للعيان أن لا أمل مطلقاً في كسب المعركة، إلا في حضور عدد من الدبابات فأرسلوا في طلبها على عجل، وجاءت الدبابات، ودفعت إلى المعركة واحدة تلو الأخرى، فتعطلت منها اثنتان على سفح التل ولم يستطع أحد الاقتراب من مواقع العدو.

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد الظهر، والريح لا تزال تدوي بشدة، وتسوق أمامها قطعانا من السحب الكثيفة، وعواصف المطر الباردة، ووقف الضباط يتطلعون إلى السماء يلتمسون العون من الله العلي الكبير، بعد أن جربت كل الأسلحة. ووضح جلياً أن هذه المعركة قد «ماعت»، وضعف الأمل في حسمها قبل الليل.

وكان لا بد من إلقاء الورقة الأخيرة فطلب الأميرالاي «محمود رأفت» إحضار الاخوان على عجل، وما أن سمع الجنود والضباط اسم الاخوان حتى سرت في نفوسهم روح جديدة

من الأمل والثقة. وطلبت من القائمقام «علي مقلد» قائد الفرسان، أن يوفر دباباته ليدفع بها أمام جنود الإخوان، وبعد لحظات وصل جنودنا إلى ميدان المعركة، وترجلوا عند مكان أمين لتنظيمهم وإعدادهم وكانت الخطة تقضي بتقسيم الاخوان الى ثلاث مجموعات تهاجم اثنتان منها الموقع من الأمام ومن جهة الشمال، بينما تدور القوة الثالثة حول المرتفع وتهاجم مؤخرته، وتمنع تدفق الامدادات عليه، وتجذب اهتمام المدافعين إليها وتشغلهم عن القوتين الأخريين، وكان المفروض أن تتقدم الدبابات متجمعة أمام قوة الاخوان تحت ستار من نيران المدفعية والأسلحة الرشاشة، وتحت غلالة من قنابل الدخان التي كانت تطلقها مدافع الهاون التابعة للاخوان المسلمين، وبدأت المعركة على هذا الأساس، وانطلق الاخوان إلى أهدافهم وقد علت وجوههم اشراقة الايمان القوي وكانوا ينشدون في حماسة نشيدهم المعروف :

هو الحق يحشد أجناده	ويعتد للموقف الفاصل
فصفوا الكتائب آساده	ودكوا به دولة الباطل

وأمسك الضباط والجنود أنفاسهم، وهم ينظرون إلى هذا الشباب المؤمن يتواثب في ثبات وقوة. ولا يثنيه الرصاص والقنابل عن التقدم لملاقاة أعدائه. لقد آمن الضباط والجنود أن هناك نتيجتين لا ثالث لهما : إما أن ينتصر هؤلاء الشباب أو يموتوا جميعاً، لأن الانسحاب والتراجع لايدخل في برنامجهم إطلاقاً، وخاصة في مثل هذا الموقف الحرج الخطير.

وظلت مدافع الاخوان تقذف الموقع بقنابل الدخان فترة طويلة حتى أحالت القمة الى سحابة قاتمة، لا ترى خلالها غير ألسنة اللهب الناتج عن انفجارات القنابل، وسكتت المدافع، وانساب المجاهدون إلى أهدافهم، وبدأت معركة الخنادق، وروع اليهود حين رأوا الإخوان يلقون بأنفسهم فوقهم في الخنادق، والدشم، ويعاركونهم بالقنابل والحراب والأيدي، ورغم كثرة الضحايا من الاخوان، فإن القوة قد تمكنت من احتلال خنادق العدو، وأخذت تطهرها جزءاً جزءاً، ولم يجد اليهود بداً من إخلاء الموقع، فصمتت مدفعيتهم

وأسلحتهم ، وشوهدت مصفحاتهم تتحرك للخلف حاملة الجرحى والهلكى ، وكان هذا المنظر حافزاً للجنود الآخر ين ملهباً لحماسهم ، فأخذوا يتكاثرون على الموقع و يتمون تطهيره، حتى جاءت أخيرا الحمالات «قاذفات اللهب» تطارد فلول العدو المنهزمة ، وانتهت المعركة بنصر حاسم وكانت إحدى المعارك الكبرى التي تكبد فيها العدو خسائر فادحة دون أن يحصل على نتيجة تذكر، ووجد ضمن القتلى عدد من كبار الضباط الإسرائيليين و بينهم قائد المعركة وهو «كولونيل» روسي يحتل مركزاً هاماً في الجيش الاسرائيلي ، ووجدت في جيبه تفاصيل الخطة التي اتبعت في دير البلح والخطط المقبلة التي كان يراد منها إلقاء الجيش المصري في أعماق البحر.

كانت الشمس قد مالت للمغيب حين انتهت المعركة ، وأخذ الجنود يحتلون الموقع بعد فرار اليهود منه ، أما جنود الاخوان فقد انسحبوا في سكون وهدوء ، بعد أن أخذوا منهم كميات وفيرة من الأسلحة الألمانية والروسية ، وأكداساً من القنابل والذخائر. وكان الضباط يعانقونهم عند خروجهم ، ويهنئونهم بهذا النصر الحاسم و يشيدون بجهودهم وفضلهم.

ولقد سقط من الاخوان في هذه المعركة وحدها عدد كبير من الجرحى والشهداء ، وكان أول الشهداء قائد الفصيلة المرحوم «السيد محمد منصور» من إخوان الشرقية. ومما يروى عن هذا الشهيد المبرور أنه حين أصيب بالضربة القاتلة ، التف حوله نفر من إخوانه وشغلوا به عن الهجوم ، فنهرهم بشدة ، وحينما حملوه الى الخطوط الخلفية ، أفاق من غيبوبته وسألهم عن سير المعركة فأجابوه بما طمأن نفسه ، فابتسم وتمتم ، الحمد لله...

ولم يقف لسانه عن الدعاء لحظة : اللهم انصر دعوتنا ، وحقق غايتنا ، حتى لفظ أنفاسه الطاهرة ، ومضى إلى جنة ربه الواسعة ، ليحمل البشرى إلى سكانها ، «إن شجرة الاسلام الخالدة قد بدأت تورق من جديد».

أما الشهيد «حسن العزازي» من إخوان العريش ، فقد أصيب بجرح في كتفه وكان في وسعه أن يعود ولكنه ظل يكافح بصعوبة ، حتى احتمى بنتؤ بارز في مواجهة العدو وأخذ يلهب خنادقه برصاص مدفعه الرشاش حتى أسقط منهم عدداً كبيراً مما اضطرهم إلى تركيز نيرانهم عليه ، فأصابته عدة طلقات في مواضع مختلفة من جسمه ، فسكت مدفعه وصعدت

روحه الطاهرة بعد أن ثأر لنفسه ومتع نظره برؤية الدم الصهيوني المراق...

وقد كان عدد الجرحى كبيراً، ومنهم من مات متأثراً بجراحه بعد وصوله للمستشفى، ومنهم من عاد في «إرساليات» مرضية إلى مصر، ثم كمل علاجه في معتقلات الطور وهاكستب! ولا تظنني أمزح أيها القارئ الكريم، فإنني لا أسجل إلا الحق والصدق، فإن اثنين من جرحى هذه المعركة، وهما الاخوان المجاهدان «عويس عبد الوهاب» و «سيد عيد يوسف» قد نقلا بعد المعركة إلى مستشفيات مصر لمعالجة جراحهما الخطيرة، ولكن البوليس السياسي أشار بنقلهما الى الطور ـ ولعله خشي انضمامهما إلى الجيش الارهابي السري ـ فنزعا من المستشفيات وجراحهما لا تزال تنزف دماً، وألقيا في أحد العنابر الرطبة دون غذاء أو علاج. ولا يزال أحدهما يعاني ألماً مراً من رصاصة مستقرة في بدنه!!..

انتهت معركة «دير البلح» على الصورة التي ذكرنا، وكان دور الاخوان فيها مفخرة كبرى من مفاخر هذه الدعوة، وأثرها في تكوين المحارب الناجح. وبجانب الكسب الأدبي فقد غنم الاخوان عدداً كبيراً من الأسلحة الرشاشة التي كانوا في أمس الحاجة اليها. ولقد كلفهم هذا الانتصار غالياً فسقط منهم عدد كبير من الجرحى والشهداء، وكان يزيد في عظم الخسارة استحالة تعويضهم من مصر، وقت أن كانت المذبحة قائمة على قدم وساق، غير أن هذه الخسارة وما لابسها من ظروف ومحن لم تزعزع من ايمان الاخوان وثباتهم.

ولقد خشيت أن تكون كثرة الخسائر قد نالت من روحهم القوية فقمت في الصباح الباكر بجولة بين حجراتهم فما وجدت للحزن أثراً وما وجدت إلا استبشاراً وغبطة للنتيجة التي أرادها الله، وكانوا يتناقلون فيما بينهم قصص البطولة التي سجلها شهداؤهم على أرض المعركة، ويمني كل واحد منهم نفسه بنتيجة مماثلة، و يرجو أن يكون حظه من جهاده طلقة تودي به إلى رحاب الجنة، فالشهادة في نظرهم ليست موتاً ونهاية، ولكنها بداية لحياة هنيئة طيبة في جوار الله، فلم لا يتعجلونها وقد رأوا أماراتها بأعينهم في ابتسامات الشهداء، وسمعوا بشرياتها بآذانهم في آخر كلمات نطق بها المحظوظون السعداء، وهم يستروحون أولى نسمات الجنة و يضعون أقدامهم على أولى درجات الحياة الباقية.

ولقد زارني في ذلك الصباح مندوب من قبل القائد العام، وأخبرني أن اللواء «فؤاد صادق»، يرغب في مطالبة الحكومة بالإنعام بأوسمة عسكرية رفيعة على الإخوان، إشادة بفضلهم واعترافاً بجهادهم في هذه المعركة وغيرها، وهو يريد مني كتابة كشف بأسماء «الاخوان» الذين اشتركوا في معركة الأمس، فانعت أولاً في تقديم كشف لهذا السبب، وقلت إن الإخوان لا يعملون بغية أوسمة وشارات، ولكنهم طلاب ثواب ومغفرة، وليس لهم مطمع من جهادهم، غير الاحتفاظ بكرامة أمتهم وجيشهم والابقاء على عروبة فلسطين كجزء من وطنهم الاسلامي الكبير، فإن حققوا ذلك فقد وصلوا إلى أقصى ما يريدون من نتائج، ولكنه ألحَّ إلحاحاً شديداً وحاول إقناعي بأن الانعام على الإخوان لا يعد انتقاصاً لبلائهم وثوابهم، بل هو اعتراف من الدولة بشجاعتهم وصدق جهادهم، ثم هو فوق ذلك اعتراف بفضل الدعوة التي صنعتهم.

وأمام هذا الالحاح لم أجد بداً من إجابة مطلبه، فأعطيته الكشف المطلوب، ولقد أخبرني بعض ضباط الرئاسة، أن اللواء «فؤاد صادق» تقدم للحكومة السعدية طالباً منح نياشين رفيعة للاخوان، غير أن الحكومة اعتبرت تنفيذ هذا المطلب اعترافاً منها بجهاد الاخوان، وحسن بلائهم، فكيف توفق بين ذلك الاعتراف، وبين خطتها في القضاء على جماعة الاخوان، وتشويه كل مظهر من مظاهر نشاطها؟

وكيف توفق بين هذا المسلك، وبين ما تكتبه صحفها «للعقاد» وغيره من الكتاب المرتزقة من مقالات وبحوث، يدللون فيها على خيانة هذه الجماعة وتآمرها مع اليهود؟! فماطلت الحكومة السعدية زمناً طويلاً، وحاولت اقناع «فؤاد صادق» بالعدول عن مطلبه، غير أن الرجل الشجاع أصر على ذلك واعتبر هذه المماطلة امتهاناً لكرامته وإحراجاً لمركزه، مما اضطر الحكومة لإجابة مطلبه، فاختارت حلاً وسطا. وصدرت النشرة العسكرية في مايو سنة ١٩٤٨ تحمل أسماء خمسة عشر جندياً من الاخوان المسلمين المصريين والفلسطينيين، ورأت الحكومة أن تداري موقفها المخجل فسمتهم في نشرتها «جماعة المتطوعين المصريين» ! ثم تتابعت النشرات العسكرية تحمل الانعام على أبطال الاخوان المسلمين في «بيت لحم» و

«صور باهر» وغيرهما من المناطق. ومن المضحك أن تصدر النشرات العسكرية وفيها اعتراف رسمي ببطولة جنود الاخوان، وقت أن كان الأبطال المنعم عليهم لا يزالون يقاسون مرارة الاعتقال، و يعيشون كالمجرمين الخطرين خلف الأسلاك الشائكة بين معسكرات «رفح» و «الطور» و «هاكستب»!! وهكذا أباحت العقلية المنكوسة لنفسها معاملة طائفة من الناس على أنهم أبطال مغاوير، ومجرمون خطرون في آن واحد.

٤٧ ـ المعارك الأخيرة في (النقب)

إذا لقيت عدوك فاثبت له حتى يتقهقر، فإذا تقهقر
فاتبعه حتى يقع، فإذا وقع فاضرب عنقه.
«عمرو بن العاص»

ظل الإخوان في معسكراتهم يمارسون التدريب و يستعدون للمعارك المقبلة، وتطلبهم قيادة الجيش بين حين وآخر.ليقوموا بأعمال الدوريات على طول الجبهة، وليتسقطوا أنباء العدو و يرصدوا تحركاته، و يقوموا بوضع «الكمائن» في الوديان والجبال للإيقاع بدباباته ومركباته. وكثيراً ما كانت تخرج مجموعات منهم لتتعاون مع كتائب الجيش، كلما وقعت اشتباكات محلية في قطاعات الميدان المختلفة، ولم تدم هذه الحالة «المريحة» طويلاً! إذ قام اليهود بحركة التفاف واسعة، قصدوا منها ـ كما جاء في المنشورات التي ألقتها قيادة القوات الاسرائيلية قبيل الهجوم ـ إلقاء الجيش المصري خلف الحدود، فقاموا بهجومهم الكبير والأخير في ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٤٨، ونجحوا في انتزاع منطقة كبيرة من الجيش، غير أنهم فشلوا في تحقيق هدفهم المنشود من استخلاص بقية فلسطين، ولقد قرر للإخوان أن يساهموا في هذه المعارك الكبرى مساهمة فعالة، ولا يزال الضباط والجنود يتغنون بها حتى الآن و يعتبرونها المثل الأعلى للجندية المؤمنة.

وقبل أن أخوض في تفاصيل هذه الهجمات، التي أسرعت بنهاية الحرب وعجلت بخاتمتها المفجعة، أود أن أبين الحالة التي كانت عليها القوات المتحاربة قبيل ذلك التاريخ، ليكون القارئ على بينة من حقيقة الموقف.

وضحت في الصفحات السابقة كيف اضطر الجيش المصري أمام هجمات العدو المفاجئة خلال شهر أكتوبر، إلى إخلاء المناطق الواسعة في «أسدود» و «المجدل» وما ترتب على ذلك من «إغفال» مجموعة لواء كاملة في قرية «الفالوجا» مما نتج عنه ضياع مدينة «بئر السبع» وسقوط الجزء الشمالي من «النقب» في يد اليهود، وظل اليهود في «بئر السبع» وما حولها بينما ظلت القوات المصرية، تحتل بعض المواقع على الطريق الذي يربط بئر السبع بقرية العوجا، على حدود مصر الشرقية، وبذلك أصبحت قوات الجيش المصري موزعة على النحو التالي :

١ ـ القوات الرئيسية المتجمعة في منطقة غزة ـ رفح، وفيها القيادة العامة.

٢ ـ قوات مختلطة تقدر في مجموعها بلواء تحتل بعض المواقع على طريق «بئر السبع» ـ «العوجا»، وآخر مراكزها «عسلوج»، على مسيرة عشرين ميلاً من «بئر السبع».

٣ ـ قوات المتطوعين المصريين والاخوان المسلمين وهي القوات التي عزلت بعد كارثة «الفالوجا»، وظلت تدافع عن «الخليل» و «بيت لحم» و «صور باهر» وتقوم بتموين قوات «الفالوجا» المحصورة.

ولقد رأينا كيف نجح اليهود في اختراق خطوط الجيش المصري أمام دير البلح، وكيف انتهت تلك المحاولة بهزيمتهم المنكرة، وخسارتهم الفادحة، غير أنهم لم يستكينوا عقب هذا الدرس المر، فتحسسوا نقاط الضعف في القوات المصرية، وقاموا بمحاولة أخرى على نطاق واسع واكتسحوا في طريقهم القوات نمرة «٢»، التي ترابط على طريق «العوجا ـ بئر السبع»، ولم تستطع القوات المذكورة الصمود أمامهم، أو حتى مجرد تعطيلهم، ذلك أنها لم تكن موضوعة ـ كما يبدو ـ للمقاومة فلم يراع في توزيعها، أي ضمان لسلامتها، بل إن القيادة نفسها لم تكن تعرف الهدف من بقائها ولا الغرض الذي تكلف بحمايته، فوق أن عددها المحدود، لم يكن يكفي للسيطرة على هذا الفضاء الفسيح الذي ألقيت فيه، ولم يكن هناك أدنى اتصال بين هذه المواقع المبعثرة في الصحراء، فبين كل موقع وآخر عشرات الأميال، وكل موقع مسئول عن حماية نفسه وأخيراً ليست هناك قوات مستعدة، لنجدتها في لحظات المعركة الأولى!

وإن القلم ليرتجف و يأبى أن يطاوع في تسجيل المهازل والأخطاء التي ارتكبها المسئولون وما أكثرها ـفي تلك الفترة بالذات، ولست أدري حتى متى تظل هذه المآسي مختفية عن الرأي العام ومتى يفتح عينيه ليرى هذه الحقائق المخزية، و يعلم أنه كان مخدوعاً حين آمن بالبطولات الزائفة، وأنه كان مخدوعاً حين أخفوا عنه الهزيمة المنكرة، وراء مظاهر النصر المصطنع، وأرغموه على ابتلاع العلقم المر، بعد غمسه في الشهد والعسل!

لم تستطع هذه القوات ـوتلك حالتهاـ أن تثبت فلم تلبث هذه المواقع أن انهارت، وأخذ العدو يدور حول كل موقع، ويمنع اتصاله بالمواقع الأخرى، ثم يعمل النيران في قواته المحصورة، وانطلق الطابور المدرع في هجوم خاطف إلى «العوجا»، آخر موقع للجيش في صحراء النقب فقاومت حاميتها بعض الشيء، وانتظرت النجدات طو يلاً دون طائل حتى استسلمت، وتسلل أفرادها لواذاً إلى الحدود المصر ية، بعد تدمير أسلحتهم ومعداتهم.

في مساء ٢٦ ديسمبر بالذات استدعتني القيادة العامة في رفح، حيث بين لي كل من القائمقام «سيف الدين» والقائمقام «الرحماني» ـمن أركان حرب القائد العامـ خطورة الحالة، ثم طلبوا مني إشراك «الاخوان» في المعارك التي تدور في منطقة «العسلوج». وأذكر أن القائمقام «سيف الدين» أخبرني أن القائد العام يرى بقاء قوة من الاخوان لترابط في «العسلوج». وتكون مهمتها إر باك العدو في منطقة «بئر السبع» بحركات عصابية كتلك التي كانوا يقومون بها في مناطق «الشلالة» و «تل جمعة» ولا يستطيع غيرهم القيام بها، فقلت له إنني لا أمانع مطلقاً في استخدام الاخوان واستغلال نشاطهم على أوسع نطاق، غير أنني أرى أن عددهم المحدود لا يمكن أن يقوم بكل هذه الأعباء الكبار، وأن الحكومة لو خففت الضغط قليلاً لأمكن احضار عدد آخر من مصر.

وكنت أعلم أنني أطلب مستحيلاً، فإن تسليم فلسطين ومصر أيضاً لليهود، كان أهون على السعديين والانجليز من إعطاء شيء من الحر ية للاخوان المسلمين! ثم شكوت من قلة الذخائر التي لدينا، فأصدر القائد العام أمره بصرف الكميات التي نطلبها من الذخائر أو الأسلحة، لتخرج هذه القوة مكتملة العدة.

ولم نضيع الوقت فمضيت إلى المعسكر وهناك استقر الرأي على إعداد «سرية» لتخرج من ليلتها بقيادة الأخ المجاهد «حسن دوح» ويشترك معه من ضباط المعسكر الأخوان المجاهدان «عبد الهادي ناصف» و «فوزي فارس». وكان ضباط الرئاسة يتصلون بي بين لحظة وأخرى يستعجلون خروج هذه القوة، ويبينون شدة الحاجة إليها، لخطورة الموقف وارتباك الحالة، وعند غروب الشمس تحركت السيارات والمصفحات بمن فيها، وكان موقفاً رائعاً لا أنساه إذ أخذ المتخلفون في المعسكر يودعون اخوانهم بالنشيد الثائر، والهتافات المدوية.

ولقد علمت من بعض ضباط الرئاسة أن اللواء «فؤاد صادق» أرسل إشارة لرئاسة أركان الحرب يخبرها أن الموقف في العسلوج جد خطير، ولكنه أرسل الاخوان المسلمين إلى هناك وهو يستبشر بذهابهم خيراً.

وحين حاذينا مقر القيادة العامة في «رفح»، وجدت أحد ضباط الرئاسة ينتظرنا على الطريق العام، ومعه سيارتان كبيرتان محملتان بصناديق الذخيرة والقنابل، وسيارة ثالثة تحمل خزاناً ضخماً للماء، ثم أخبرني أن القائد العام ينتظرني في مكتبه ويريد أن يتحدث إليَّ قبل سفر القوة، فتركت الاخوان على الطريق العام وذهبت اليه بمفردي، فوجدت لديه جمعاً كبيراً من الضباط من ذوي الأشرطة الحمراء، وكانوا قادمين من مصر ـ على ما يبدو ـ لمعاينة الحالة ومعاونة القائد العام في مهمته، واستأذنت ودخلت، فلما حييت أخذ القائد العام يبين الحالة بالتفصيل وفهمت أن هناك تطورات خطيرة قد جدت على الموقف.

كانت «العسلوج» قد انتهت. وكانت مواقع «جبل الشريف» قد سقطت هي وغيرها من المواقع. وفهمت أن العدو يدير معاركه في مناطق أخرى من «النقب» وأن طلائع قواته المصفحة قد اشتبكت فعلاً مع حامية «العوجا»!

وكانت أنباء شديدة الوقع على نفسي، ومعنى كل ذلك إبادة تلك القوات الكبيرة واقتحام حدود سيناء الشرقية، وتذكرت حينها قول القائمقام «سيف الدين» منذ ساعات ومطلبه الخاص بإرباك العدو في «بئر السبع» تمهيداً لمهاجمتها واحتلالها، فآمنت أن القطار

قد فات، وأن العدو لو نجح في احتلال «العوجة» فسيدير معاركه الهجومية في قلب الأراضي المصرية.

وعلمت مهمتي على وجه التحديد، وكانت تقضي بأن أرافق قوة الاخوان حتى تستقر في تلك المنطقة، وأخبرني كبار ضباط الرئاسة أن الأوامر قد صدرت لقيادة تلك الجبهة بإعطاء الاخوان حرية العمل ومنحهم أي تسهيلات يطلبونها.

بعد حديثي مع القائد العام حييت الجميع وعدت إلى الاخوان ثم بدأنا السير وكانت وجهتنا مدينة «العريش»، ورغم أن هناك طريقاً قصيراً يصل «رفح» مباشرة «بالعوجة»، إلا أن المسؤولين من الإخوان رأوا أن التقدم عليه محفوف بالمخاطر ولم يستبعدوا وجود «كمائن» للعدو أو ألغام لتمنع أي نجدات تحاول أن تصل للقوات المنكوبة، فآثرنا أن نسلك الطريق الذي يمر بالعريش.

وصلنا «العريش» وتجاوزناها إلى «أبو عجيلة»، فوصلناها في منتصف الليل وسمعنا دوي الانفجارات العنيفة، ورأينا أضواء القنابل المتفجرة تنعكس على صفحة الأفق فعلمنا أن المعركة لا تزال دائرة الرحى في «العوجة»، وعلمت من موظفي النقطة ومن رجال البوليس أن حاميات «عسلوج» و «جبل الشريف» و «كوبرى الاخوان» وغيرها من المواقع قد أبيدت بين أسر وقتل، ومن نجا فقد اضطر للفرار والهيام على وجهه في صحراء «النقب» الواسعة.

ورأى الاخوان المسؤولون أن التقدم للمعركة في هذا الوقت ليس من الصواب في شيء، فالاخوان لم يناموا طول الليل وإدخالهم في المعركة على هذه الصورة لن يأتي بأي نفع بل قد يضر أبلغ الضرر، واتفق المسئولون على الانتظار في «أبو عجيلة» حتى الفجر وحتى ينال الاخوان شيئاً من الغذاء والراحة وتستبين تطورات الموقف، وترجل الإخوان من سياراتهم وتناولوا شيئاً من طعام خفيف ثم استلقوا على الأرض الصخرية الرطبة، حتى لمعت أشعة الفجر الأولى فأذن مؤذنهم للصلاة وقمنا نتوضأ على عجل، ثم صلينا الفجر جماعة، وقرأ الإمام صدراً من سورة «الأنفال» ورأينا أنفسنا نسبح في جو روحاني جميل خلال آياتها

البينات، ونستشعر المعاني العميقة التي استشعرها المجاهدون الأول ممن تنزلت في حقهم هذه الآيات، خاصة ونحن في موقف يشبه موقفهم إلى حد بعيد.

ولما انتهت الصلاة تسابق الاخوان إلى أسلحتهم يعدونها ويختبرونها ثم امتطوا السيارات، وأذكر أن الشهيد الكريم «علي الفيومي» ـوسيأتي ذكر استشهاده بعد حين ـ كان يطوف على إخوانه في ابتهاج واضح مذكراً إياهم بقول الرسول صلوات الله عليه وسلامه لمقاتلي «بدر» : «والله لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة». وتحركت السيارات في طريقها إلى الميدان. وكنت أرى خلال تقدمنا أن الطريق كانت غاصة بسيارات الجيش المحملة بالجنود والذخائر. وكانت كلها واقفة لا تتحرك فسألت الجنود عن الخبر فقيل لي إن العدو يضرب بمدفعيته نقطة على الطريق ليمنع اتصال النجدات بالقوات المحصورة في «العوجة»، فلم نجد بدأ من التقدم، وكان الجنود المصريون يوسعون الطريق لسيارات الاخوان التي انطلقت غير عابئة بصيحات التحذير.

وعند أرض مرتفعة تعترض الطريق الرئيسي، رأينا قنابل العدو تتساقط فوقها، ولم يكن في وسعنا أن نتقدم قبل أن نقضي على هذه العقبة، فقررنا الاشتباك معها، ولاحظنا أن موقع العدو مستتر بعناية خلف أحد التلال المواجهة، فترجل الاخوان في إحدى المنحنيات وأقاموا مدافعهم وأخذوا يضربون موقع العدو بشدة حتى سكتت مقاومته وانفتح الطريق وانسابت جموع السيارات المتخلفة إلى أهدافها.

وركب الاخوان السيارات وواصلوا السير حتى وصلوا إلى مرتفع شاهق يشرف على ميدان المعركة، وهناك التقيت بنفر من ضباط الجيش فسألتهم عن قيادة المعركة وأين أستطيع أن ألتقي بقائد المنطقة العام لأتلقى تعليماته وإرشاداته، فأخبروني أنهم منذ الليل يحاولون العثور على أحد القادة المحليين دون جدوى، وأنهم قد جاءوا من «رفح» و «العريش» و «غزة» كنجدة سريعة لحامية «العوجة» فعجبت كثيراً لهذه الظاهرة، وطلبت للأخ «حسن دوح» تنظيم قوته في وضع دفاعي ففعل، واختفت سياراتنا خلف أحد التلال، وظللنا ننتظر فترة طويلة عسى أن يأتي أحد قادة المنطقة ليحرك هذه القوات الكبيرة، وطال انتظارنا دون جدوى.

وكان الموقف يدعو للأسف والسخرية : معركة محتدمة في قلب «العوجة» ، وجنودنا يقاومون فيها مقاومة الأبطال ، وقد بحت أصواتهم في طلب النجدة ، والنجدة على مقربة منهم لا تستطيع الوصول إليهم ،وليس هنا أحد ينظم المعركة و يديرها ، هذه هي الفوضى بعينها . . .

وكأن العدو قد فهم ما نحن فيه من ارتباك ، فأرسل «فصيلة» من قواته تسللت عبر الوديان والجبال المحيطة بنا ، ثم ظهرت فجأة على مقربة منا وأخذت تمطر المنطقة بوابل من النيران وأحدثت «المفاجأة» مفعولها ، أما سيارات الجيش الكثيرة فقد كان طبيعياً أن تتحرك راجعة للخلف لتنجو بنفسها وبما فيها من أسلحة وذخائر ، وأما الجنود فقد ارتبكت جموعهم ، ومما زاد في ارتباكهم عدم وجود قيادة يرتبطون بها و يتلقون تعليماتها وأوامرها ، فتعلقوا في ذيول السيارات المتحركة ، ولم تلبث الطائرات اليهودية المطاردة أن ظهرت في الجو وأخذت تنقض على هذه الجموع المختلة وتكتسحها بالنيران الحامية.

وكان من الأخطاء الواضحة في هذه المرحلة ـ وما أكثر أخطاءها ـ نقص الحماية الجوية لهذه القوات ، مما جعلها عرضة لخطر الطائرات وأعطى اليهود فرصة السيطرة على الجو سيطرة كاملة ليس فيها منازع ، وشعرنا نحن المحاربين بخطره ، حين كانت طائراته تظهر لتفرغ حمولتها من النيران فوق رؤوسنا ، ثم تعود أدراجها لتشحن جوفها بحمل جديد من المطارات القريبة وأراضي الهبوط الواقعة في منطقة «بئر السبع» .

بقي الاخوان وحدهم فوق مرتفع «العوجة» وخشيت أن تكون هناك قوات أخرى للعدو في طريقها إلينا لتفاجئنا من جديد ، فتداولنا الرأي وكان علينا أن نقرر إما أن ننسحب خلف القوات المنسحبة ، أو نصمد فوق هذا المرتفع حتى يقضي الله أمراً كان مفعولا ، وكان الموقف بالغ الخطورة ، فبقاء الاخوان فوق هذا المرتفع يعرضهم للإبادة أمام عدو يفوقهم كثيراً في عدده وعدته ، وانسحابهم أيضاً سوف يغري العدو بملاحقتهم فيندفع وراء القوات المرتبكة و يقلب انسحابها إلى هزيمة منكرة ، وليس أخطر من مهاجمتها الآن وهي على ما عليه من تفكك وارتباك ، وأخيراً قررأينا على اختيار أهون الضررين . يجب أن نصمد ونقاوم فإما أن تتراجع قوات العدو ونحتفظ بهذا الموقع ليكون نقطة ارتكاز لو فكرنا في

استرداد العوجة، وإما أن ننجح في إشغال العدو وتعطيله بعض الوقت حتى تستطيع قوات الجيش الوصول إلى نقطة أمينة، وتصبح قادرة على الدفاع عن نفسها.

واستمرت المعركة بين الاخوان والعدو فترة طويلة يئس بعدها العدو وانسحب راجعاً جنوبي «العوجة» وبقينا وحدنا حتى وقت الزوال وكانت المعركة في قلب «العوجة» أشرفت على نهايتها ولم نعد نسمع فيها إلا طلقات متفرقة، وكان أفراد حاميتها لا يزالون ينسحبون منها بعد أن يئسوا من وصول النجدات...!

وبدأنا نفكر في موقفنا بشيء من القلق، فإن بقاءنا فوق هذا المرتفع على مقربة من العدو يعتبر مغامرة خطرة -خاصة إذا أقبل الليل- وبيننا وبين قوات الجيش عشرات الأميال ولا أستبعد أن تتسلل قوات من العدو لتهاجمنا من الخلف أو تقطع علينا خط الرجعة، فرأيت أن أذهب بمفردي إلى قوات الجيش، وأحاول إقناع الضباط بالعودة لاحتلال المرتفع، فليس هناك معنى للتخلي عن مسافة شاسعة من الأرض المصرية دون سبب، وإخلاؤها على هذه الصورة المزرية سوف يغري العدو بمواصلة التقدم. ركبت إحدى السيارات الخفيفة ورجعت مسافة عشرين ميلاً إلى الوراء فوجدت قوات الجيش موزعة خلف التلال في انتظار تعليمات جديدة من القيادة العامة.

كانت الخطة السليمة أن يبادر الجيش فيهاجم العدو في قلب «العوجة» ويرغمه على الانسحاب منها، قبل أن تستقر أقدامه فيها.

ولكن أين القيادة التي تنظم الخطة وتوجه هذه القوات الكبيرة وجهة صحيحة، ولقد بلغ من تلهفي على إتمام هذا الاجراء أن اتصلت بضباط هذه القوة وأخذت أشرح لهم وجهة نظري وأطلب اليهم اختيار أحدهم قائداً علينا جميعاً حتى يمكننا وضع خطة موحدة نتحمل مسئوليتها ونقوم بتنفيذها، ولكني لاحظت أن حضرات الضباط الذين حادثتهم -على الرغم من إيمانهم الشديد وتحرقهم للقيام بعمل جدي- كانوا يشفقون على أنفسهم من تحمل المسئولية لو فشلت المحاولة، وتلك ظاهرة خطيرة لمستها في الجيش في كثير من المواقف التي تعاونت معهم فيها، فقد لاحظت أن المسئوليات الكبيرة تكاد تكون مركزة في أيدي أفراد قلائل من ذوي الرتب العالية، أما الضباط من صغار الرتب فمهمتهم تنفيذ تعليمات هؤلاء

دون أن يكون لهم حق التصرف حتى في أتفه المسائل، ولو حدث وتصرف أحدهم حسبما يرى كان نصيبه التأنيب إن أصاب، والعقاب الشديد إن أخطأ!

هذه الأسباب وغيرها تجعل الضباط من صغار الرتب يحجمون عن تحمل المسئولية حين يجب التفكير والتصرف السريع، ولست أجد وسيلة لعلاج هذه الحالة سوى تعويد الضباط الصغار على حمل المسئوليات الكبار وقد يخطىء الضابط مرة وأخرى، والواجب يقضي بالتغاضي عن أخطائه وتشجيعه -ما توفرت حسن النية في هذا الخطأ- وبذلك تتكون شخصيته ويصبح قادراً على التصرف راغباً في تحمل المسئوليات والتبعات.

وظللنا نتناقش وقتاً طويلاً، وبينا نحن على تلك الحالة إذ أقبلت سيارة «جيب» وترجل منها الأميرالاي «فؤاد ثابت» قائد القطاع والمسئول عن هذه المعركة، والرجل الذي ظللنا ننتظره ليؤدي واجبه وقتاً طويلاً. وبوصوله وصلت إشارة من القيادة العامة تحتم القيام فوراً بهجوم مضاد لاسترداد «العوجة» وطرد العدو منها بأي ثمن، وكان هذا ما يجب عمله منذ الصباح الباكر لو كان كل إنسان يؤدي واجبه ويرضي ضميره.

وأخذ القائد يرسم خطوطاً بعصاه على الأرض ويبين موقع «العوجة» على الخريطة! ثم سجل «أمر عمليات» وناول كل واحد منا نسخة منه تبين دور كل وحدة في المعركة المقبلة، وأخذت نسختي ومضيت على عجل إلى الاخوان لأعدهم للمعركة، وتبعتني قوات الجيش ومدفعيته يتقدمها القائد وضباط أركان حربه، وعدد من الضباط العظام.

وكانت «العوجة» تبدو صامتة هادئة، عدا بعض سيارات مصفحة تتحرك حولها، ولم تلبث مدفعية الجيش المصري أن أطلقت نيرانها على قوات العدو المتجمعة في القرية وعلى مصفحاته المستترة خلف سفوح التلال، ثم بدأ الزحف وانطلق الاخوان إلى أهدافهم ... وفي اللحظة الأخيرة صدرت الأوامر بمنع التقدم والتراجع إلى المرتفع ... وهكذا فشلت العملية، وسقطت «العوجة» نهائياً، وبسقوطها وضع اليهود أيديهم على صحراء «النقب» كلها، وأعطوا حرية التنقل بين أرجائه الواسعة في مساحة يحدها البحر الأبيض المتوسط شمالاً والبحر الأحمر جنوباً، كما فتحت أبواب سيناء على مصاريعها للغزاة، يدخلون من أيها يشاؤون ...

أما لماذا فشلت هذه المعركة ورؤى عدم التقدم فيها، فكان مرده الى الروح المعنوية التي كانت قد وصلت الى أقصى مراحل الانهيار والضعف، وإلى القيادة المحلية التي كانت تنفذ أوامر الهجوم على الرغم منها، دون أن تكون راغبة في القتال، لذلك لم يلبث الجنود أن تراجعوا إلى المرتفعات الخلفية، ولم يتوقف تراجعهم إلا عند مرتفعات «الطارة» على حدود مصر الشرقية.

وبهذه المعركة انتهت الحرب الفلسطينية من الوجهة العملية، وتغيرت الآية وانقلبت الأهداف، فبعد أن كان الهدف هو تحرير فلسطين، والقضاء على العصابات الصهيونية بها، وإنقاذ أهلها من الفناء والتشرد، أصبح الهدف الجديد هو الصمود أمام الحدود المصرية، ومنع تدفق العدو خلالها، واقتطاع شبه جزيرة سيناء.. فإلى أي مدى نجحنا في المحافظة على هذا الهدف الجديد؟!

١٨ ـ المعارك في شبه جزيرة سيناء

«إن صحراء كهذه هي بلا شك أعظم الموانع التي تحمي
حدود الامبراطوريات» «نابليون»

انسحبت القوات المصرية من صحراء النقب بعد سقوط «العوجة» وتركزت فوق مرتفعات «الطارة» في داخل الحدود المصرية. ولم يكن يدور في أذهان المسؤولين العسكريين أن العدو سيحاول احتلال سيناء بعد فراغه من فلسطين، ومضت الليلة الأولى بسلام مما زاد في التأكيد أن العدو قد قنع مؤقتاً بما وقع في يده، وأنه سيخلد بعد ذلك للسكون والراحة والتفرغ للمنطقة الساحلية، حيث لا تزال ترابط فيها القوات الرئيسية والقيادة العامة.

ولكن حوادث الليلة التالية جاءت لتخلف هذا الظن، فشوهدت في عصر اليوم التالي جموع من السيارات تتدفق وراء المرتفعات المقابلة، مما أوحى إلى القيادة المسؤولة تنظيم خطة سريعة للدفاع، والارسال في طلب مزيد من القوات والمعدات، وكنا نشعر نحن المحاربين بما نحن فيه من ضعف وانهاك بعد المعارك العنيفة الماضية، وكانت القوات المدافعة هي بنفسها القوات التي انسحبت من «العسلوج» و «العوجة»، وكانت معنوياتها قد وصلت إلى الدرجة من الضعف لا تسمح لها بمواصلة القتال.

وبينما نحن في تلك الحالة من القلق والتربص إذ حملت إلينا أجهزة الإذاعة نبأ اغتيال النقراشي رئيس مجلس الوزراء في مبنى وزارة الداخلية، ولا أتجاوز الحقيقة إذا قلت إن هذا

الحدث لم يكن مفاجئاً لأفراد الجيش المحارب، فكلنا كان يعلم أن سياسة الضغط والارهاب التي اختطها النقراشي للقضاء على طائفة كبيرة من أبناء الأمة، سوف تؤدي حتماً إلى انفجارات مروعة لا يعلم إلا الله مدى ما تجلبه على البلاد من أضرار.

وقع الحادث في مصر وسمعناه في حينه في خط النار، ورأيت صورة واضحة لمدى ما يكنه المواطنون من حقد للطغيان ممثلاً في شخص هذا الرجل، ولست أتعرض في كلامي النفس حادثة الاغتيال ودوافعها وملابساتها، ولكنني أصف شعور أبناء الوطن حين بلغهم مصرع طاغية من طغاة الحكم المستبدين.

كانت شمس ذلك اليوم على وشك الغروب. حينما أطلت مصفحتان معاديتان، واقتربتا في جرأة من مواقع الجنود، ثم أخذتا تطلقان النار من مدافعها الرشاشة، واشتبكت معها مدفعية الجيش وأسلحته المختلفة، وأخذ الاخوان يرقبون هذا المنظر في دهشة وقلق و يفكرون بسرعة في هذه الحركة العجيبة. هل بلغ اليهود من الجرأة والاستهتار إلى الحد الذي يحاولون معه مهاجمة قوات كبيرة بمصفحتين صغيرتين؟ إنهم ليسوا بلهاء إلى هذا الحد، ولا بد أن هناك خدعة من وراء هذه الحركة!

وكانت الخدعة واضحة لا تحتاج إلى كثير من التكهنات والتفكير، ذلك أن اليهود كثيراً ما كانوا يعمدون إلى مثلها قبيل كل هجوم. إنهم ير يدون من المصفحتين إشغال المصر يين وجذب نيرانهم لمعرفة أوكار المدافع ومواقع الجنود، وإنهاء ذخيرتهم في الهواء وتحطيم أعصاب جنودهم طوال الليل، حتى إذا اطمأنوا لهذه النتيجة فاجأوهم بهجوم خاطف وأرغموهم على التقهقر للوراء.

فطن الاخوان للحيلة وفهموا الغرض من وراء هذه الحركة، فلطالما استعملها اليهود إزاءهم خلال معارك النقب الشمالية، فوفروا ذخيرتهم وظلوا صامتين ساكنين وكأن الأمر لا يعنيهم في شيء، ثم اتصلوا بالمسؤولين في وحدات الجيش و بينوا لهم خطورة النتيجة إن استمر الجنود في تفر يغ الذخيرة بلا مبرر. واقتنع الضباط بالنظر ية، ومضوا يصدرون الأوامر والتعليمات في أعصاب منهارة هدها السهر وحطمها الانهاك؟

وهكذا ظلت المدفعية والأسلحة تزأرطول الليل. والعدو الماكر يغري بالاستمرار في هذا الخطأ بإطلاق دفعات من النيران متفرقة من هنا وهناك، حتى كانت الساعة الثانية صباحاً، وكنا نسمع صياح الجنود : «ما فيش ذخيرة يا أفندم». وآخر يقول : «دانات المدافع خلصت يا سعادة البيه»، «عاوزين قنابل لمدافع الهاون يا حضرة الضابط» وفي هذه الحالة فقط بدأ الهجوم الفعلي من جانب اليهود ... وكانت خطة بارعة لإنهاء الذخيرة وتحطيم الأعصاب.

فهم الاخوان الحيلة ولم تصدر طلقة واحدة من جانبهم، واكتفوا بتوزيع حراس قلائل ليرقبوا الحالة من بعيد، بينما استسلم الباقون للراحة استعداداً للمعركة المقبلة، وكنت شخصياً أنام في إحدى السيارات خلف تل قريب لميدان المعركة، حين جاءني أحد الاخوان ليوقظني قائلاً لي إن اليهود قد بدأوا يزحفون، فنظرت في الساعة فإذا عقاربها تشير إلى أن الوقت قد تجاوز الثانية بقليل.

وكانت الحالة توحي بهجوم كبير فقد كان اليهود يعمدون في أغلب المعارك إلى التمهيد لهجومهم بسيول من النيران، وكانت مدافعهم الثقيلة تصب كتلاً ملتهبة فوق رؤوس المحاربين الذين لم يكن لهم أدنى «ساتر» يحميهم من شظاياها المتطايرة. وكما كان يحدث دائماً في كثير من المعارك حين تنتهي الذخيرة و يطلبها المحاربون فلا يجدونها فماذا تكون النتيجة إلا التقهقر في ذعر وارتباك ؟

بدأ العدو يزحف في جموع كثيفة، واتجه نحو القطاع الذي يرابط فيه الاخوان وكانت مفاجأة قاسية لجنوده أن انهمرت عليهم النيران من مسافات قريبة ومن جنود بالغوا في إخفاء أنفسهم في حنايات الوديان وخلف أشجار الصحراء، فارتاعت جموعه وسقط منهم عدد كبير وأخذوا يتراجعون في ذعر لتنظيم أنفسهم من جديد، وسكتت مدافع الاخوان الرشاشة في انتظار هجوم آخر.

وذهبت إلى الأميرالاي «فؤاد ثابت» ورجوته أن يحضر سرية من الجيش لتحتل مواقع الاخوان الدفاعية حيث نتمكن من القيام بهجوم مضاد، ولكنه اعتذر بعدم وجود قوات احتياطية في يده، وتلك كانت أحد الأخطاء الرئيسية التي برزت بوضوح في هذه

المعركة، فرجعت إلى الاخوان وقد أيقنت أن الموقف بالغ الخطورَة وأن هذا الدفاع الواهي لن يصمد طويلاً أمام الهجمات المنظمة التي يشنها العدو، فبعثت أحد الاخوان ليرقب الحالة في القطاع الشمالي حيث ترابط قوات الجيش ومكث قليلاً من الوقت ثم عاد ليقول إن جنود الجيش يتسللون راجعين إلى «أبو عجيلة»، وإن العدو قد نجح في احتلال المرتفعات الشمالية وهو ينحدر الآن من فوقها وأغلب الظن أنه يحاول الالتفاف حول مواقعنا، ونظرت إلى الشمال فرأيت أنوار السيارات المصرية تتحرك إلى الخلف ولم نعد نسمع في الجبهة إلا طلقات متفرقة، ولم يكن الانسحاب للأسف الشديد انسحاباً منظماً ذا خطة موضوعة، ولكنه كان «فراراً» بكل ما في الكلمة من معنى، ولم أشهد طول الحرب الفلسطينية معركة فقدت فيها سيطرة القيادة كهذه المعركة، وزادت الحالة ارتباكاً فوق ارتباك حين جاءت الأنباء تعلن أن قائد المنطقة الأميرالاي فؤاد ثابت قد أخذ بهذا الهجوم فسقط مغشياً عليه من جراء صدمة عصبية، وساءت حالته مما اضطر أركان حربه إلى نقله بعيداً عن ميدان المعركة. وكان اليهود يستمعون لتصايح الجنود وهم يتعلقون بذيول السيارات فأخذوا يسخرون منهم في استهتار واضح، وسمعت بأذني صوت الجنود اليهود وهم يهتفون بالعبرية «كاديما ـ كايرو» ... كاديما كايرو أي تقدم إلى القاهرة ... تقدم إلى القاهرة ... وهتافات أخرى ذات طابع بذيء أمسك القلم عن ذكرها تاركاً المهمة لذكاء القارئ. سحب جنود الجيش إلى «أبوعجيلة» وبقينا وحدنا نقاوم، وعمد العدو إلى الالتفاف حول مواقعنا بعد ما يئس تماماً من اختراق الخط الأمامي.

وكان واضحاً أن الموقف خطير للغاية وأن هذه القوة لن تأتي بنتيجة وهي بمثابة جزيرة صغيرة وسط محيط واسع، فاتصلت بالاخوان المسئولين سريعاً وباحثتهم في الموقف فقرروا إرسال السيارات الكبيرة بما فيها من مدافع وأدوات ثقيلة لتلتحق بالجيش، على أن يبقى الاخوان بأسلحتهم الخفيفة ويستمروا في المقاومة جهد الطاقة، فإن اضطروا إلى الانسحاب انسحبوا سيراً على الأقدام عبر المسالك الجبلية، ومضت السيارات بحمولتها وبقي الاخوان بأسلحتهم الخفيفة.

تجددت الاشتباكات والهجمات، وصمت أحد المدافع الرشاشة وجاء من يقول إن المجاهد «علي الفيومي» قد جرح بعد مقاومة رائعة، إذ استطاع فدائي يهودي أن يتسلل من الخلف و يطلق عليه النار، وطفت أمواج اليهود على جثة البطل فلم يستطع الاخوان استخلاصها من أيديهم وحاول هو تخليص نفسه من قبضتهم غير أن قواه كانت انهارت ثم أجهزوا عليه إذ كان اليهود يقتلون الجرحى في المعارك حتى لا يتعبوا أنفسهم في معالجتهم وإيوائهم.

كنا نأمل من وراء هذه المقاومة الانتحار ية إحدى نتيجتين: «الأولى» أن ييأس العدو من إبادة هذه القوة فينقلب راجعاً إلى قواعده «والثانية» أن ينشغل بنا عن قوات الجيش فلا يلحق بالقوات المنسحبة و يستغل فرصة ارتباكها و يوقع بها مذبحة مر يعة وكنا نأمل في كلا النتيجتين أن نكبده الخسائر الباهظة وأن نجعل انتصاره غالياً فادح الثمن.

لاحظنا أن العدو أخذ يشغل المواقع الأمامية بينما أخذت قواته تدور يميناً وشمالاً حول القوة العنيدة، وهنا اتضح لي أن المقاومة لن تكون بعد ذلك إلا ضر باً من الجنون، وأخذنا نقلب الموقف بسرعة فقررنا الانسحاب إلى تل خلفي على أن يتم ذلك في خفة وحذر، وأطلقت طلقات نار ية حمراء من جانب معين كنا اتفقنا عليها كإشارة للانسحاب، و بدأ الاخوان ينسحبون بخفة مع المقاومة، حتى إذا اكتمل عددهم ونقلوا جرحاهم معهم بدأ الانسحاب سيراً على الأقدام، وحين ابتعدنا عن المنطقة كان العدو لا يزال يصب سيولاً من نيرانه على التل الذي كانت تصدر منه المقاومة.

وحين ابتعدنا عن منطقة الخطر وأصبحنا في مأمن من مصفحات العدو التي أخذت تجوب المنطقة لتمسك بالأسرى وتجمع الأسلحة، انحرفنا إلى الطر يق الرئيسي وكم كان أسفنا بالغاً حده حين رأينا في طر يقنا عدداً كبيراً من سيارات الجيش ملق على جانبي الطر يق، وكانت السيارات كلها مشحونة بأنواع الأسلحة والمعدات والبترول، وكانت كلها صالحة للسير إلا أن الطر يق كان مغلقاً من اصطدام بعض السيارات، وكان ممكناً أن يفتح الطر يق لولا أن حالة الارتباك كانت مستولية على العقول والأعصاب، وكان كل واحد ير يد أن ينجو بنفسه قبل أن يقع في يد العدو. وعز على الاخوان أن يتركوا هذا العدد

الهائل يضيع، ولم يكن في وسعهم أن يأخذوا هذه السيارات معهم فاختاروا أهون الضرر ين ومضوا يدمرون أجهزة السيارات بالقنابل و يشعلون النار في خزانات البترول حتى يفوتوا على العدو فرصة استعمالها والإفادة منها.

اجتاز اليهود حدود مصر الشرقية ودخلوا سيناء ... الأرض التي تاه أجدادهم فيها أر بعين سنة والتي لا يزالون يحنون إلى اقتطاعها وضمها إلى دولتهم، وكان لقاء حاراً وصفه لي أحد أعراب قبيلة «التياها» البدو ية وكان مختبئاً وراء أحد الجبال فقال إنهم ترجلوا من السيارات فوق احد مرتفعات «التيه» وأخذوا يقبلون الأرض و يبكون، ثم قاموا يتعانقون في ابتهاج واضح.

ولم يضيعوا الفرصة فأخذت لجانهم العسكر ية تجوس مناطق سيناء وتدرس منافذها وطرق الاقتراب إليها. أما نحن فقد واصلنا السير إلى «أبو عجيلة» فوجدناها خالية من الجيش ولم يكن فيها إلا سيارات الاخوان التي بعثناها لتنتظر بعيداً عن ميدان المعركة، ولقد حاولنا إقامة خط دفاعي عن «أبو عجيلة» وقوى هذا العزم عندي حين جاءت سيارة جيب تحمل أحد الضباط برتبة البكباشي وكان يشرف على العمليات في هذه المنطقة فقال لي: «نفذ ما تراه وسأبعث إليك بقوات كبيرة لتعاونك في الدفاع عن «أبو عجيلة» فأخذنا نحتل بعض المواقع الملاصقة للطر يق وانتظرنا حوالي ساعة وأخيراً جاء ... لوري محمل بأقفاص «البقصماط» ..! وأعقبه آخر وثالث ولم يكن فيها جميعاً ما يعين على الدفاع، ولم يكن اليهود ليضيعوا الفرصة أمام هذا العبث فلم تلبث مصفحاتهم أن ظهرت على مقر بة منا و وجدنا أن خير وسيلة هي الذهاب للعر يش.

وركبنا السيارات ولم نكد نبتعد قليلاً حتى سمعنا انفجاراً هائلاً ورأينا خيطاً طو يلاً من الدخان يصل عنان السماء فعلمنا أن العدو قد دمر «جسر أبو عجيلة» ليأمن عدم وصول النجدات عن طر يق الاسماعيلية، وحين أدركنا مشارف العر يش وجدنا قوات كبيرة من الجيش تعمل على تحصين نفسها فوق مرتفعات «لحفن»، والمهندسون يعملون بهمة في إقامة الموانع السلكية و بث حقول الألغام أمام خطوط الدفاع، وكان طبيعياً أن نشترك في الدفاع عن المنطقة، وأن يسقط فوق كواهلنا أهم أجزاء هذا الدفاع مرة أخرى.

كان لابد لي من مغادرة العريش إلى غزة بعد أن بلغتنا أنباء هجمات كبيرة يقوم بها العدو هناك وتشترك فيها قوات الاخوان الرئيسية، وركبت السيارة وانطلقت بها إلى رفح وهناك عرجت على القيادة العامة فوجدتها مرتبكة لما بلغها عن أنباء الحالة، وكان الضباط يسألونني وكنت أجيبهم بما أعرف، وسمع القائد العام بمجيئي فطلبني إلى مكتبه وأخذ يسألني عن الموقف، فأخبرته عما حدث ولم أكتمه رأيي الخاص في قيادة تلك المنطقة وما كانت عليه من عجز وقصور، وفي انهيار الروح المعنوية في الأفراد انهياراً يستحيل معه العمل بهم في أي معركة، ولم أكن مبالغاً فيما قلت فإن المنظر الذي مر بك في معركة الحدود كان لايزال منطبعاً في ذاكرتي وكنت متأثراً بالنتائج أبلغ التأثر، والواقع أن جنودنا في آخر مراحل الحرب كانوا ينظرون للجندي اليهودي نظرة خاطئة حين اعتبروه محارباً ممتازاً لا يمكن الوقوف أمامه.

وواصلت سيري إلى المعسكرات وهناك وجدت إخواننا موزعين على طول الجبهة بين «غزة» و «دير بلح» و «خانيونس» وكنت وقد وصلت وأنا أشعر بالانهاك الشديد فحاولت أن أنال قسطاً من الراحة، وما كدت أستقر في أرض المعسكر حتى كانت رئاسة القوات تطلبني في التليفون، وكان المتحدث ضابطاً من ضباط الرئاسة طلبني ليبلغني أن العدو يهاجم «العريش» وان طلائع قواته قد اشتبكت مع مواقعنا الأمامية عند مرتفعات «لحفن»، وأن علي أن أتوجه فوراً لألحق بقوة الاخوان المرابطة هناك، وقمت لأركب من جديد وأتوجه للعريش حتى وصلتها في صبيحة اليوم الثاني وكانت المعركة انتهت منذ الليل، أما القصة كما سمعتها من الأخ «حسن دوح» ورفاقه فكانت تتلخص في أن قوة من اليهود حاولت اقتحام خط الدفاع، قبل الغروب، وكان يصحبها عدد من السيارات الخفيفة ودبابة واحدة من طراز «شيرمان».

وكان الاخوان يحتلون الأجزاء الأمامية من خط الدفاع فاشتبكوا بشدة مع قواته، ورغم سيول النيران التي هطلت على مواقعهم إلا أنهم ثبتوا فيها ولم يفكروا في التراجع للوراء، وشاء حسن الحظ أن تصيب إحدى طلقات المدافع المضادة الدبابة فتعطلها عن المضي ويحاول اليهود إصلاحها، لكنهم يفشلون في ذلك، فلا يملكون إلا التراجع من حيث أتوا.

وكان واضحاً أن العدو لايريد احتلال العريش ولكنه يرمي إلى «تثبيت» القوات التي بها، ولفت نظر القيادة المصرية إليها حتى يهاجم الغرض الأصلي الذي يهدف إليه وهو معسكرات رفح حيث القاعدة التموينية الرئيسية للجيش، وحيث القيادة العامة للقوات، وكان يريد أيضاً القضاء التام على الروح المعنوية في الشعب والجيش، وكسب دعايات ضخمة لجيش إسرائيل حين يسمع الناس أنه يهاجم القوات المصرية في عقر دارها، ولقد قوى عندي هذا الشك حين أردت الرجوع إلى رفح بعد يومين من هذه الحوادث فوجدت أن العدو قد سبقني في احتلال نقطة على الطريق الرئيسي حتى يعزل القوات، وفي نفس هذا اليوم كانت رفح تستهدف لأكبر هجوم خلال تلك الفترة إذا احتل العدو «تبة الأسرى»، واخترق الاسلاك المحيطة بمعسكر «رفح» نفسه ولكن القوات المصرية استطاعت أن تحصره في بعض المواقع وأن تنزل به هزيمة منكرة تضطره إلى الانسحاب تاركاً خلفه مئات من القتلى وأكداساً من الأسلحة والعتاد.

وإحقاقاًللحق لايسعني إلا ان أشيد بالجهود التي بذلها «اللواء فؤاد صادق» في صد هذا الهجوم ولقد حدثني الأخ المجاهد «محمد علي سليم» ــ وكان يشترك بمجموعة من الاخوان في هذه المعركةـ أن القائد العام كان ينتقل بنفسه بين مواقع الجنود يستحثهم على الثبات، ويذكرهم بعظم التبعة التي ألقيت عليهم، تبعة المحافظة على أرض مصر وكرامة جيشها، ولقد أبدى الضباط من مختلف الرتب في هذه المعركة كثيراً من الشجاعة والجرأة وكان لموقفهم هذا أبعد الأثر في ثبات الجنود، ونجاح المعركة.

ظل الأخوان موزعين على أهم مراكز الجيش، يشاركونه في الدفاع عن المناطق التي يحتلها، ويقومون بأعمال الدوريات على طول الجبهة، وانتشرت قواتهم في الجنوب بين «غزة» و «ديرالبلح» و «خانيونس» و «العريش» أما في «غزة» فقد احتلت قوة كبيرة منهم بقيادة الأخوين المجاهدين «عباس فرج» و «السيد الشراقي» جزءاً هاماً من خط الدفاع عن المدينة وضواحيها وكان اللواء «محمود فهمي نعمة الله» قائد المنطقة يعتمد عليهم اعتماداً خاصاً في الدفاع عن أخطر المناطق والقيام بالدوريات المقاتلة على طول القطاع.

ورغم اشتداد وطأة الصقيع وهبوب العواصف الثلجية على الجبهة دون إعطائهم كفايتهم من الوقاية والغطاء، ورغم الأنباء المثيرة التي كانت تتسلل إلى الميدان عن الجرائم الوحشية

التي يرتكبها الرئيس السعدي الجديد «إبراهيم عبد الهادي» ضد إخوانهم وأهليهم في أرض الوطن. رغم كل هذه العوامل ظلوا يقومون بما يوكل إليهم من خطير الأعباء دون أن يشغلهم ما يسمعون من أنباء وما يحسون به من برد وإنهاك عن الوقوف بجانب الجيش، حتى أعلنت الهدنة وتوقف القتال في جميع الجبهات.

انتهت معركة «العريش» على الصورة التي ذكرنا وتراجع اليهود إلى «أبوعجيلة» وأخذوا يعيثون في شبه جزيرة سيناء فساداً فنسفوا جسر «أبوعجيلة» الضخم كما سبق أن ذكرت ودمروا كثيراً من القرى المصرية واستولوا على كل ما فيها، واحتلوا المطارات السرية بعد أن وضعوا أيديهم على ما فيها من أجزاء وقنابل

وإذا ذكرت المطارات السرية بالذات لايسعني إلا أن أسجل خطأين كبيرين أحدهما على وزارة الحربية والقيادات العليا في الجيش، وثانيهما على المسئولين المحليين الذين أنيط بهم واجب الدفاع عن هذه المطارات في تلك ال[illegible]، أما الخطأ الأول الذي نحمله لوزارة الحربية وللقيادة العليا للجيش فهو سماحها باست[illegible]ال، هذه المطارات رغم أنها تكاد تكون ملاصقة للخطوط الأمامية، والمعروف عسكرياً فيما [illegible] الخبراء أن المطارات تكون دائماً في المناطق الخلفية البعيدة، حتى لاتكون معرضة لغا[illegible] العدو الجوية، ولاحتمال سقوطها إن نجح هذا العدو في إحدى هجماته واخترق خطوطنا الأمامية كما حدث في معركة «سيناء» ثم إن معركة «الحدود» استغرقت في الواقع حوالي أربعة أيام منذ سقوط «العوجة» وكانت هذه مهلة كافية لتفريغ هذه المطارات وإخلائها.

أما الخطأ الثاني الذي نسجله على المسؤولين المحليين الذين أنيط بهم واجب حماية هذه المطارات هو أنه كان في مقدورهم تفريغها حين قرروا الانسحاب منها أو على الأقل تدمير ما فيها من قنابل وإحراق كميات البترول الهائلة وذلك أضعف الإيمان، لأن النتيجة كانت استيلاء العدو على البترول واستعماله في الحرب، واستيلائه أيضاً على نوع ضخم فريد من قنابل الطائرات وهو النوع الذي استعملته بعد أيام قلائل في ضرب مراكز الجيش في محطات «غزة» والعريش وبقية أنحاء الجبهة.

أما القرى المصرية التي دمرت «كالقصيمة» و «الحسنة» و «الكنتلا» فقد استولى

اليهود على كل ما فيها ومضوا يأسرون ما يلقونه من الجنود الذين افترقوا عن وحداتهم حتى وصل الرقم إلى بضع مئات.

ولقد حدثني بعض إخواننا من ضباط الجيش وجنوده ممن قدر لهم أن يعيشوا فترة من أعمارهم داخل معسكرات الأسرى في «اسرائيل» ان ضباط المخابرات اليهودية كانوا يسألون الأسير دائماً إن كان ممن ينتسبون لهيئة الاخوان، وكان هؤلاء الجنود يعجبون أن يصل اهتمام اليهود بالاخوان وجنودهم إلى هذا الحد، ذلك أن اليهود كانوا يقتلون الأسرى من الاخوان، و لقد مر بك كيف أن الشهيد «علي الفيومي» جرح في معركة «الحدود» وكان يمكن معالجتة لولا أنهم أجهزوا عليه، وكانت لحيته الخفيفة هي الدليل الكافي على أنه من جنود هذه الجماعة «الخطرة» الملعونة في نظرهم.

بقيت قوة من الاخوان مع الجيش في منطقة «العريش» بقيادة الأخ المجاهد «حسن دوح» وكان القائم مقام «سيف الدين بك» قائد المنطقة في تلك الحين يعهد إليهم بأعمال الدوريات في جميع أرجاء الجزيرة وقد جرح عدد كبير منهم خاصة حين وكل إليهم تطهير حقول الألغام التي بثها اليهود في كثير من المناطق وعلى الطريق الذي يصل العريش «بأبو عجيلة».

وكان أبرز ما قام به الاخوان من أعمال خلال تلك الفترة قيامهم بدورية قتال أخذت تجوب أنحاء الجزيرة لتؤمن البلاد وتوهم العدو أن القوات المصرية قد عادت لاحتلال هذه المنطقة من جديد، فقاموا بهذا العمل الخطير خير قيام، ووصلت دورياتهم إلى «القصيمة» و «الحسنة» وحدود فلسطين من جهة النقب الجنوبي.

وقد أصيب أيضاً في هذه الدوريات كثير من الاخوان واستشهد الأخ «مكاوي محمد مصطفى» من إخوان العريش حين تعرضت لسيارتهم طائرة يهودية مطاردة واكتسحتها بالنيران وأطلق الاخوان نيران مدافعهم الرشاشة، غير أن طلقة طائشة أصابت المجاهد «مكاوي» نقل بعدها إلى احد المستشفيات حيث أسلم الروح شهيداً في ٧ من يناير سنة ١٩٤٩.

وأخيراً جلت القوات الاسرائلية عن «سيناء»، وأود أن أقرر إنصافاً للواقع ــ أن

جلاءها لم يكن نتيجة ضغط عسكري من جانبنا وإنما كان نتيجة محتمة لضغط إنجليزي أمريكي، ذلك أن الحكومة البريطانية وجهت إنذاراً شديداً لحكومة إسرائيل وهددتها بالاشتراك في المعركة الدائرة في سيناء عملاً بمعاهدة سنة ١٩٣٦ التي تحتم عليها ذلك. وفعلاً اشتركت الطائرات الانجليزية في ضرب «أبو عجيلة» وسقطت منها خمس طائرات على مقربة من الأراضي اليهودية وأحدث سقوطها دويا سياسياًعظيماً في مختلف الأوساط الدولية ، وكذلك تحركت الفرقة البريطانية التي ترابط في منطقة « فايد » من قواعدها ، لمواجهة الغزو . وكانت خطة سياسية بارعة من الانجليز حين أثبتوا عملياً لمصر أنها في حاجة لمعونتهم العسكرية دائماً ، وكان هذا هو كل ما يريده المستعمرون من صنع العصا السحرية « دولة إسرائيل » في قلب العالم العربي !.

والواقع ان نجاح الاسرائيلين في التوغل في شبه جزيرة سيناء قد وضع الحكومة المصرية في وضع سيء للغاية سواء من الناحية العسكرية أو السياسية، فمن الناحية العسكرية أصبحت حدود مصر الشرقية تحت رحمة العدو كما أصبح الجيش المصري شبه محاصر في قطاع غزة ولم يعد هذا الجيش يستطيع ــ على الأقل في هذه المرحلة ــ أن يشكل أي خطر على الدولة اليهوديةالوليد ، أما من الناحية السياسية فإن تلهف مصر على إخراج اليهود من الاراضي المصرية قد أضعف اهتمامها بمصير فلسطين والشعب العربي فيها، وليس أدل على ذلك من موقف الوفد العسكريّ المصري أثناء مفاوضات الهدنة في جزيرة رودس حين ركز كل اهتمامه على إجلاء اليهود من منطقة سيناء، وأصبحت القاعدة التي سار عليها الوفد المصري هي «أن كل أرض ليست مصرية صميمية فلا مانع أن تكون يهودية» وبهذا المنطق الغريب انتهت القضية الفلسطينية في نظر الحكومة السعدية على الصعيد السياسي كما انتهت على الصعيد العسكري، وبهذا المبدأ الذي جعله المفاوض المصري قاعدة للمفاوضات استولى الاسرائيليون على النقب الجنوبي كله حتى خليج العقبة دون أن يطلقوا في سبيله طلقة واحدة، أما الحكومة المصرية فقد اعتبرت نفسها منتصرة لأنها فازت من الغنيمة بالإياب واستردت الأرض المصرية من اليهود!

على أننا لانود أن تطوى صفحة المعركة في شبه جزيرة سيناء دون أن نحدد ــ في

اختصار- العوامل التي أدت لنجاح الحملة الاسرائيلية فيها تحوطاً للمستقبل واستعداداً لجولات مقبلة على هذه البطاح التي سيجعلها موقعها الجغرافي ميداناً لمعارك متصلة بين مصر أكبر الدول العربية ودولة إسرائيل، ونعتقد أنه ما لم تفطن الحكومة المصرية لواجبها فتستفيد من أخطاء الماضي وتسد الثغرات الخطيرة التي ظهرت خلال هذه المرحلة فإنه ما من شيء سيمنع العدو الصهيوني من تكرار محاولته، ولسنا نريد أن نعود مرة أخرى لتكرار الأخطاء العسكرية البارزة التي ظهرت في معارك سيناء لأنها لاتختلف عن الأخطاء والعيوب التي برزت في بقية أنحاء الجبهة المصرية، فما أوردناه في سياق الحديث عن معارك «العوجة» و «العريش» وعن فقدان القيادة الموحدة وانعدام التنسيق بين وحدات الجيش العاملة وانهيار الروح المعنوية والجهل بطبيعة الارض، كل هذه الاخطاء نجد نظائرها في العمليات الأخرى في «اسدود» و «الفالوجا» وغيرها، بل لانغالي إذا قلنا انها كانت الملامح البارزة لهذه الحرب الفاشلة، وإذن فلا ضرورة لاملال القارئ بالعودة إليها، ولكن يعنينا في الحديث عن معارك سيناء بالذات أخطاء من نوع خاص كانت سائدة قبل حرب فلسطين ولكن تلك الحرب عرضتها للضوء واظهرتها على صورتها الكاملة.

لقد حاول الاستعمار البريطاني منذ استيلائه على مصر إيجاد وضع خاص بشبه جزيرة سيناء ومع أنه اعترف شكلياً بأن سيناء جزء لايتجزء من الأراضي المصرية إلا أنه حرص على اتخاذ سلسة من التدابير والاجراءات تكفل عزل سيناء عن بقية أنحاء القطر، من ذلك أنه أطلق عليها اسم «المناطق الممنوعة» حتى أصبح المصري لايستطيع دخول سيناء إلا بترخيص خاص، كما لايستطيع سكان الجزيرة اجتياز قناة السويس إلا بمثل ذلك الترخيص، وكانت الإدارة المحلية دائماً في يد ضباط بريطانيين يحملون لقب محافظ ويخضعون «شكلا» للحكومة المصرية ولكنهم يتلقون تعليماتهم من وزارة المستعمرات البريطانية، وقد اشتهر من هؤلاء المحافظين الانجليز رجال مثل «باركر» و «جارفس» و «همرسلي» غير أن جارفس كان أبرزهم على الاطلاق لما قام به من محاولة إصلاحات محلية واسعة في سيناء كتمهيد طرق المواصلات واستصلاح الأراضي الزراعية وتقوية هيبة الحكم المحلي في البادية، ولجارفس هذا عدة كتب قيمة عن شبه جزيرة سيناء تعتبر من المراجع

العلمية في شؤون القبائل البدوية وإدارة الصحراء، إلا أن سياسة العزل أدت إلى وجود ستار نفسي وعملي كثيف بين شبه الجزيرة وبقية أنحاء وادي النيل وهو ستار استمر قائماً بل لعله زاد في كثافته حتى بعد زوال الحكم البريطاني وقيام عهد الاستقلال، واستمر المصريون ينظرون لحدود مصر الشرقية على أنها قائمة على ضفة قنال السويس، أما ما وراء ذلك فهو جزء من «بر الشام» كما تعبر عنه العوام!..

ولقد قوى الحاكم البريطاني وورث عنه الحاكم الوطني الانطباع الخاطئ بأن شبه جزيرة سيناء صحراء موحشة لا تصلح لشيء وليس فيها أي مجال للزراعة أو الصناعة أو التعدين، وأنها خالية من السكان إلا من بضعة آلاف من البدو الرحل الذين يقومون برحلات الشتاء والصيف بين صحراء سيناء وصحراء النقب بحثاً عن الماء والكلأ لأنفسهم ومواشيهم.

لست أدري بالضبط ما هي أهداف الحكم البريطاني لفرض سياسة العزلة على سيناء؟ وما علاقة ذلك بخلق دولة اسرائيل في المنطقة المجاورة وهي دولة تعمل وفق مخطط مدروس يجعل احتلال سيناء هدفاً مهماً من أهدافه؟ لست أدري بالضبط وهو موضوع يستحق الدراسة والتأمل من مفكرينا وكتابنا السياسيين الوطنيين، ولكن أستطيع القول إن جهل المصريين وغربتهم عن شبه جزيرة سيناء وتقصيرهم في تعميرها ولاسيما في النطاق الزراعي، وعزوفهم عن تشجيع سكان وادي النيل على الهجرة إليها بعد خلق مجالات واسعة للعمل في الزراعة أو التعدين، كل هذه العيوب المزمنة ظهرت دفعة واحدة حين وجد الجيش المصري نفسه يحارب الغزاة الاسرائيليين فوق أرض غريبة موحشة ليس فيها ماء ولا طرق مواصلات ولاسكان محليون يؤدون دورهم في إنقاذ وإيواء الجنود الهائمين على وجوههم في الصحراء، ولست أنسى حين وصلت طلائع القوات الاسرائيلية إلى نقطة «أبي عجيلة» في شبه جزيرة سيناء إذ اتصل بي ضابط كبير في القيادة العامة يسألني عما إذا كانت «أبو عجيلة» في منطقتنا أو منطقتهم أي «اليهود» وكان هذا السؤال الغريب هو أكثر ما يمكنني تحمله من الجهل والسذاجة فوجدتني أصرخ في التليفون «هذه أرض مصرية صميمية» وزيادة على ذلك فإننا دخلنا فلسطين باعتقاد أن أرض تل أبيب أيضاً في منطقتنا»،

وهذا السؤال البسيط من الضابط الكبير ربما يصلح عنواناً للنظرة السائدة بين عدد كبير من ضباط الجيش إزاء قضية فلسطين والخطر الاسرائيلي وشبه جزيرة سيناء كما يصلح دليلاً على فشل حملات التوعية الوطنية التي تمارسها إدارات الدولة المختصة لتعريف المواطنين بأرض وطنهم أولاً، والأرض التي يحاربون من أجل إنقاذها ثانياً، وان من الخجل أن تضطرني أمانة الرواية لأن أقارن بين هذا الجهل المطبق وبين ما لمسناه خلال مراحل القتال من معرفة اليهود بالأرض العربية في فلسطين معرفة تكاد تكون تامة، ومن معرفتهم أيضاً بأراضي سيناء ووديانها وممراتها الجبلية وموارد مياهها وهي معرفة تشهد لهم بطول الباع والتحضير الطويل، ولذلك لم يدهشني أن تلعب الأرض دورها الحاسم في المعركة إلى جانب الغزاة الأجانب ضد المواطنين أهل البلاد، وهو وضع عكسي ربما لا يوجد له نظير في تاريخ الحروب.

هذه القضية «قضية تمصير» سيناء وتعميرها لصالح الوطن المصري قبل أن تفلح المؤامرة الدولية في «تهويدها» لصالح الاسرائيليين قضية طالما شغلت تفكيري ولا سيما حين كنت أقود إحدى دوريات القتال المصفحة في شبه الجزيرة بعيد الغزو اليهودي، وكانت قاعدتنا الأمامية في «سد الروافعة» على بعد خمسة أميال من «أبي عجيلة» وحين كنا نمر بمضارب البدو حول العيون الطبيعية في نقاط عديدة كـ «الحسنة» و «القصيمة» و «الكنتلا» كنت أتخيل قيام مستعمرات زراعية محصنة في جميع هذه الأنحاء بينها شبكة مواصلات جيدة تربط بينها، وكنت أتخيل مشروعاً لتوطين البدو وتسليحهم وتدريبهم للدفاع عن أنفسهم في نطاق خطة دفاعية كاملة. وكنت أتصور برنامجاً شاملاً لتعمير هذه الصحراء كفيل بأن يحيلها إلى جنة وأن يستوعب الملايين من سكان وادي النيل لمواجهة تزايد عدد السكان هناك، والأهم من ذلك كله أن يجعل من هذه الصحراء الموحشة فعلاً ذلك الدرع الصخري العنيد الذي تخيله نابليون وهو يعبره إلى ديار الشام.

ولقد عبرت عن هذه «التخيلات» للقائد العام «اللواء فؤاد صادق باشا» عند نهاية العمليات كما كتبت فيها تقارير متعددة إلى كل من أعرف من ذوي النفوذ والكلمة في الحكومة، ولا زلت أعتقد أن شبه جزيرة سيناء ستظل ميدان المعركة بيننا وبين هذه الدولة الدخيلة إسرائيل، وعلى رمالها سيكتب التاريخ كلمته الفاصلة في هذا الصراع الدامي،

ولست أشك أن مقدار جهدنا في تعمير هذه القفار وتكوين طاقة بشرية محاربة فيها وتسخير طبيعتها المناسبة لتكون قلاعاً في وجه الغازي، هذا الجهد وحده الذي سيحدد النتيجة الحاسمة لقصة صراعنا التاريخي مع إسرائيل.

١٩ - إلى المعتقلات!!

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾

تجمع الاخوان في معسكراتهم بعد نهاية الحرب وإعلان الهدنة، وكانت نفوسهم ممتلئة بالغيظ والحقد على هذه الحكومة المتداعية التي أضاعت فلسطين بسياستها وعرضت كرامة الأمة والجيش للذلة والمهانة، ومما كان يزيد في غيظهم وألمهم أن تقوم هذه الحكومات -خاصة في مصر- فتستر ضعفها وهزيمتها وتستأسد على الأبرياء العزل من رعاياها المخلصين، وتصب على رؤوسهم أنواعاً من التنكيل، لم يعرفها التاريخ الانساني منذ فارق العصور الهمجية الأولى.

وكان واضحاً أن الحرب الفلسطينية قد انتهت وتحولت إلى مفاوضات ومساومات وبدأت تأخذ طريقها إلى الحلقة المفرغة التي تدور فيها الحكومات العربية زمناً طويلاً، وشعر الإخوان أن بقاءهم في الميدان أصبح أمراً لاقيمة له ولا نفع من ورائه.

ولقد مر بك كيف كانوا ينفرون من الهدنات المحدودة الأجل، فكيف تقبل نفوسهم هدنة لاأجل لها إلا أن يصل الطرفان إلى تسوية سلمية عن طريق المحادثات والمفاوضات،

ولقد كان من رأي الاخوان وقد فشلت الحرب النظامية أن تستمر «حرب العصابات» الشعبية بينما تعلن الحكومات العربية تنصلها من هذه العصابات، وكانت فكرة الاخوان تتلخص في إرباك إسرائيل بحركات شعبية تجعلها في قلق دائم، وتجعل جيشها الوليد في حالة حرب طويلة المدى مما يؤثر في سير إعداده وتدريبه، بينما تظل جيوشنا النظامية عاكفة على ما هي فيه من إعداد وتدريب، ولقد حملت هذا الرأي بنفسي وحاولت أن أكسب له أنصاراً من كبار الضباط غير أن الحوادث التي جاءت بعد ذلك لم يكن فيها ما يشجع على المضي في الفكرة حتى تخرج إلى حيز التنفيذ.

وبينما نحن على تلك الحالة إذ حملت إلينا الأنباء نبأ اغتيال المرشد أمام جمعية «الشباب المسلمين» وكان نبأ شديد الوقع على نفوس الاخوان ورجال الجيش. أما الاخوان فقد كانوا يبكون في ثورة وألم، وفيهم من أذهله المصاب فأفقده الحركة ولزم الفراش، ومن هزته الصدمة فوقع على الارض مغمى عليه.

هذا ماكان من أمر الاخوان أما رجال الجيش فلقد زارنا خفية عدد كبير منهم من مختلف الرتب، وكانت تبدو على وجوههم علامات التأثر البالغ والحزن العميق، وتحول المعسكر إلى مأتم باك حين ضمنا المسجد عقب صلاة الظهر، وقمت أتحدث في الاخوان ولم يكن في ذهني غير مقالة أبي بكر في مثل هذا الموقف «من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لايموت» «إنك ميت وإنهم ميتون» وأخذت أردد هذه العبارات دون أن أقول شيئاً غيرها،

ولم نكن نشعر بقلق على مستقبل الدعوة بل كنا نؤمن أن «حسن البنا» إن كان نجح في دفع الاسلام خطوة في حياته، فإن مقتله على هذه الصورة الوحشية سوف يدفع الاسلام خطوات بعد مماته.

ولقد سمعت كثيراً من ضباط الجيش يرددون إشاعات كثيرة عن سر هذا الاغتيال الدنيء، وكانوا كلهم يجمعون و يؤكدون أن الحادث جاء نتيجة لتدبير طويل اشتركت فيه السلطات الرسمية بدون استثناء إما بطريق التنفيذ الفعلي، أو بطريق الإيحاء والتوجيه!.

ولقد بلغ من تأثر الضباط وغضبهم أن حتم على فريق منهم في إقامة حفل تأبين في المعسكر أدعو إليه جميع الضباط ليستطيعوا التعبير عن شعورهم إزاء هذا الجرم البربري وفعلا أجبت رغبتهم وحاولت إقامة هذا الحفل غير أن اللواء «فؤاد صادق» استدعاني يومها إلى مكتبه وطلب مني أن أصرف النظر عن هذه الفكرة مخافة أن تؤثر على موقفه و يؤولها المسؤولون في مصر تأو يلاً سيئاً!.

أمام كل هذه العوامل الطارئة والحوادث الجديدة أبدى الاخوان رغبتهم في مغادرة الميدان والرجوع إلى بلدانهم لمباشرة مصالحهم بعد أن انتهت الحرب واتضح ألا أمل في مواصلتها، ولقد حملت رغبتهم إلى اللواء «فؤاد صادق» الذي حاول إقناعهم بالبقاء مخوفاً إياهم من الاعتقالات والاضطهاد في مصر ولكنهم رأوا ألا سبيل للبقاء ما دامت مهمتهم قد انتهت، وكنا نستبعد الاعتقال ولانتصور أن يصل الاجرام بالسعديين وحلفائهم إلى هذا الحد، حد اعتقال المجاهدين الأبطال الذين أعجب بهم الخصوم والحلفاء على السواء.

وفاتنا أن الحكومة التي تبيح لنفسها اعتقال النساء والشيوخ والأطفال وتسليط جنودها البرابرة لتفقأ العيون وتهتك الأعراض، هذه الحكومة لن تستنكف عن ارتكاب أي جريمة بعد ذلك. ولقد حاول اللواء «فؤاد صادق» إقناع الاخوان بضرورة البقاء وأرسل بعض الضباط من أركان حربه لإقناعهم ولكنهم أبوا وأصروا على ضرورة العودة إلى أهليهم ومصالحهم.

وفي يوم ١٤ فبراير حضر من الضباط من يخبرنا أنه قد تقرر نقلنا إلى مصر حيث نسرح فيها كل واحد إلى بلده، ثم وجه إليّ الكلام قائلاً أن عليّ أن أعد المعسكر لتسليمه إلى مندوبي الجيش قبل هذا المساء.

ولم يكد يفرغ من حديثه حتى حضر للمعسكر كثير من ضباط الجيش من مختلف الأسلحة ليباشروا عملية التسليم وأخذوا يحصرون أسلحة الاخوان الخاصة وسياراتهم التي أحضروها معهم أو التي غنموها من العدو خلال فترة الحرب، وحين انتهت عملية التسليم جاءت السيارات لنقل الأفراد إلى «رفح» ولقد قيل لنا أننا سنبيت فيها هذه الليلة، لنركب القطار في الصباح نزلنا رفح فوجدنا جمعاً من الضباط ينتظرنا وقد أعدوا لنا «عنبراً» كبيراً لنبيت فيه جميعاً. وفي الصباح قمنا لنصلي الصبح فوجدنا «العنبر» محاطاً بالأسلاك

الشائكة وقوات كبيرة من الجيش تحيط به من كل جانب وقد صوبت الأسلحة الرشاشة ومدافع «الفيكرز» إلى داخل العنبر، وجاء بعض كبار الضباط ليقولوا لنا انه قد تقرر اعتقالنا في هذا «العنبر» حتى تصدر تعليمات أخرى من القاهرة.

فوجئنا بهذا القرار الذي لم يكن أحدنا يتوقعه، ولكننا تحملنا الصدمة بصبر وجلد ولقد أسفت كثيراً حينما لاحظت أن الجنود يجهدون أنفسهم بدوام المراقبة الدقيقة، وكان يبدو عليهم التحفز والحذر الشديد. فاقتربت من أحدهم أسأله: أنت خايف كده ليه يابني؟ قال: «يافندم ما نعرفش إيه الحكاية، هم خوفونا خدوا بالكو منهم قوي لحسن دول كانوا بيخشوا معسكرات اليهود زي الشياطين» فبعثت في طلب قائد الحراسة وقلت له: أرجوا أن تريح أعصاب هؤلاء الجنود المساكين، وأرجو أن تثق أننا نستطيع ان نخرج لو أردنا الخروج، ولكن ثق أننا لن نحاول هذا إطلاقاً، ونحن نقدر موقفكم ولا ننوي إحراجكم أبداً، وأخذ الرجل يعتذر و يوضح موقفه المحرج ولم أكن في حاجة لتوضيح موقفه فقد كنت أعلم أن أبغض الأمور إلى نفوس الجيش هي أن يرونا في هذا الموقف المؤلم.

وجاء اللواء «فؤاد صادق» ليزور الاخوان بعد يومين وكان يحاول إخفاء عواطفه المهتاجة وراء ستار من الصرامة غير أن عينيه كانتا تدمعان حين أخذ يجيل بصره في وجوه أبطال الأمس و «مساجين» اليوم، وحاول أن يبرر موقفه فقال إن الحكومة السعدية طالبته مراراً باعتقالنا وكان يراوغ في ذلك وإنه الآن مضطر للاحتفاظ بنا في هذا المعسكر حتى لانكون عرضة للتشريد إلى أقصى المعتقلات لو أننا نزلنا إلى مصر!..

وقال إن في نيته أن يبذل أقصى ما في وسعه من جهد لتخفيف شدة الاعتقال، وكان يأمر ضباطه أمامنا بتلبية مطالب الاخوان واعتبار ذلك موافقة منه على كل مايطلبون، ثم قال في ختام حديثه إن الجيش لن يستطيع أن يفي الإخوان حقهم من الاكرام والتمجيد وليس في وسعه إلا أن يواسيهم في محنتهم كما وقفوا معه واستبسلوا في معاونته في محنته.

ظللنا في المعسكر قرابة شهرين انضم خلالها لنا بعض إخواننا من مجاهدي «صور باهر» بقيادة «اليوز باشي محمود عبده»، وافتتح الجيش معتقلاً آخر لاستقبال قوة كبيرة من جنود الإخوان في «بيت لحم» و «والخليل».

ومضت حياة المعتقل رتيبة هادئة قطعها الاخوان في الدراسة والعبادة وجعلوا من المعتقل مدرسة يتعلمون فيها ما خفي من شؤون الدين والدنيا، و يعقدون فيه مناظرات يتعرضون فيها لمشكلات العالم الاسلامي ومحاضرات يوضحون فيها الدروس العسكر ية المستفادة من أخطاء حملة فلسطين، وافتتحوا قسماً لمكافحة الأمية ونجحوا في تعليم الإخوان الأميين من بينهم.

وكان المعتقل فرصة طيبة لتعارفهم وز يادة الروابط فيما بينهم، وهكذا شأن المؤمن يحيل المحنة إلى منحة، والعذاب إلى سعادة ولذة والمعتقلات إلى مدارس وجنات «والمؤمن بخير على كل حال وإن روحه لتنزع من بين جنبيه وهو يحمد الله عز وجل».

ولقد حدث خلال فترة الاعتقال أن زار الميدان الفر يق «محمد حيدر» وز ير الحر بية والبحر ية حينذاك وتفقد الجبهة وزار «التبة ٨٦ التي جرت عليها إحدى المعارك الكبرى الأخيرة ومثل أمامه «بيان عملي» للمعركة اشتركت فيه أسلحة مختلفة من الجيش.

أما الأبطال الحقيقيون فقد نسي حيدر أن يزورهم، ونسي أن يعمل لدى رئيسه السعدي للافراج عنهم مكافأة لهم على أعمالهم و بطولتهم!

وحدث بعد مدة أن زار الفر يق «عثمان المهدي» رئيس أركان حرب الميدان وأبدى رغبته في لقاء قائد «المعتقلين» فبعث اللواء «توفيق مجاهد» الذي تولى قيادة القوات عقب نزول اللواء فؤاد صادق إلى مصر- في طلبي، وذهبت إليه في رئاسة القوات فلما دخلت عليه وحييت، أخذ يطري على الإخوان و يبرر موقف الجيش فيما حدث لهم.

ومما قاله المهدي في هذا المجال «إن مصر كلها لن تنسى لهم هذا الموقف النبيل الذي وقفوه مع جيش البلاد في محنته، وإن الحقيقة سوف تتضح يوماً ما ليعلم الرأي العام حقيقة موقفهم في فلسطين» ثم رجاني أن أحمل أزكى تحياته للإخوان وأن أبلغهم على لسانه أنه يعد بسرعة الإفراج عنهم، و يعد أيضاً بتوفير أعمال لكل من يرغب منهم في العمل بمجرد الافراج عنهم، وانصرفت راجعاً إلى «المعتقل».

غير أنني من حسن الحظ لم أبلغهم هذه الوعود لأنها ذهبت كما ذهبت وعود كثيرة قبلها، وامتد الاعتقال عاماً آخر وحين أفرج عن «المعتقلين» وكانت غالبيتهم العظمى قد فقدت أعمالها الحكومية والحرة، حاولت الاتصال بعثمان المهدي لأذكره بوعده غير أن بعض كبار الضباط أفهموني أن الرجل محرج وأن ليس في استطاعته أن يفعل شيئاً.

وفي أوائل مايو من عام ١٩٤٩ وكنا لانزال في معتقل «رفح العسكري» تجمعت قوات يهودية حول «غزة» وتوقعت قيادة الجيش أن يشن اليهود هجوماً مفاجئاً عليها، واختلف المسؤولون في تحديد وضع «الاخوان» المعتقلين لو نشبت المعارك فعلاً، ورأوا أن يستطلعوا رأي الاخوان فيما لو طلب إليهم الاشتراك في الأعمال الدفاعية، وتحدث معي كل من البكباشي «عبدالجواد طبالة» قائد القوة الخفيفة، والصاغ «جمال الدين خليفة» وكان يقود قوة الحراسة على المعتقل، وقالوا لي إن القيادة تريد أن تعرف رأي الإخوان لو قام اليهود بأعمال عدوانية وهل في نيتكم التعاون معنا في صد هذا الهجوم إن وقع؟ قلت لهم: قولوا للقائد العام إن الاخوان المسلمين يسعدهم دائماً أن يقفوا في صف الجيش في محنه، ذلك لأننا نؤمن أن هذا الجيش ملك الأمة وفلذة كبدها، ونحن أحرص الناس على كرامة هذه الأمة وسمعتها؛ فسروا كثيراً بما سمعوا ومضى الصاغ «خليفة» يكتب تقريره للمسؤولين، غير أن التجمعات اليهودية لم تلبث أن تلاشت وعادت الحالة إلى ما كانت عليه. ولم تلبث حالة التوتر أن عادت ثانية ضرب اليهود «خزاعة» بمدفعيتهم فرأى الجيش إخلاء «رفح» من المعتقلين ونقلهم إلى مدينة العريش بعيداً عن الخطوط الأمامية.

وتم النقل فعلاً في يوم ١٨ يونية. وفي العريش نظم الاخوان أنفسهم على أساس إقامة طويلة المدى وعادوا إلى تنظيم دروسهم ومحاضراتهم حتى كان يوم عيد الفطر حين دوت في الأرجاء رنة الفرح بزوال حكم الإرهاب وقيام وزارة مؤتلفة جعلت مهمتها تصفية المعتقلات

ولكن هذه الوزارة لم ترفع الظلم بالسرعة التي يترقبها الناس. بل أخذت تماطل وتراوغ وتفرج عن المعتقلين آحاداً متفرقة ـ رغم الظلم الواضح الذي وقع عليهم دون وجه حق ـ مما جعل الناس يعتقدون أنها لم تقم إلا لتأدية دور معين في مؤامرة القضاء على فكرة الاخوان. وأنها لم تكن في الواقع

إلا صمام الأمان الذي استعمل في وقت بلغ فيه الكبت إلى أقصى مراحله ولم يبق إلا أن يقع الانفجار فيحطم و يدمر.

أفرج عن المعتقلين وسافر المجاهدون إلى أوطانهم آحاداً متفرقة ولم تنس الحكومة القائمة أن تستقبلهم أسوأ استقبال فتلقي بهم ليالي في سجون الأقسام قبل أن تبعث بهم إلى أوطانهم تحت الحراسة الشديدة كما تفعل بالمجرمين وقطاع الطرق، وكان هذا هو الجزاء الذي أعدته الحكومة المصرية لاستقبال أول مجاهدين عرفتهم مصر في هذا الجيل. و واضح أن الحكومة لم تخرج في كل هذا عن الخطة التي وضعها المستعمر و رباثبه لقتل روح التضحية في الشعب، وصرفه عن ميدان الكفاح الجدي إلى السير في مواكب الزعامات الخاوية، هذا جزاء الحكومة الذي أعدته للمجاهدين. أما الجزاء الذي أعده الله فهو مسطور عنده **(وعد الله لا يخلف الله وعده)**. **(والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله مع المحسنين ...)**.

خاتمة

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾

إلى الكفاح من جديد

هذه خلاصة مذكرات شخصية كتبتها أثناء تنقلي في فلسطين ومزاملتي لبعض الوحدات التي حاربت فيها ولاسيما لقوات المتطوعين في الجبهة الجنوبية، وقد تعمدت أن أنشرها كما وضعتها حينذاك دون أي تغير أو بالقليل من التغيير الذي تحتمه دواعي الربط والانسجام بين الوقائع والفصول، وليس هذا الكتاب تاريخاً للحرب الفلسطينية كما أنه أيضاً ليس تسجيلاً دقيقاً وافياً لدور الإخوان المسلمين في هذه المعركة سواء على صعيدها السياسي أو العسكري، ولكنه أقرب ما يكون إلى عرض سريع لتجربة شخصية لم تسمح لها الظروف إلا بتغطية قطاع صغير من أرض المعركة الواسعة، على أن إطار هذه التجربة ومداها المحدود لا يجب أن يقلل من أهميتها ودروسها المستفادة سواء بالنسبة لهذه الحركة الاسلامية التي عنينا بشكل خاص بتسجيل دورها في النضال الفلسطيني، أو بالنسبة للمعركة التي تخوضها الأمة الاسلامية العربية تجاه مؤامرة عالمية من نوع فريد، وهي مؤامرة أصبحت تحتم عليها أن تنظم نفسها وتكيف أوضاعها السياسية والاجتماعية والعسكرية لحرب طويلة الأمد إذا أرادت ان تخرج من هذا الامتحان العسير وهي تحتفظ بحقها المشروع في أن تعيش كريمة عزيزة بين أمم الأرض.

الاخوان المسلمون :

لقد مر بك أيها القارىء العزيز- كيف حرصت الحكومة المصرية على وضع العقبات والعراقيل أمام الإخوان المسلمين حتى لا يندفعوا في المعركة الفلسطينية بكل قواهم الممكنة وكيف نجحت تلك الحواجز في منع الألوف إن لم نقل عشرات الألوف من نوال شرف الجهاد والاستشهاد على التراب المقدس ، أما أولئك الذين نجحوا في اجتياز العقبات والوصول إلى ميدان المعركة بجهد جهيد فقد كان عليهم أن يقاتلوا عدوهم العنيد في ظروف بالغة الصعوبة أقلها منع الامدادات والتموين عنهم من الدولة التي كانوا يموتون دفاعاً عن شرفها !! ناهيك عن منع الأسلحة والذخائر وتعويض الخسائر الكبيرة في الارواح ، ومع كل هذه المضايقات الشديدة فقد استطاعت كتائب الاخوان أن تحقق انتصارات رائعة في جميع المهام التي ألقيت عليها مما دفع كبار العسكريين المصريين إلى أن يصرحوا في مناسبات عديدة بأنه لو أتيح لهذه الدعوة الإسلامية الجهادية أن تغزو إطارات الجيش المصري وأن تضرب جذورها في نفوس الضباط والجنود أو لو أن الحكومة القائمة حينذاك سمحت لجموع الإخوان المسلمين- وكان عدد المسجلين منهم قد تجاوز عشرات الألوف- لتغير مجرى الحوادث تماماً ولما تمكنت الصهيونية من احراز هذا النصر السهل . لكن الحكم القائم كان ينظر من زاوية أخرى لا علاقة لها بالقضية المقدسة من قريب أو بعيد ، كان ينظر لهذه الحركة كعقيدة متحركة تعمل على مكافحة الاستبداد والتسلط والتمكين للحكم الشوري الحر الذي يريده الاسلام ، كما تعمل على تربية الشباب تربية جهادية خشنة ترفض الميوعة والترف والتحلل ، وهي كلها القواعد التي يقوم عليها النظام القائم و يستمد منها وجوده و بقاءه ، وإلى جانب هذه المصلحة الشخصية للحكم القائم كانت هناك مصلحة دولية تلتقي معها وتنطلق وإياها في اتجاه واحد ونعني بها مصلحة الدول الاستعمارية الكبرى غربية كانت أو شرقية حيث تعتقد كلها أن انبعاث الروح الاسلامية على أصالتها الصافية ومضمونها الصحيح كفيل بأن يعيد لهذه الأمة حقيقتها وأن يضعها في مركز قوة ومنعة يضيع على المستعمرين فرص السيطرة والاستغلال و بسط النفوذ السياسي والعقائدي والاقتصادي على العالم العربي والاسلامي ، وهكذا التقت مصالح الأعداء الطامعين

في ضرب الحركات الاسلامية الواعية، وكان ذلك هو الدافع الذي حدى بالحكم القائم في مصر آنذاك إلى اضطهاد الاخوان المسلمين وعرقلة نشاطهم. غير عابئ بما تؤدي إليه هذه السياسة المستبدة الطائشة من تصديع للجبهة الوطنية وشل للقوى الشعبية في مواجهة العدوان الخارجي على ديار العرب والمسلمين، على أن موجة الاضطهاد
غير عابئ بما تؤدي إليه هذه السياسة المستبدة الطائشة من تصديع للجبهة الوطنية وشل للقوى الشعبية في مواجهة العدوان الخارجي على ديار العرب والمسلمين، على أن موجة الاضطهاد
والكبت لم تقف عند حد البطش بالجماعة والمنتسبين إليها بل تجاوز ذلك إلى مطاردة الفكرة الاسلامية نفسها وتشويه مقاصدها والسخرية منها، والقيام بجهد منظم تشرف عليه أجهزة الدولة التي ينص دستورها على أن دينها الرسمي هو الاسلام، لتنفير الناس من الاسلام ديناً وتاريخاً وحضارة، بل ان هذه الخطة الحمقاء اعتبرت الجيش المصري هو مجالها الرئيسي فقامت تطارد العناصر القوية التي تميل للاسلام وتلتزم بأخلاقه وفضائله، ولو لم يكونوا من الاخوان المسلمين، حتى أصبح مجرد اتهام ضابط أو وصف ضابط بأنه يؤدي الصلاة أو يحث عليها أو يقاوم إباحة الخمور والميسر كافياً لإبعاده من الجيش أو سجنه تحت أي سبب من الاسباب، ولكي تؤدى هذه الخطة نتائجها كاملة تعرض الجيش لموجة عارمة من التحليل والتعهير تحت ستار الفن والترفيه والنشاط الاجتماعي المزعوم، وقامت ادارات خاصة لتنظيم المناسبات الراقصة والحفلات الساهرة الفاجرة، وأصبحت معاقرة الخمور وممارسة القمار وسائل ترفيهية مشروعة، ولا شك أن المسؤولين لم يكونوا يجهلون الأثر الهدام لذلك كله على الروح المعنوية في الجيش، وعلى صفات الصلابة والخشونة واحتراف الحرب التي هي أبسط الخصال التي يجب أن تتوفر في المحاربين، ولكن هؤلاء المسؤولين لم يكونوا يعدون جيشاً لمحاربة إسرائيل عدو الاسلام والوطن، ولكنهم كانوا يريدون فرقاً من المرتزقة المنحرفين المتحللين الذين يرتبط نعيمهم وترفهم ومصالحهم بالولاء للنظام القائم والدفاع عنه، أما الخطر الاسرائيلي وحقوق شعب فلسطين العربي وكرامة الأمة الاسلامية فهي أمور لا تخطر لهم على بال، ولذلك كان طبيعياً أن ينهار الكيان العسكري المفكك عند أول تجربة عسكرية عملية مع العدو الأجنبي.

ولا شك أن استمرار هذه الخطة في كبت الحريات الاسلامية القوية في صفوف الشعب والجيش مهما كانت دوافعها ومبرراتها، ومهما كانت فوائدها القريبة السطحية للحاكمين، فهي لن تؤدي في المدى الطويل إلا إلى قتل فعاليات الأمة وإضعاف مناعتها الذاتية، وتعويدها على الخنوع والاستسلام، حتى إذا هاجمها العدو الخارجي كانت أشبه ما تكون بالجسم الذاوي النحيل الذي يتهاوى تحت أول هجمة من هجمات المرض دون أن تكون لديه القدرة على المقاومة والثبات، وفي تقديرنا أن اصرار الحكام المصريين على السلطة المطلقة وكراهيتهم للشورى والحكم الشعبي الحر وتوجسهم من الدعوة الاسلامية لما تحمله من حد لشهواتهم وغرائزهم مع خضوعهم الأعمى في كثير من الأحيان للسلطة الأجنبية سواء كانت سياسية أو عقائدية، كل ذلك يدفعهم إلى التصدي للحركات الشعبية القوية التي هي في واقع الحال قوة للوطن في مجموعه، فيعملون فيها يد الكبت والاضطهاد والتشريد وتكون النتيجة دائماً شيوع الأحقاد والفتن في صفوف الأمة، وقيام فجوة عميقة من الشك المتبادل بين الحاكم والرعية، ولو أنهم كانوا يضعون مصلحة الوطن والدين فوق الاعتبارات الشخصية والحزبية لاستطاعوا إيجاد المناخ السليم الذي تعمل فيه جميع الأفكار الصالحة متعاونة لبناء وطن قوي سليم، قادر على الصمود في وجه المؤامرات والأعاصير.

إن دور الاخوان في حرب فلسطين يجب أن يكون درساً وعبرة لأولئك الذين يفكرون بإخلاص وتجرد في بناء قوة عربية إسلامية تكون قادرة على مواجهة التحدي الاسرائيلي والتغلب عليه، وحين نتحدث عن دور الاخوان المسلمين لا نحصر تفكيرنا في النطاق الضيق لجماعة معينة أو هيئة معروفة، ولكننا نستشرف الاسلام في معناه الرحب الواسع كفكرة سماوية تخلق المجتمع المتكافل النظيف، وتصنع الفرد الجاد المستعد دوماً لتلبية النداء، وتقديم النفس رخيصة في سبيل الله دفاعاً عن العقيدة السامية والوطن العزيز، وليس جهاد الاخوان المسلمين في فلسطين وما سجله من بطولات فردية وجماعية خارقة سوى ثمرة محتومة لهذه التربية الاسلامية التي أنبتت قديماً خالداً وأبا عبيدة وطارق وشرحبيل وغيرهم من قادة الفتح وجنود الاسلام عبر قرون طويلة، وفي ملاحم لا تزال قمماً شامخة في تاريخ الصراع بين الخير والشر، وهي تربية لا تزال قادرة على أن تنبت أمثالهم في كل عصر ومصر إذا ورد

المسلمون نبعها الصافي، والتمسوا عندها العلاج لأمراضهم ومشكلاتهم.

إن دور الاخوان المسلمين في الحرب الفلسطينية عام ١٩٤٨ - ١٩٤٩، يجب ألا يقاس بمقياس مادي صرف، نعني بعدد القوات التي اشتركت منهم في المعركة ونسبتها العددية إلى القوات العربية النظامية والقوات الاسرائيلية، ولكن يقاس في إطاره المعنوي والروحي، ذلك أن الانسان الذي يصمد في ظروف صعبة يدافع عن عقيدته وإيمانه، ويموت وعلى شفتيه ابتسامة الرضا والظفر، لأنه يؤمن بالقضية التي يحارب من أجلها، ويعتبر الموت ثمناً متواضعاً يقدمه في سبيلها، هذا الانسان كان دائماً هو العنصر الحاسم في الحروب، وسيظل كذلك مهما تطورت اسلحة الحرب وفنونها ووسائلها، وإذا كانت الحرب الفلسطينية الأخيرة ـ كما أسلفنا في موضع سابق ـ هي «مزرعة تجارب» لنا وللعدو، يستفيد كل فريق من دروسها واختباراتها ما يعينه على خوض الجولات المقبلة بصورة أفضل، فإن الانسان العربي الذي سيخوضها في المستقبل يجب أن يحظى بعناية واهتمام لا يجب أن تقل عن العناية بتطوير الأسلحة والمعدات الفنية، ومن أجل صياغة الانسان العربي المقاتل أمام الصهيونية، يجب أن تقدم قصة الأخ المسلم في الحرب الفلسطينية، أو بعبارة أدق عقيدة الاسلام الخالدة كمدرسة لإنتاج الأبطال الذين نريدهم في هذه المحنة التاريخية أمام الغزو الصهيوني.

وإذا كان محتوماً على المسلمين ولا سيما العرب أن يرتبطوا بالاسلام وأن يبنوا حياتهم وكيانهم على أساسه المنيع في كل وقت، فإن التحدي الصهيوني الراهن يجعل ذلك أكثر حتمية وأشد إلزاماً لأنه سيكون ـ في تقديرنا ـ الفارق الرئيسي بين الهزيمة والانتصار، وبين الظفر والاندحار، وبين أن تبقى الأمة العربية بعد هذه التجربة أو لا تبقى على الاطلاق، أو يصبح وجودها ذليلة مستعبدة كالعدم سواء بسواء.

إن الحركة الصهيونية التي تقوم على التوراة والتلمود وتوحد يهود العالم تحت حائط المبكى ومدينة داود، لا يمكن أن تواجهها إلا أمة إسلامية متماسكة تمشي بينها آيات القرآن، وتحركها سيرة محمد وبطولات الصحابة والتابعين، وترتبط بأرض الاسراء والمعراج ارتباط عقيدة وإيمان، وترى الموت دفاعاً عنها أقرب سبيل إلى الجنة والرضوان، عقيدة تجعل

المسلمين حكاماً وشعوباً يدركون معنى الآية الكريمة التي جعلها الاخوان المسلمون شعاراً لهم **(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم)** واقعاً حياً ملموساً في إعداد الأمة كلها شيباً وشباباً لقتال العدو، وتسخير أموال الشعب في التماس اسباب القوة الرادعة في مجالات التسليح والتدريب حتى يصبح الوطن قلعة عنيدة أساسها الإيمان والعقيدة، ولحمتها الرجولة والتضحية، وغطاؤها أقوى ما وصل إليه العقل البشري من وسائل الاعداد وفنون القتال، وهذه هي الصورة التي يرسمها القرآن الكريم للأمة الاسلامية المجاهدة هي لعمري الصورة الوحيدة لأي أمة تريد أن تبقى حرة كريمة في عالم يموج بتيارات الشر والاعتداء والتوسع على حساب الضعفاء.

وهذه الصورة هي التي يريدها الاخوان المسلمون للأمة العربية ولا يريدون لها بديلاً، وهذا هو السبب في صدامهم دوماً مع الحكومات المصرية المتتابعة، التي لا تؤمن إلا بكراسي الحكم والثراء الحرام.

ومن هنا نود أن نكرر أن تسجيلنا لجهاد الاخوان المسلمين في فلسطين لم يكن هو مجرد امتداح للجماعة، أو تغنياً بأمجاد فئة معينة وإنما كان -إلى جانب الاعتراف بالفضل- محاولة لإبراز هذا الدرس العملي الملموس ووضعه أمام المسلمين حكاماً وشعوباً وهم يدعون أنهم بسبيل الاستفادة من دروس النكبة وعبرها المريرة لبناء قوى رادعة تمسح العار وتنقذ الديار، لعله يرشدهم إلى الاتجاه الصحيح لإقامة مجتمعات منيعة وجيوش صلبة. إن ما أردنا أن نصل إليه هو أن نقول لهم جميعاً إن الاسلام بمفهومه الواسع الصحيح هو الرد على الصهيونية المعتدية، فإما أن تسلكوا سبيله، أو تنتظروا المزيد من الكوارث والنكبات، فهل يسمعون أم تغلبهم النزعات الشخصية والضغوط الأجنبية، هذا ما ستجيب عنه الأيام؟!

بعد النكبة

نعود الآن لنتساءل، إذا كانت الجولة الأولى من حرب فلسطين قد انتهت، فهل يعني ذلك نهاية القضية الفلسطينية؟ وهل أشرفت الشعوب العربية والاسلامية على سلم دائم طويل؟ وهل يمكن أن نكتب خاتمة هذا الكتاب ونحن مطمئنون أننا نسجل الحوادث من بدايتها لمنتهاها؟

الواقع أن كل الدلائل تشير إلى أن الحرب لم تنته، وكل ما حدث في الماضي ويقع اليوم يمهد لمواصلتها ويدفع بنا قدماً للسير في طريقها، وإن الجولة التي أجملنا وقائعها في هذا الكتاب لا تعدو أن تكون تمهيداً لحرب طويلة المدى مجهولة النتائج، فأي أوضاع خلقتها هذه الجولة؟ وأين نحن الآن بعد أن توقفت العمليات الحربية إلى هدنة مسلحة؟

دعونا نجوس خلال الأرض المقدسة ونتحسس طريقنا وسط الخرائب والأنقاض، لنرى الأوضاع الجديدة التي خلفتها الحرب الفلسطينية، إننا سنجد أنفسنا أمام حقائق لا عهد لنا بها من قبل ولا مفر من مواجهتها بعزم وصراحة.

أما هذه الحقائق فهي أولاً : قيام دولة اسرائيل، ثانياً : تشريد الشعب الفلسطيني.

١ ـ اسرائيل :

وصلت السياسة الاستعمارية لأبعد غاياتها، فقامت دولة «اسرائيل» وتكوّن السرطان الخطر في أدق أجزاء الوطن العربي بعد أن هيأت بريطانيا له وسائل التكوين، وتركته ينمو ويتوسع ويمتلئ بافرازات السمّ والدمار، وبات واضحاً أن الأمم العربية والاسلامية إن لم تسارع بفضه والقضاء عليه فإن الجسم كله سيتسمم ويذبل ويسرع نحو خاتمته الرهيبة.

ويجب أن نعلم أن اسرائيل الحاضرة في نظر اليهود لا تزيد عن كونها نقطة ارتكاز تحشد فيها قواتهم وأموالهم ومواهبهم، حتى إذا اكتمل لهم ما يريدون من قوة، تدفقت أمواجهم في زحف رهيب لتغمر الأرض الموعودة حيث امبراطورية إسرائيل التي تمتد من الفرات إلى النيل ... وإلا ففيم هذا الاعداد الهائل الذي تموج به أرض إسرائيل؟ وفيم هذا الجهاز العسكري الجبار الذي يستهلك وحده ثلث ميزانية الدولة، وكأن الحرب في نظرهم قد أصبحت على الأبواب؟ قد يقول قائل إن اسرائيل مضطرة لإعداد نفسها وهي تشعر أنها تقع في محيط يبغضها، ويتحين الفرص للانقضاض عليها.

ولكن ينسى هؤلاء أن اسرائيل مطمئنة لسلامتها في حدودها الراهنة، مطمئنة وهي ترى ما عليه الدويلات العربية من ضعف وانحلال، ومطمئنة وهي تشعر أن بريطانيا وأمريكا تقفان في صفها وتؤيدانها بكل ما تملكان، حتى سمعنا وزيراً أمريكياً مسؤولاً يقول منذ أيام «يجب أن تعلم الدول العربية أن اسرائيل خلقت لتعيش»، ولقد بلغ من اطمئنانها لهذه السلامة أنها تفرض آراءها على الدول العربية. وتوجه لها اللطمات القاسية واحدة تلو الأخرى دون أن تجرؤ إحداها على مجابهة العدوان، أو على الأقل التظاهر بنيتها في مجابهة العدوان.

وإذن فما الذي يدفع اسرائيل لتوجيه همها لشئون الجيش والدفاع؟ ليس من شك أن ذلك الاعداد يقوم لمواصلة العمل من جديد،واقتناص الفرص المناسبة لمغالبة العرب على بعض ما في أيديهم. واسرائيل تخشى أن تتغلب حركات الاصلاح في الدول العربية فتفيق من غشيتها وتحطم طواغيت الحكم التي تقف في طريقها وتمنعها من مواصلة التقدم فلا تستطيع أن تنال منها كسباً جديداً.

والاستعمار حين احتضن الفكرة الصهيونية وهيأ لها الوسائل لتنجح وتنتصر، كان يسلم بمطالبها كلها ويؤمن بالبرنامج الذي تسعى لتحقيقه، وإن كان قد نجح في انتزاع جزء من فلسطين، فما لا شك فيه أنه يواصل السعي من جديد ليسلم بقية البضاعة ويصل بالفكرة إلى آخر مراحلها المبتغاة.

اسرائيل اليوم تموج بجيش صهيوني كبير، والاعداد قائم فيها على قدم وساق، وهذا

الجيش ليس في الواقع إلا وحدة من جيشها الكبير الذي يتغلغل في الدول العربية و يسيطر على كثير من منابع الثروة فيها، و يرصد حركاتها وسكناتها، وفيه مجندون ومتطوعون من باشوات العرب وكبارهم ممن يتعاونون مع اليهود، و يعملون في شركاتهم ومؤسساتهم، و يساهمون في المعركة المحتدمة بجهد مقصود وغير مقصود.

ولقد حدثني أحد ضباط المخابرات أخيراً، أن الحكومة الاسرائيلية قد افتتحت مدرسة في إحدى المستعمرات الواقعة حول تل أبيب، لتدريب الشباب اليهودي الذي يعيش في الدول العربية على أعمال الجاسوسية والتدمير، وأن كثيراً من اليهود المصريين والسوريين، ينزحون إلى هذه المدرسة بطرق مختلفة، حيث يتلقون دروسهم في الجاسوسية وأعمال التخريب، ثم يعودون إلى «أوطانهم» مصر أو سوريا و ينتظمون في الجيش اليهودي السري حتى تحين الفرصة المنشودة لتطبيق ما تعلموه.

هذا الجيش الداخلي يزيد في خطورته عن قوات إسرائيل العسكرية، لأنه موجود في بلادنا، و يتزيى بزينا، و يتحدث بلغتنا، و ينتظر الوقت المعلوم ليؤدي فيه دوره المرسوم.

وحتى الدول العربية التي كتب الله لها السلامة، وطهَّر أرضها من هذا الرجس الوبيل، تحاول اليهودية الدولية أن تدخل إليها بعض أفراد هذا الجيش الخطير، ولقد حدثني زعيم عربي كبير له مكانته وإلمامه أن اليهود لا يزالون يلحون على حكومة أمريكا و يوسطونها لدى الملك عبد العزيز بن سعود ليسمح لعدد من المهاجرين المشردين بدخول أرض الجزيرة العربية، وليعودوا إلى القرى التي طردهم منها نبي الاسلام منذ أربعة عشر قرناً من الزمان، وقد كانت هذه المساومة العجيبة على رأس الأمور التي أثارها الرئيس الأمريكي الراحل «روزفلت» مع الملك عبد العزيز حين اجتمع به على أرض مصر في نهاية الحرب العالمية الأخيرة، ولكن الملك السعودي رفض هذا العرض رفضاً باتاً.

هل فهمتم يا شباب الاسلام؟ وهل أدركتم حقيقة الخطر الوبيل؟ ...

وإذن فإسرائيل قائمة فعلاً ولن يقلل من هذه الحقيقة أن تضيف صحفنا إليها لقب «المزعومة» كلما تحدثت عنها، وإسرائيل تستعد وتهيء نفسها لعدوان جديد، ولن يقلل من

هذا الخطر أو يهون من شأنه ما يردده الحالمون الخياليون عن الضائقة الاقتصادية فيها، وعن رغبتها الأكيدة في السلام.

وإذا كانت هذه هي اسرائيل وتلك هي حقيقة الخطر الذي يتحفز أمامنا فماذا أعددنا لمجابهته ووقفه عند حده؟

إن علينا أولاً أن نعرف أبعاد الخطر الذي يمثله الوجود الصهيوني في فلسطين على حاضر أمتنا ومستقبلها، وأن ندرك أنه لن يكون هناك سلام أو استقرار لهذه المنطقة من العالم طالما بقي هذا الكيان العدواني، ومعرفتنا بحدود الخطر وروافده المحلية والدولية، وأثره الهدام على كياننا يجب أن يدفعنا إلى إعادة النظر في أوضاعنا السياسية والاجتماعية والعسكرية من أساسها، وتنظيم حياتنا كلها تنظيماً يكفل الاستمرار في حرب طويلة الأمد قد تمتد مائة عام، وليس لنا من سبيل سواها، لأن التسليم بواقع اسرائيل في أي نطاق وعلى أي صورة لن يعني في المدى الطويل الا خضوع الشعب العربي لاستعمار صهيوني جديد.

يجب أن ينطلق تفكيرنا دوماً من الحرب الطويلة مع اسرائيل وأن تخضع جميع الاعتبارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية لهذه القاعدة الأساسية، وأن نعود أنفسنا وشعوبنا على تحمل ما تعنيه هذه السياسة من تقشف وخشونة، حتى نكون على استعداد دائم لتقبلها والالتزام بتبعاتها. ونظرية الحرب الطويلة مع اسرائيل تحتم أيضاً إنهاء المنازعات العربية ومعالجة الأسباب التي تؤدي إليها بروح أخوية تستشعر خطورة القضية وآثارها التاريخية على الشعوب العربية والاسلامية. والانتقال بعد ذلك إلى مرحلة عملية من التعاون العربي القائم على الثقة والمحبة لتسخير جميع الموارد والطاقات لتقوية الجبهة الموحدة أمام الخطر المشترك.

ويقتضي الحرص على معرفة العدو والاستعداد لمقاومته على أسس سليمة راسخة، أن يعكف خبراؤنا العسكريون والسياسيون على استخلاص العبر والدروس من المرحلة الماضية التي بدأت بوعد بلفور، وانتهت بقيام اسرائيل، لنعرف على وجه التحديد أين كانت أخطاؤنا وهفواتنا وكيف كان من الممكن أن نتفادى تلك الأخطاء والهفوات، وفي الحديث عن عيوب العمل السياسي والعسكري في الجبهة العربية يمكن أن يقال الكثير كما يمكن أن

تتعدد الآراء والنظريات، وهو موضوع واسع كثير الجوانب وليس محله هذه المذكرات، ولكن يجب أن تشكل اللجان العلمية والعسكرية تحت اشراف الجامعةالعربية أو الحكومات المعنية لدراسة النكبة وتاريخها وعواملها، كما يجب أن تعنى المؤسسات العلمية والعسكرية في البلاد العربية بهذه القضية لا لتتلاوم من حولها ولا لتبحث عن «كباش الفداء» لتعلق التهمة في أعناقها، ولكن لتحدد طريق العمل الجدي من أجل إزالتها وتخليص العالم العربي الاسلامي من شرورها وويلاتها.

إن قيام اسرائيل على اشلاء الشعب العربي الفلسطيني قد فتح باباً لصراع طويل شاق بين حضارتين واقعتين لا بد أن تسحق إحداهما الأخرى، صراع لا مجال فيه لأنصاف الحلول أو التسويات المبتورة، ومن الخير للعرب والمسلمين أن يدركوا هذه الحقيقة وأن يوطنوا النفس على قبول التحدي وخوض المعركة بإيمان وثبات، فهل يفعلون؟

٢ ـ اللاجئون العرب :

نحن أمام شعب محطم مكدود، أكلته الحرب وقذفت به أمواجها العاتية زبداً رابياً على شواطئها السحيقة، شعب ساهم العالم المتحضر كله في تحطيمه وتشييع جنازته، وساهمت الجامعة العربية وحكوماتها بالنصيب الأوفر.

والحق أنني أحس بنقمة شديدة على هذه الجامعة العربية ـ ولست أشك بأن القارئ يحس بما أحس به ـ كلما ذكرت محنة فلسطين وحالة شعبها البائس. ولا أمر على معسكرات اللاجئين وتصافح عيني صور البؤس والفاقة التي ارتسمت على وجوه سكانها، حتى أصب اللعنات على أولئك الذين ساهموا في تنفيذ هذه المؤامرة الدامية، ولا أنسى إذا لعنت اليهود مرة أن ألعن الانجليز مرتين ثم ألعن الجامعة وحكوماتها ألف مرة، ذلك لأن اليهود كانوا يعملون لمصلحتهم وينفذون فكرة آمنوا بها وسعوا الى تحقيقها، والانجليز حينما أقاموا «اسرائيل» لم يقيموها حباً في اليهود وسواد عيونهم، ولكن حباً في امبراطوريتهم وتمشياً مع مصالحها التي تفرض إيجاد «توازن» في الشرق العربي يضمن لبريطانيا البقاء في ربوعه.

ولكن أي عذر نلتمسه لزعماء العرب ورؤساء حكوماتهم وقد وقفوا من القضية موقفاً متداعياً حتى كبر الخطر واستحال التغلب عليه، وأي عذر لهم اليوم بعد أن وقعت الهزيمة

و بدأ العدو يتحفز لوثبة أخرى وهم لا يزالون يجتمعون و يقررون ولا همّ لهم إلا القضاء على شعوبهم وكبت كل حركة قو ية تظهر فيها، وكأنهم قد رضوا بالأمر الواقع ولم يبق إلا أن يتبادلوا التمثيل السياسي مع سرائيل!.

هذا الشعب فقد أرضه ووطنه، وفقد معهما كرامته ومعنو يته، ولا تزال الأوضاع الحاضرة تعمل عملها لتقتل في نفسه كل دافع يدفعه لمواصلة الكفاح، وأصبح هدفه كله أن يحصل على لقمة الخبز اليسيرة، وحتى هذه اللقمة التافهة التي تلقى إليه في المعسكرات يتناولها من يد أعداء أمته وكأن العرب والمسلمين قد طواهم الموت وغيبتهم ظلمات القبور.

كنت أسمع من كثير من اللاجئين تساؤلاً لا أستطيع أن أجيب عليه «أين العرب وأين المسلمون؟ هذه هي حقوق الجيرة والقرابة والدين أن نترك هكذا نموت جوعاً ولا نجد العون إلا من أمر يكا وهيئة الأمم»، إني أعلم أن حكوماتنا «الرشيدة» تساهم في إغاثة اللاجئين عن طر يق هيئة الأمم، وذلك هو الغباء المطلق، فالوضع الصحيح أن تساهم معنا الحكومات الأجنبية في إغاثة اللاجئين وتقدم لنا ما تستطيع المساهمة به ونقوم نحن بتوز يعه على أبنائنا وإخواننا، أما أن تنعكس الآية فنساهم نحن بالنصيب الأكبر ونغيث اخواننا عن طر يق هيئة الأمم، ليقوم بتوز يع المواد على اللاجئين مندو بون من جميع الدول والأجناس إلا الدول الاسلامية والجنس العربي فما لا نفهمه ولا نستسيغه.

في معسكرات اللاجئين اليوم قوة معطلة، مئات الألوف من الشباب يتسكعون على المقاهي والطرقات و ينتظرون اليوم الذي ينطلقون فيه لتطهير أرضهم، ولا ينقصهم إلا قيادة مخلصة تسوي صفوفهم وتسلك بهم طر يق الكفاح الشاق.

ولكن السياسة المتخاذلة التي لعبت دورها في الوصول بهم إلى هذه الحالة، لا تزال تلاحقهم ولا تزال مخالبها المخضبة تلتف حول أعناقهم وتعوقهم عن الحركة والتفكير، والأغلال التي استدارت حول أرجلهم منذ كان في فلسطين استعمار، لا تزال هي الأغلال التي تكبلهم عن العمل وتقعدهم عن الكفاح. وكيف لا يكونون كذلك وزمام أمرهم في يد الحكومات العربية، والحكومات العربية بدورها لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً، فوق أن لها

من المشاكل الداخلية ـالتي خلقها الاستعمارـ ما يشغلها عن التفكير في فلسطين ووضع الوسائل العملية لاستردادها.

ألست ترى أن المحادثات والمفاوضات تدور اليوم حول مشكلة اللاجئين وطريقة إغاثتهم وتهيئة سكن مستقر لهم، أما قضية فلسطين نفسها وقضية الوطن المباح والكرامة المهدورة والاسلام الذبيح تحت أقدام اليهود، فهذه كلها أهداف وآمال تدور في عقول الخياليين الواهمين من أمثالنا، ممن يبتعدون عن الواقع ولا يفكرون بالعقول التي أرادنا المستعمر أن نفكر بها، وحتى قضية اللاجئين التافهة ـعلى ما فيها من وضوح لا تحتمل معه كل هذا الشد والجذبـ يحاول الاستعمار أن يحلها على حساب العرب أنفسهم دون أن تتحمل اسرائيل شيئاً في حلها، فتارة يقترحون نقلهم إلى «سيناء» وتارة يقترحون نقلهم إلى «برقة» والزعماء العرب يصوغون مقالات المديح في ساسة أمريكا وبريطانيا الذين يشغلون أنفسهم بهذه القضية الانسانية ... أما إرجاع اللاجئين إلى وطنهم الأصلي حيث ولد آباؤهم وأجدادهم، وحيث لا تزال دورهم وأمتعتهم في انتظارهم، فهو لا يسمح به المستعمرون، وهو ما لا يدور إطلاقاً في عقول الزعماء الأمجاد.

إن دول الاستعمار تريد أن تحل مشكلة اللاجئين، لا رحمة باللاجئين أنفسهم، ولا إشفاقاً على وجه الانسانية الصبوح أن تشوهه المآسي، ولكن إشفاقاً على إسرائيل نفسها، لأن بقاء اللاجئين على وضعهم الحالي يشعر إسرائيل أن القضية لم تنته، ويجعلها في قلق دائم لا تستطيع معه أن تباشر الاعداد والانشاء في جو هادئ مستقر، وإذن فلا بد من «التصفية» على أن تكون تصفية يتحملها العرب أنفسهم ولا تتنازل «اسرائيل» فيها عن شبر من الأرض التي اغتصبتها، ولا تنفق مليماً واحداً من المال الذي تجمعه لتنفذ به برامجها الواسعة، ولا يمكنها أن تنفق منه على هذه التفاهات الصغيرة ...

تلك هي السياسة التي ترسمها دول الاستعمار لحل مشكلة اللاجئين، ومن هنا تقترح إسكانهم في «برقة» وإسكانهم في صحراء «الأردن» وإسكانهم في «سيناء».

إن حل مشكلة اللاجئين في أيدينا، ولن تحل قضيتهم إلا بالرجوع لأوطانهم وخروج اليهود منها، ولن يعودوا اليها بالمحادثات والمفاوضات ولن يترك اليهود أرضاً غنموها بالسلاح

إلا تحت ضغط القوة المسلحة، هذا هو الطريق فاسلكوه ولا تضيعوا الوقت «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة» ولا تغرروا بالجماهير البائسة، فالقضية لا تحتمل كل هذه السياسة وهي إما حرب سريع أو موت بطيء وذل دائم.

إلى العمل :

إن أول ما يجب أن نفكر فيه معشر العرب ـوخاصة هنا في مصرـ هو بناء قواتنا العسكرية وخلق الجيوش القوية التي تستطيع أن تواجه هذا الخطر، ولا يبدو في الأفق حتى الآن ما يبشر بالسير نحو تحقيق هذا الهدف.

يجب أن نستورد الأسلحة من أي مكان نستطيع، ويجب أن نبذل كل جهد لإقامة المصانع الحربية في بلادنا لأن «الاستجداء» والصدقات وشراء الفتات والفضلات، ليست من وسائل اعداد الجيوش القوية، وما كارثة فلسطين الأخيرة ببعيد.

لنبدأ في بناء قواتنا العسكرية على أسس سليمة، ولنستعن بكل وسيلة ممكنة وغير ممكنة للوصول الى الغاية، وليست الأسلحة والمصانع وحدها هي التي تنقصنا بل ان الأسلحة والمصانع تكون هينة ميسورة يوم يتوفر العزم و يوجد الحكام الأقوياء المخلصون. لكن هناك أموراً أخرى تنقصنا وتحتاج منا إلى جهود جبارة لإيجادها.

لا بد أولاً من خلق أمة قوية صحيحة تتهيأ فيها الحياة الحرة الكريمة لكل فرد من أفرادها، ولا بد من إيجاد العقيدة القوية السليمة التي تجمع أفراد هذه الأمة حولها وتدفعهم للعمل والجهاد دفاعاً عنها، ولا بد من محاربة مظاهر الخنوثة والترف التي نشبت في مجتمعاتنا وأصبحت تهددنا بالانهيار العاجل السريع.

أصلحوا الأمة أولاً :

هذا الجيش ليس جزءاً منفصلاً عن الأمة، ولكنه صورتها المصغرة وثمرتها الناضجة، ولا يمكن أن تبني أمة جيشاً قبل أن تبني الأمة نفسها على أساس سليم، كما لا يمكن أن توجد الثمرة قبل أن تزرع البذرة وتنبت الشجرة، والأمة الحرة القوية الصحيحة يكون جيشها قوياً صحيح البدن والعقل، كما وأن الأمة الضعيفة الجاهلة الذليلة يكون جيشها ضعيفاً جاهلاً

ذليلاً، ولو لكل جندي دبابة وطائرة، هل يمكن بناء جيش على جنود غالبيتهم العظمى من العوام الفقراء الذين لم يستطيعوا دفع البدل العسكري التافه؟ ولقد سمعت كثيراً من هؤلاء الجنود يتساءلون في المرحلة الأخيرة من الحرب، لماذا يحاربون اليهود في فلسطين؟ بل إن هذا الجندي لو ترك على سجيته لما شعر برغبة في القتال حتى عن حدود مصر نفسها، ومن أين تأتي الرغبة وهو يؤمن أن حدود وطنه لا تتجاوز حدود قريته التي عاش ودرج فيها!!

وكان الجنود ـ ولا يزالون ـ يشعرون بالعذاب الذي يعانيه أهلوهم تحت نير النظم الاجتماعية الفاسدة، ولقد نجح الاستعمار في حرمان مصر من الجيش القوي العزيز، حينما سمم التربة التي تنبت أفراد الجيش، ولوث المنبع الذي يستمد منه الجيش رجاله، فقضى على الفلاح المصري وحكم عليه أن يعيش في مستوى أقل من مستوى السوائم العجماء. فطهروا منابع الجيش الأصلية قبل أن تتعبوا أنفسكم في إنشاء الفرق المدرعة والألوية الجوية، وأصلحوا الأساس أولاً قبل أن تبنوا طابقاً ثانياً وثالثاً فوق البناء المتداعي، أو تضيعوا الجهود عبثاً في طلاء الجدران وتركيب الزجاج على النوافذ!!

أصلحوا الجيش كما تشاؤون، ولكن اذكروا دائماً أن الجيش القوي ثمرة طبيعية لأمة قوية، فبادروا أولاً باصلاح هذه النظم الظالمة، وهبوا للفلاح البائس حياة حرة كريمة قبل أن تطالبوه بالدفاع عن حرية أمته وكرامتها، وأصلحوا التربة التي تنبت لكم الجنود قبل أن تطالبوها بالثمار فتعطيكم ثماراً فاسداً عفناً ليس فيه غناء ولا يرجى من ورائه عزة وانتصار.

أعيدوا للجيش ثقته بنفسه :

من الأمور التي تهتم بها الدول غرس معاني الثقة في نفوس أفراد الجيش، والمحافظة عليها خاصة بعد الهزائم التي يمنون بها، وليس من شك أن جيشنا هذا قد فقد الثقة في نفسه، وفقدها في قادته، وفقدها في زعماء حكومته، فقدها في نفسه يوم رسمت له سياسة خاطئة انتهت به إلى هزيمة لا ذنب له فيها، وخرج أفراد الجيش وليس في حلوقهم إلا غصة الهزيمة كلما ذكروا حرب فلسطين، وليس في قلوبهم إلا رعب قاتل كلما ذكروا معارك اليهود.

وفقد الجيش ثقته في قادته يوم ساقوه إلى المجازر نتيجة خطط مرتجلة وتركوه عرضة للهزائم

والحصار، وكم من مرة كانت ترسل الأوامر المتناقضة والتعليمات التي يهدم بعضها بعضاً، ويحار الجنود أي الأوامر ينفذون، وأيها يتركون، و يظلون في حيرتهم حتى يلاقوا حتفهم الذي يوعدون. كم من مرة حدث هذا وما هو أكثر منه، حتى امتلأ الجنود حقداً على قادتهم، ولم تعد تسمع من الجنود تلك القصص المشرفة، التي يتحدث بها الجنود عن قادتهم في أعقاب الحروب، ولكنك تستمع دائماً إلى روايات مضحكة مبكية، وقد لا تكون القصص صحيحة، وأغلب الظن أنها ليست صحيحة، ولكنها عين السخط التي تزن الأمور بميزانها الخاص.

وعين الرضا عن كل عيب كليلة

كما أن عين السخط تبدي المساو يا

وزاد الطين بلة ما سمعه الجنود عن الأسلحة الفاسدة وعن الدور السيء الذي لعبته رتب كبيرة وشخصيات عظيمة في نظام الحكومة السعدية.

وفقد الجيش ثقته في زعماء حكومته يوم أسلموا أعنتهم للمستعمر الغاصب، يحركهم كيف يشاء، و ينفذ بأيديهم وعقولهم خططه المرسومة، فقبلوا الهدنات المتلاحقة، وأضاعوا بتصرفهم ثمار النصر، وكلما أحرزت العسكر ية نصراً، ودفعت فيه ثمناً باهظاً، خسرته السياسة المز يلة على موائد المستعمّر بثمن بخس.

وسمع الجيش كيف خضع النقراشي وخليفته لسياسة الانجليز، وقام يحارب أخلص فئة من أبناء الوطن، و يلقي بهم في غياهب السجون، سمع الجيش بهذا وقارن بين ما يفعله الاخوان في فلسطين، وما يلقونه من حكومتهم في مصر، فعلم أن البلد الذي يدافع عنه ليس ملكاً له، ولكنه ملك للمستعمر وصنائعه!

تلك هي النتيجة التي خرج بها الجيش من حرب فلسطين، فقد الثقة في نفسه، وفقد الثقة في قيادته، وفقد الثقة في حكومته، فهل يستطيع جيش ضم هذه العيوب كلها أن يقف ليحارب عدواً يفوقه في العدة و يكاد يكون خالياً من كل هذه العيوب.

أعيدوا للجيش ثقته بنفسه ودعوه يؤمن أن الهزيمة التي وقعت لم تكن من صنع يده وليس له ذنب فيها، وأن الجيش قد أدى واجبه في هذه الحرب كاملاً غير منقوص على قدر ما تسمح به موارده وعدته.

ودعوه يعرف الكثير عن خصمه ومواطن الضعف فيه، وأن الصورة التي تكونت في ذهنه عن المقاتل اليهودي ليست صحيحة اطلاقاً، فاليهودي لا يزال كما كان دائماً، مقاتلاً فاشلاً جباناً، لا يتمتع بصفة من صفات المقاتل الممتاز، وتلك ناحية من الأهمية بمكان، ولقد كنا نقرأ خلال الحرب العالمية الأخيرة مقالات يكتبها كبار القادة الانجليز عن الجندي النازي أو الفاشستي أو الياباني فيصفونه ويحللون شخصيته و يوضحون نقاط الضعف في نفسه و يعطون لجنودهم صورة واضحة منه، مستمدة من المعارك التي خاضها.

وأعتقد أن من واجب ادارة الجيش أن تبادر بطبع رسائل في هذا الموضوع بأقلام بعض الضباط ممن شهدوا الجولة الماضية حتى تمحى هذه الصورة الخاطئة التي أخذها جنودنا عن العدو كمقاتل ممتاز، ومضوا يتداولونها فيما بينهم و ينقلونها إلى غيرهم ممن لم يشهدوا هذه الحرب.

وأعيدوا للجيش ثقته في قواده ودعوه يؤمن أنه إن كان أفراد قلائل قد سرقوا فإن أفراداً كثيرين لم يسرقوا، وأن النزاهة ومعاني الشرف إن كانت قد ضاعت من النفوس المريضة أمام بريق المال، فإن النزاهة ومعاني الشرف لا تزال بخير في نفوس الغالبية المؤمنة. وأنه إن كان بعض القادة قد أخطأوا في إدارة المعارك فإن كثيرين لم يخطئوا، وأن الجيش لا تزال فيه كفايات ممتازة لا تقل عن نظائرها في جيوش العالم الحديثة.

وأعيدوا للجيش ثقته في زعماء حكومته فحاكموا «مجرمي حرب» فلسطين من السياسيين، وحاكموا مجرمي الوزارة الماضية على ما ارتكبوه من آثام في حق أبناء الوطن، وبادروا برفع المظالم عمن ظلم حتى يؤمن الجيش والشعب أنه إن كان نفر من زعمائه يقع تحت تأثير المستعمر و يسير في الطريق التي يرسمها، فإن نفراً آخر لا يقع تحت تأثيره ولا يملك أن يسير في طريق غير التي ترسم له.

دعوه يؤمن أن عنده زعماء يتمردون على الانجليز و يرفضون تدخلهم في شؤون البلاد، ودعوه يؤمن أن حرية الرأي والعقيدة مكفولة في مصر، وأن علينا جميعاً أن نقف صفاً واحداً أمام أي عدو يحاول أن يدوس أرضنا ليحرمنا أول ما يحرمنا من حرية الرأي وحرية العقيدة.

افسحوا الطريق لمبادئ الاسلام :

لم تتفق النظم العسكرية على أمر من الأمور بقدر ما اتفقت على أهمية الروح المعنوية وأثرها في كسب الحروب، حتى أنها لتضعها في المقام الأول قبل التسليح والتدريب، فهذا القرآن الكريم يقول في إحدى منشوراته العسكرية «**إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ... الخ**» و يصوغ جبار الحرب الحديثة نابليون هذا المعنى في قوله عن نسبة القوى المعنوية إلى قوى المادية ويجعلها كنسبة ٣: ١.

ولأهمية الروح المعنوية يضع قواد ا[illegible] والجيوش أساليب خاصة في المحافظة عليها وتقويتها حتى في ساعات الهزائم، فبعضه[illegible]ج حماس الجنود في الحرب عن طريق الثأر والانتقام كما فعل النازيون، وبعضهم [illegible] طريق تحبيب الغزو والاستعمار والتلويح بالضائقات الاقتصادية لو انكمشت الدولة في رقعتها المحدودة كما فعل الفاشست واليابانيون، وبعضهم عن طريق المبادئ والدعوات التي يلقونها للجنود و يوهمونهم أنهم حملة رسالة من رسالات الخير، وحماة عقيدة من عقائد الاصلاح كما يفعل الشيوعيون، وهكذا تختلف الوسائل وتلتقي عند غاية واحدة، هي تحبيب الحرب للجندي وإمداده بالذخيرة المعنوية التي يقاتل في سبيلها و يستهين بالموت دفاعاً عنها.

وعدونا الذي نحاربه اليوم يعتنق عقيدة من أخطر العقائد، وهي سيطرة جنس على أجناس، فهم يوهمون شبابهم أنهم «شعب الله المختار» وأن الله قد سخر لهم هذا العالم واجتباهم دون سائر الشعوب لحكمه والسيطرة عليه، و يؤججون في صدورهم معاني التضحية والاستماتة حين يذكرونهم بالمذابح الوحشية التي وقعت عليهم في عهود الطغيان، وأن الله تعالى قد أراد لهم الراحة من هذا العناء حين وهبهم أرض «اسرائيل».

هذه خلاصة العقائد التي يغرسها الصهيونيون في شبابهم و يربونهم عليها قبل أن يدفعوهم للميدان دفاعاً عنها. فأي مبدأ كنا نقاتل في سبيله وأي عقيدة يمكن أن نلتف حولها فنجد فيها هذا الذخر المعنوي الماثل؟ لقد ثبت أن «دعاوى العروبة» وروابط الجنس واللغة والحدود المشتركة كلها فاشلة في اقناع الجندي بالحرب والجهاد من أجلها. وإذن فلا بد من مبدأ قوي يشتمل على هذه المعاني كلها و يزيد عليها، ولن تجد ذلك بصورته الكاملة إلا في «الاسلام» ومبادئه.

لو آمن الضابط والجندي بالاسلام إيماناً صحيحاً واختلط هذا الإيمان بدمه وعقله وأعصابه، ففي تلك الحالة فقط يمكن أن يقاتل وإن زاد عنه العدو في عدد أو عدة، لو آمن بالاسلام لعلم أن الدفاع عن فلسطين وغيرها فرض يحتمه الاسلام «**وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون**»، ولو آمن بالاسلام لأيقن أن محاربته للعدو سواء كانت دفاعاً عن أرض، أو تأميناً لمصلحة، أو طلباً لحرية، هي جهاد في سبيل الله تستحق النصر عليه في الدنيا والمثوبة الكريمة في الآخرة.

ونجد الاسلام ينحو منحى عجيباً في تركيز هذا المعنى «**الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت**» فإن كانت الهزيمة فهو قوة هائلة تقف في جانب المهزوم وتدفعه لمواصلة الكفاح «**إن يمسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله، وتلك الأيام نداولها بين الناس ...**» وإن كان النصر فهو صمام يمنع المنتصر من العدوان «**الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر**».

ولم يقف الاسلام عند حدود المعنويات، ولكنه يتجاوزها إلى الماديات أيضاً، فيضع الأسس الصالحة لبناء عسكرية مثالية قوية، فيهتم بالطاعة والنظام، ويجعلها أساساً للعسكرية الصالحة «**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**» «**إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص**».

ولا يغفل الإعداد والتدريب كمرحلة ضرورية لتكوين الجيوش القوية، ويشير

بوضوح إلى أن الاعداد هو ضمان النجاح، وأن الجيوش غير المعدة لا تستطيع أن تؤدي واجبها «**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم**» «**ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة**» ومن آثار النبي صلى الله عليه وسلم في التدر يب أن الرماية نعمة من نعم الله فمن نسيها فقد كفر بانعم الله تعالى!! إلى غير ذلك من عجائب الآيات والنصوص التي تقيم معالم عسكر ية مؤمنة قو ية لا ظلم فيها ولا عدوان معها.

وقد يتبادر إلى الذهن أني أقصد من وراء كل هذا إكثار عدد الأئمة والوعاظ الرسميين في كتائب الجيش، فتلك طر يقة ثبت فشلها بشهادة الوعاظ أنفسهم، فالواعظ من هؤلاء لا يجرؤ على مخاطبة أقل الرتب إلا باحتراس وحذر، ولا يستطيع أن يقومه على أمر الله وهو آمن على وظيفته ومرتبه! لكنني أعني تحوير نظم الجيش كلها بحيث تتلاءم مع تعاليم الاسلام من فرض الصلاة إلى فرض التدريب وإقامة المصانع، ولتقو ية الناحية الروحية في أفراد الجيش لا بأس من انتخاب عدد من شباب الأزهر النابهين وتدر يبهم في الكليات العسكر ية، وإلحاقهم في الجيش كما هو حادث بالنسبة للمهندسين والأطباء والحقوقيين الذين يلتحقون بالجيش، وتكون مهمة هؤلاء الضباط الاندماج في الكتائب ضباطاً عاديين يمتازون بثقافة إسلامية تؤهلهم للوعظ والارشاد، وتوضع في أيديهم بعض السلطات التي تكفل لهم أداء واجبهم بنجاح. وإذا كان من طباعنا معشر المصر يين أن لا نؤمن بفكرة إلا إذا سبقتنا لها عقول أور بية فنحن نؤكد أن هذه الوسيلة قد اتبعت في الجيوش الأورو بية الحديثة، وفي الجيش البر يطاني بوجه خاص. فقد جندت أخيراً جماعات خاصة مهمتها غرس فضائل الدين في نفوس أفراد الجيش كوسيلة لتقو ية المعنو يات في الجنود، فإذا كان الغر بيون قد اتجهوا هذا الاتجاه فنحن أولى بإقامة جيشنا على أساس إسلامي متين، خاصة وأن الاسلام لا يتعرض للمعنو يات فحسب بل يتجاوزها إلى وضع الأسس العلمية لقيام عسكر ية مثالية فاضلة.

ومن الوسائل الناجحة أيضاً، أن يدرس التار يخ العسكري الاسلامي في كلياتنا الحر بية، وأن تسمى فرق الجيش وألو يته بأسماء مشاهير القادة الاسلاميين، وأسماء المعارك

المشهورة التي أحرز فيها المسلمون انتصارات كبيرة «كاليرموك» «والقادسية» وغيرهما، ولسنا نبتدع هذا النظام من عند أنفسنا، ولكنه نظام معترف به حتى في أحدث جيوش العالم، ولا تزال فرق من الجيش الانجليزي تحمل أسماء قواد ومعارك كبيرة من تاريخ بريطانيا العسكري، واليهود يطلقون على كتائب جيشهم الوليد أسماء بعض الشخصيات الكبرى في تاريخهم وبناة دولتهم، وجيشنا بهذا الوضع يعتبر مبتوت الصلة بتاريخه المجيد وماضيه المشرق، بل لا يجد الضابط مثلاً عليا يتطلعون إليها غير أمجاد الخصوم ومفاخر قوادهم.

وكتابنا العسكريون ـ على كثرتهم ـ يأنفون من الكتابة في التاريخ الاسلامي مخافة أن يتهموا «بالرجعية» وهي التهمة التي أطلقها المستعمر وصنائعه على كل محاولة ترمي إلى إحياء أمجاد الاسلام وتعاليمه، والرجوع بها الى منابعها الأصيلة من كتاب الله وآثار نبيه وتاريخ السلف الصالح من أبنائه، وفي الوقت الذي يشفق فيه كتابنا العسكريون على انفسهم من تهمة «الرجعية» لا يستنكف كثير من كتاب أوروبا الأحرار فيكتبون المقالات الطوال في مناقب القادة العسكريين الاسلاميين، ويقارنون بينهم وبين أشهر مشاهير الحروب الحديثة، حتى سمعنا أحد «مارشالات» ألمانيا في الحرب العالمية الأولى يقول أن مثله الأعلى في العسكريين هو سيف الله خالد بن الوليد.

وليست هذه هي كل ما يمكن اقتراحه من وسائل للنهوض بالجيش وتوجيهه وجهة اسلامية فإني أعلم أن هذا الموضوع أكبر من أن يحاط في هذا البحث الصغير، ولكننا نكتفي بالاشارة تاركين المهمة لرجال العسكرية الذين أنيط بهم واجب الرقي بالجيش وهو أمر يسير هين لو اتحدت الغايات وأخلصت النيات.

حاربوا المنكرات في صفوف الجيش :

لم يسلم الجيش من عدوى التحلل الخلقي التي انتقلت لهذه الأمة فيما انتقل إليها من مفاسد الحضارة الغربية، وبلغ من تمكنها أن الذي يجتنبها ويتمسك بدينه وخلقه ورجولته يتهم بالجمود «والرجعية» والتخلف عن ركب الحضارة، فالخمر والميسر والزنا ومخاصرة

النساء، كل هذه المصائب أصبحت عنواناً لهذه الحضارة، ولازمة من اللوازم التي تعلي من شأن مرتكبها وتجعله في طليعة المتقدمين النابهين.

سمع بعض ضباطنا وقرأوا عن كثير من القادة العسكر يين الأور بيين، ومن مراجعة سيرهم علموا أن الجنرال «فلان» كان زيرنساء، وأن المارشال «علان» كان لا يفيق من السكر، فظن هذا البعض أن النساء والخمر من مستلزمات العبقر ية، وأن على الضابط إن أراد أن يكون قائداً ممتازاً فليس أمامه إلا أن يسلك هذا السبيل، و يا و يل من يقف في هذا الطر يق ويحاول انتقاده، إنه يصبح رجعياً تافهاً، يجب أن يعود إلى مقبرة أجداده العرب الأقدمين ...

ليس من شك أن هذا فهم خاطئ، لأسباب كثيرة أهمها : أن كثيراً من القادة العباقرة سواء القدامى أو المعاصر ين، لم يكونوا على هذه الشاكلة، فالقواد الاسلاميون الكبار كخالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص، وعمرو بن العاص، لم يقل أحدهم أنهم كانوا يحتسون الخمر ويخاصرون النساء حين كانوا في أوج شهرتهم العسكر ية، وكان التار يخ الانساني يسلمهم زمامه وأعنته ليوجهوه وجهته الصحيحة.

ولست أعتقد أن أحداً من ضباطنا مهما كانت آماله وأطماحه يمكن أن تصل به مقدرته وكفاءته إلى ما وصل إليه هؤلاء القادة العباقرة الأفذاذ، وقبل أن يسخر مني الساخرون و يتهموني بالرجعية ان حشرت هؤلاء القادة في زمرة العظام النابهين، أبادر فأقول ان رجلاً كالمارشال «مونتجمري» أحد أبطال بر يطانيا العسكر يين، والقائد الذي تجاوزت شهرته حدود بلاده، وأصبح يحرك اليوم أكبر الكتل العسكر ية في العالم، مونتجمري هذا يقولون عنه أنه لم يشرب الخمر في حياته، ولم يدخن، و يقول عارفوه أن الناحية الدينية متمكنة من نفسه حتى أنه يذهب الكنيسة في أوقات دور ية منتظمة!!

وإذن فليست الخمر والنساء وإضاعة الوقت والجسم في إرضاء الشهوات والنزعات من مستلزمات العبقر ية، ولا من العوامل التي تكون شخصية القائد وتؤهله لنيل المناصب الكبرى في الجيش، ولكنها عوامل كثيرة تلك التي تخلق الشخصية أهمها: الخلق وقوة

البدن، وغزارة العلم وثبات الإيمان، وكلها عوامل لا تمت للخمر والنساء والميسر بسبب من الأسباب.

أعتقد أنه من العسير معالجة هذه الأوبئة تحت كنف النظم الحالية في الجيش، فأندية الجيش في بلاد القطر يشرب فيها الخمر و يلعب فيها الميسر، و يرغم الضباط إرغاماً على الاشتراك فيها والمواظبة على ارتيادها، ولا أظن الناس قد نسوا بعد ما كان من أمر الرجل الصالح اللواء «عبد الواحد سبل» حين رفض الاشتراك في نادي الضباط إلا أن تنزع منه الخمر واحتدمت معركة عنيفة بين الرجل و بين الخمر أسفرت عن نزعه من الجيش و بقاء الخمر في نادي الجيش!!.

ولست أعني أن ضباطنا جيعاً على هذه الشاكلة، ولكن أردت أن أقول أن النظم الحالية للجيش وعدم تمشيها مع تقاليد الاسلام وما تفرضه على الجندي من رجولة وكرامة لا تقضي على هذه المباذل الخلقية، بل تنميها وتشجعها وتأخذ بيدها لأبعد غاياتها، وتهدد المعترضين عليها بالنكال وسوء المنقلب، وماحدث لضابطنا الكبير «عبد الواحد سبل بك» قد يحدث لآخرين ممن يبدون اعتراضاً على هذه النظم البالية.

ولقد حدثني أخيراً بعض ضباطنا الشبان، أن أحدهم رفض الاشتراك في أحد أندية الضباط في منطقة نائية وطولب في قيمة الاشتراك مراراً فكان يرفض و يعلق الدفع على نزع الخمر من النادي، مما اضطر قائده المباشر إلى إدخاله لمكتب قائد المنطقة الذي أخذ يوجه إليه «النصح» و يدعوه إلى الاستقامة والتمسك بالأخلاق الفاضلة التي تتناسب مع وضعه كضابط في الجيش، وذلك بأن يدفع الاشتراكات المتخلفة، وكان مما قاله له: «يا بني إن الحالة كلها بايظة، ولن تستطيع أنت وحدك أن تصلح نظام هذا الكون» ولم تدم مقاومة الضابط الشاب أمام هذا المنطق السليم، منطق الرجل الحكيم المجرب، فدفع ما عليه وخرج مقتنعاً أن نظام الكون المصري «بايظ» فعلاً، بل مقلوب رأساً على عقب.

أعلم أن في قوانين الجيش عقوبة قاسية للضباط الذين يتسببون في امتهان كرامة الجيش، و يدخل تحت طائلة هذه القوانين ظهور الضباط بلباس زري، أو هيئة مشوهة، أفلا يكون شرب الخمر مما يسيء إلى كرامة الجيش وكرامة الأمة التي يدافع عنها هذا الجيش.

إذا كنتم تريدون المحافظة على كرامة الجيش فيجب أن تبادروا دون إبطاء لإلغاء الخمر من أندية الضباط، وتحريم بيعها أو دخولها إلى المعسكرات، وتوقيع عقوبات قاسية على الضباط الذين يشربونها، وذلك هو السبيل الوحيد لحفظ كرامة الجيش وكرامة الأمة التي يدافع عنها هذا الجيش.

وإذا كنا نهتم بالقضاء على المسكرات وتطهير أوساط الضباط من هذه الآفات فلا يمكننا إغفال المخدرات التي تغلغلت في أوساط الجيش من مختلف الرتب، وخاصة في أوساط الجنود الصغار، فالجندي البسيط لا يمكن أن يتناول «الويسكي» مثلاً لأن مرتبه كله لا يملأ عدة كؤوس من هذه المشروبات، ومن هنا يضطر إلى شراء المخدرات كالحشيش والأفيون، ومن هنا تفشت هذه الكيوف السامة وأصبحت مصدر خطر كبير لا بد من محاربته والقضاء عليه.

وأعتقد أن حضرات الضباط الذين اشتركوا في الحملة يذكرون كيف تسببت هذه الكيوف في كثير من الكوارث، حتى سمعت من بعضهم قوله: «إن الحشيش كان من الأسلحة السرية الخطيرة التي حطمت أعصاب الجنود وقواهم المعنوية». وحين أقول محاربة الكيوف لا أعني المزيد من النشرات التي كانت ترسلها إدارة الجيش لتوزع على الوحدات وتهددهم فيها بالويل والثبور وعظائم الأمور لمن يضبط متلبساً بشرب هذه السموم الخطرة، لا أعني هذا مطلقاً، ومن حق إدارة الجيش عليّ أن أطمئنها أن هذه النشرات لم تكن تجدي أي نفع اللهم إلا في لفافات الدخان «والجوزة» المشحونة بالحشيش.

لا بد من القيام بحركة واسعة يكون أول مراحلها إلغاء الخمر من أندية الضباط، وتوقيع العقوبات الصارمة على من يضبط متلبساً بشربها فإن الجنود ـ وقد سمعتها من أفواههم عشرات المرات ـ يعتقدون أن محاربة الحشيش في أوساط الجنود ـ مع السماح بتناول الخمر في أندية الضباط ـ إن هو إلا ضرب من الامتيازات والتسهيلات التي تغدق على الضباط ويحرم منها الجنود، ويعتقدون أنه مادامت الحكومة تسمح للضباط بالترويح عن أنفسهم بتعاطي الخمور، بل وتمهد لهم السبيل للحصول عليها، فإن مقتضيات العدالة والمساواة تحتم عليها أن تسمح للجنود بالترفيه عن أنفسهم باستعمال المخدرات وخاصة وهي تعلم جيداً أن مرتب الجندي البسيط لا يسمح له مطلقاً بشراء الخمور!..

أظن أن رئاسة الجيش في هذه الحالة لا تملك إلا أن تختار أحد حلين ، إما أن تكون جادة في تطهير الجيش ومكافحة هذه الأخطار من بين صفوفه ، فتحرم تعاطي المسكرات والمخدرات وتفرض أشد العقوبات على من يضبط متلبساً بتعاطي هذه الأرجاس ، مهما كانت رتبته أو مركزه في الجيش ، أو أن تريح نفسها من هذا العناء فتسمح للجنود أيضاً بتعاطي الحشيش وتسهل لهم سبل الحصول عليه تمشياً مع مبادئ المساواة والعدالة .

لولم يكن الاسلام يحرم هذه المباذل ، و يعمل جاهداً للقضاء عليها وتطهير المجتمعات من شرور نتائجها ، لكان من واجبنا أن نقضي عليها إذا أردنا أن نخلق أمة قوية عزيزة ، وجيشاً عظيماً مرهوباً ، ولقد رأينا كيف قضت روح الترف والانغماس في اللذات على قوى الجيش الفرنسي واضطرته للاستسلام والركوع تحت أقدام النازيين ، ولقد علل المارشال «بيتان» بطل فرنسا العسكري ، وأشهر قوادها في هذا الجيل تلك الهزيمة حين قرر أنها «جاءت نتيجة طبيعية لانغماس الجنود في اللذة والترف ، ونفورهم من التضحية والواجب» .

هذا درس نستخلصه من بين أصابع التاريخ ، وتلك نتيجة وصل إليها قائد محنك يعتبر في طليعة القادة العسكريين ، وها نحن أولاء نضعها أمام المسؤولين عن الأمة والجيش عساهم ينتبهون للهوة السحيقة التي فغرت فها تحت أقدامهم . وما كنا بحاجة لأن نتسقط الأدلة والعبر وعندنا كتاب الله يقرر في وضوح و بيان **(وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا)** .

القاهرة ـ ٢٧ فبراير سنة ١٩٥١م

الفهرس

مقدمة الطبعة الثانية ٧
مقدمة الطبعة الأولى ١٥
١ ـ فذلكة تاريخية ١٧
٢ ـ بريطانيا تغرّر بالعرب ١٩
٣ ـ العرب يدافعون عن حقوقهم ٢٢
٤ ـ فلسطين بين قوتين ٢٥
٥ ـ الاخوان وقضية فلسطين ٣١
٦ ـ العقبات في طريق الاخوان ٣٧
٧ ـ يتخطون العقبات ٤٣
٨ ـ جاسوسية وجواسيس ٤٨
٩ ـ الاخوان في النقب (معركة كفار ديروم الاولى) ٥٧
١٠ ـ الاخوان يقومون بحرب العصابات ٦٥
١١ ـ مع أحمد عبدالعزيز في جولته ٧٧
١٢ ـ في الدفاع عن بيت لحم والخليل ٩١
١٣ ـ دخول الجيش المصري إلى فلسطين ١٠٧
١٤ ـ أخطاء .... وانسحابات ١٢٠
١٥ ـ تغيير القيادة وحل الاخوان ١٢٩
١٦ ـ الاخوان بعد قرار الحل (معركة التبة ٨٦) ١٤٣
١٧ ـ المعارك الأخيرة في (النقب) ١٥٠
١٨ ـ المعارك في شبه جزيرة سيناء ١٦٠
١٩ ـ الى المعتقلات ١٧٥
خاتمة ١٨٣
إلى الكفاح من جديد ١٨٣
بعد النكبة ١٨٩
الفهرس ٢٠٨



الناشر:

مكتبة المنار - الزرقاء

شارع الفاروق - بجانب جمعية المركز الإسلامي

ت ٨٣٦٥٩ - ص.ب ٨٤٩